سراج الملوك للإمام العالم العلامة الثبت الثقة

الحجة الفهامة العارف بالله أبي بكر محمد بن

محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي

المالكي نفعنا الله به

آمين

م

(فهرسة سراج الملوك)

صحيفة

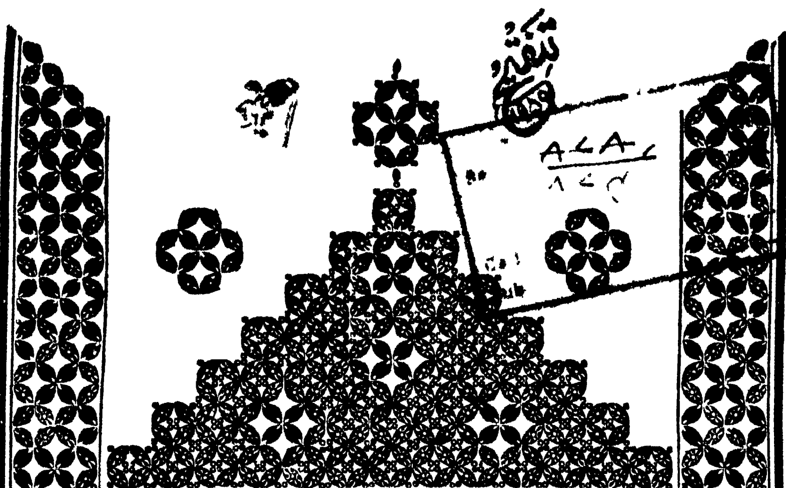
صحيفة

صحيفة

(تمت)

سراج الملوك للامام العالم العلامة الثبت الثقة
الحجة الفهامة العارف بالله أبى بكر محمد بن
محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى
المالكى نفعنا الله به
آمين

م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يزل ولا يزال وهو الكبير المتعال خالق الاعيان والآثار ومكور النهار على الليل والليل على النهار العالم بالخفيات وما تنطوى عليه الارضون والسموات سواء عنده الجهر والاسرار ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير خالق الخلق بقدرته وأحكمهم بعلمه وخصصهم بمشيئته ودبرهم بحكمته لم يكن له فى خلقهم معين ولا فى تدبيرهم مشير وظهير وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن أو يستظهر من تقدس عن الذل بمن دخل تحت ذل التكوين ثم كلفهم معرفته وجعل علم العالمين بعجزهم عن ادراكه ادراكا لهم ومعرفة العارفين بتقصيرهم عن شكره شكرا لهم كما جعل اقرار المقرين بوقوف عقولهم عن الاحاطة بحقيقته ايمانا لهم لا يلزمه لم ولا يجاوزه اين ولا يلاصقه حيث ولا يحده ما ولا يعده كم ولا يحصره متى ولا يحيط به كيف ولا يناله أى ولا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحده امام ولم يظهره قبل ولم يعينه بعد ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ولم يفقده ليس وصفه لا صفة له وكونه لا أمد له ولا تخالطه الاشكال والصور ولا تغيره الايام والغير ولا تجوز عليه المماسة والمقاربة وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة ان قلت لم كان فقد سبق العلل ذاته ومن كان معلولا كان له غيره علة يساوقه فى الوجود وهو قبل جميع الاعيان بلا علة فقدرة الله فى الاشياء بلا امتزاج وصنعه فيها بلا علاج وعلة كل شئ صنعه ولا علة لصنعه فان قلت أين هو فقد سبق المكان وجوده فمن أين الاين لم يفتقر وجوده الى أين هو بعد خلق المكان غنى بنفسه كما كان قبل خلق المكان وكيف يحل فيما منه بدا أو يعود اليه ما هو أنشا وان قلت ما هو فلا ماهية لوجوده وما موضوعة للسؤال عن الجنس والقديم تعالى لا جنس له لان

الجنس

الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت المائية وان قلت لم هو فهو أحد فى ذاته منفرد بصفاته وان قلت متى كان فقد سبق الوقت كونه وان قلت كيف هو فمن كيف الكيف لا يقال له كيف ومن جازت عليه الكيفية جاز عليه النعت وان قلت هو فالهاء والواو خلقه بل ألزم الكل الحدث كما قال بعض الاشياخ لان القدم له فالذى بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه والذى بالاداة اجتماعه فقواها تمسكه والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه والذى الوهم يطرقه فالتصوير يرتقى اليه ومن آواه محل أدركه أين ومن كان له جنس طلبه كيف وجوده اثباته ومعرفته توحيده وتوحيده تمييزه من خلقه ماتصور فى الاوهام فهو بخلافه لاتخالطه العيون ولاتخالطه الظنون ولاتصوره الاوهام ولاتحيط به الافهام ولايقدر قدره الانام ولايحويه مكان ولايقارنه زمان ولايحصره امد ولايسعه ولد ولايجمعه عدد قربه كرامته وبعده اهانته علوه من غير توقل ومجيئه من غير تنقل هو الاول والآخر والظاهر والباطن القريب البعيد الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وأشهد له بالربوبية والوحدانية وبما شهد به لنفسه من الاسماء الحسنى والصفات العلى والنعت الاوفى ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وأومن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون وأشهد أن محمدا عبده المصطفى وأمينه المرتضى أرسله الى كافة الورى بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتخبين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين (أما بعد) فانى نظرت فى سير الامم الماضية والملوك الخالية وماوضعوه من السياسات فى تدبير الدول والتزموه من القوانين فى حفظ النحل فوجدت ذلك نوعين أحكاما وسياسات فاما الاحكام المشتملة على ما اعتقدوه من الحلال والحرام والبيوع والاحكام والانكحة والطلاق والاجارات ونحوها والرسوم الموضوعة لها والحدود القائمة على من خالف شيأ منها فأمر اصطلحوا عليه بعقولهم ليس على شئ منه برهان ولا أنزل الله به من سلطان ولا أخذوه عن تدبر ولا اتبعوا فيه رسولا وانما هى صادرة عن خزنة النيران وسدنة بيوت الاصنام وعبدة الانداد والاوثان وليس يعجز احد من خلق الله ان يصنع من تلقاء نفسه أمثالها وأشباهها وأما السياسات التى وضعوها فى التزام تلك الاحكام والذب عنها والحماية لها وتعظيم من عظمها واهانة من استهان بها او خالفها فقد ساروا فى ذلك بسيرة العدل وحسن السياسة وجمع القلوب عليها والتزام النصفة فيما بينهم على ماتوجبه تلك الاحكام وكذلك فى تدبير الحروب وامن السبل وحفظ الاموال وصون الاعراض والحرم كل ذلك فقد ساروا فيه بسيرة جميلة لا ينافى العقول شئ منه لو كانت الاصول صحيحة والقواعد واجبة فكانوا فى حسن سيرتهم بحفظ تلك الاصول الفاسدة كمن زخرف كنيفا أو بنى على ميت قصرا منيفا

ولو لبس الحمار ثياب خز * لقال الناس يالك من حمار

فجمعت مختلس ماانطوى عليه سيرهم خاصة من ملوك الطوائف وحكماء الدول فوجدت ذلك فى ست من الامم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند فاما ملوك الصين وحكماؤهم فلم يصل الى أرض العرب من سياساتهم شئ كثير لبعد المشقة وطول المسافة وأما من عدا هؤلاء من الامم فلم يكونوا أهل حكم بارعة وقرائح نافذة واذهان

ثاقبة وانما صدر عنهم الشئ اليسير من الحكمة فنظمت ما ألفيت فى كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة والكلمة اللطيفة والطريقة المألوفة والتوقيع الجميل والاثر النبيل الى ما رويته وجمعته من سير الانبياء عليهم السلام وآثار الاولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ومغاص الجواهر المكنونات ان اختصر فلمعة دالة واشارة خفية وان اطال فالفاظ بارعة وآيات معجزة هو الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة (ورتبته) ترتيبا أنيقا وترجمته تراجم بارعة حاوية لمقاصدها ناطقة بحكمها ومضمونها يلج الاذن من غير اذن ويتولج التامور من غير استئمار الفاظها قوالب لمعانيها ليس الفاظها الى السمع بأسرع من معانيها الى القلب فانتظم الكتاب بحمد الله وعونه واحسانه غاية فى بابه غريبا فى فنونه واسبابه خفيف المحمل كثير الفائدة لم يسبق الى مثله اقلام العلماء ولا جالت فى نظمه افكار الفضلاء ولا حوته خزائن الملوك والرؤساء فلا يسمع به ملك الا استكتبه ولا وزير الا استصحبه ولا رئيس الا استحسنه واستوسده عصمة لمن عمل به من الملوك وأهل الرياسة وجنة لمن تحصن به من أولى الامر والسياسة وجمال لمن تحلى به من أهل الآداب والمحاضرة وعنوان لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة (وسميته سراج الملوك) يستغنى به الحكيم بدراسته عن مباحثة الحكماء والملوك عن مشاورة الوزراء (واعلموا) وفقكم الله ان احق من أهديت اليه الحكم وأوصلت اليه النصائح وحلت اليه العلوم من آتاه الله سلطانا فنفذ فى الخلق حكمه وجاز عليهم قوله (ولما رأيت) الاجل المأمون تاج الخلافة عز الاسلام فخر الانام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أباعبد الله محمد الاموى ادام الله لاعزاز الدين نصره وأنفذ فى العالمين بالحق أمره وأوزع كافة الخلق شكره وكفاهم فيه محذوره وضره فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين فبسط فيهم يده ونشر فى مصالح أحوالهم كلته وعرف الخاص والعام يمنه وبركته وتقلد امور الرعية وسار فيهم على أحسن قضية متحريا للصواب راغبا فى الثواب طالبا سبيل العدل ومناهج الانصاف والفضل رغبت ان اخصه بهذا الكتاب رجاء لطف الله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر كما قيل

الناس يهدون على قدرهم * لكننى اهدى على قدرى

يهدون ما يفنى وأهدى الذى * يبقى على الايام والدهر

فان العلم عصمة الملوك والامراء ومعقل السلاطين والوزراء لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله (وهذه) أبواب هذا الكتاب وعدتها أربعة وستون بابا الباب الاول فى مواعظ الملوك الباب الثانى فى مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين الباب الثالث فيما جاء فى الولاة والقضاة وما فى ذلك من الغرر والخطر الباب الرابع فى معرفة ملك سليمان بن داود ووجه طلبه للملك وسؤاله أن لا يؤتاه أحد من بعده الباب الخامس فى فضل

السلطان فى تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال الباب الحادى والخمسون فى أحكام اهل الذمة الباب الثانى والخمسون فى بيان الصفات المعتبرة فى الولاة الباب الثالث والخمسون فى بيان الشروط والعهود التى تؤخذ على العمال الباب الرابع والخمسون فى هدايا العمال والرشا على الشفاعات الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق الباب السادس والخمسون فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته الباب السابع والخمسون فى السعاية والنميمة وقبحهما ومايؤل اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة الباب الثامن والخمسون فى القصاص وحكمته الباب التاسع والخمسون فى الفرج بعد الشدة الباب الستون فى الشجاعة وثمراتها الباب الحادى والستون فى الحروب وتدبيرها الباب الثانى والستون فى القضاء والقدر وأحكامهما الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم الباب الرابع والستون يشتمل على حكم منثورة وهو آخر الكتاب وكمال الابواب

(الباب الاول فى مواعظ الملوك)

لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا اعلم ايها الرجل وكذاك الرجل ان عقول الملوك وان كانت كبارا الا انها مشغوفة بكثرة الاشغال فيستدعى من الموعظة مايتولج على تلك الافكار ويتغلغل فى مكامن تلك الاسرار فيرفع تلك الاستار ويفك تلك الاكنة والاقفال ويصقل ذلك الصدأ والران قال الله تعالى قل متاع الدنيا قليل فوصف الله تعالى جميع الدنيا بانها متاع قليل وأنت تعلم انك ما أوتيت من ذلك القليل الا قليلا ثم ذلك القليل ان تمتعت به ولم تعص الله فيه فهو لهو ولعب قال الله تعالى انما الحياة الدنيا لهو ولعب ثم قال وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون فلا تبع أيها العاقل لعبة قليلا يفنى بحياة الابد حياة لا تفنى وشباب لا يبلى كما قال الفضيل رحمه الله لو كانت الدنيا ذهبا يفنى وكانت الآخرة خزفا يبقى لوجب ان نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا ما آتى سليمان بن داود عليهما السلام حيث آتاه ملك جميع الدنيا والانس والجن والطير والوحش والريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ثم زاده الله ماهو أعظم منها فقال تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فوالله ماعدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها رفعة ومنزلة كما حسبتموها بل قال عند ذلك هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر وهذا فصل الخطاب لمن تدبر أن يقول له ربه فى معرض المنة هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ثم خاف سليمان عليه السلام أن يكون استدراجا من حيث لا يعلم هذا وقد قال لك ولسائر أهل الدنيا فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين تأمل بعقلك ماروى عن النبى عليه السلام انه قال لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء وألق سمعك الى مانزل به جبريل عليه السلام من عند الله تعالى على محمد عليه السلام فقال يا محمد ان الله يقول لك عش ماشئت فانك ميت وأحبب من شئت فانك مفارقه واعمل ماشئت فانك مجزى به فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات من تصرم العمر وفراق الاحبة والجزاء على الاعمال فلو لم ينزل من السماء غيرها لكانت كافية انظر بفهمك الى مارواه الحسين أن النبى عليه السلام مر

بمنزل قوم قد ارتحلوا عنه واذا بالامطروح فقال اترون هذا هان على أهله فقالوا من هوانه عليهم القوه قال فوالذي نفسي بيده لالدنيا أهون على الله من هذا على أهله فجعل الدنيا أهون على الله من الجيفة المطروحة وقال أبو هريرة قال لي النبي عليه السلام ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى قال فأخذ بيدي وأتى بي الى واد من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم ثم قال يا أبا هريرة هذه الرؤس كانت تحرص على الدنيا كحرصكم وتأمل آمالكم ثم هي اليوم تساقط جلدا بلا عظم ثم هي صائرة رمادا رمددا وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها في بطونهم فاصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية رياشهم ولباسهم ثم أصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها اطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا (وقال ابن عمر) أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدي فقال يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل واعدد نفسك في الموتى يا أيها الرجل ان كنت لا تدري متى يفجؤك الاجل فلا تغتر بطول الامل فانه يقسي القلب ويفسد العمل وقد عير الله أقواما مدّ لهم في الاجل فقست منهم القلوب وطال منهم الامل فقال تعالى ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

يا أيها الرجل ألق الى سمعك وأرعني لبك

فكنت لا تدري متى الموت فاعلمن * بانك لا تبقى الى آخر الدهر

ابن آدم أين آدم أبو الاولين والآخرين أين نوح شيخ المرسلين أين ادريس رفيع العالمين اين ابراهيم خليل الرحمن اين موسى الكليم من بين النبيين والمرسلين اين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين وأمام السائحين اين محمد خاتم النبيين وحبيب رب العالمين وسيد الاولين والآخرين اين أصحابه الابرار المنتخبون اين الامم الماضية اين الملوك السالفة أين القرون الخالية اين الذين نصبت على مفارقهم التيجان اين الذين اغتروا بالاجناد والسلطان أين أصحاب السطوة والولايات اين الذين خفقت على رؤسهم الالوية والرايات أين الذين قادوا الجيوش والعساكر أين الذين عمروا القصور والدساكر أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب أين الذين تمتعوا في اللذات والمآرب أين الذين أسرفوا على الخلائق كبرا وعتيا أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا أين الذين استحلوا الملابس أثاثا ورئيا أين الذين ملكوا ما بين الخافقين فخرا وعزا أين الذين فرشوا القصور خزا وبزا أين الذين تضعضعت لهم الارض هيبة وهزا أين الذين استذلوا العباد قهرا ولزا هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا أفناهم والله مفني الامم وأبادهم مبيد الرمم واخرجهم من سعة القصور وأسكنهم في ضنك القبور تحت الجنادل والصخور فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم فعاث الدود في أجسادهم واتخذ مقيلا في ابدانهم فسالت

العيون على الخدود وامتلأت تلك الافواه بالدود وتساقطت الاعضاء وتمزقت الجلود وتناثرت اللحوم وتقطعت البطون فلم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما كسبوا أسلمك الاحبة والاولياء وهجرك الاخوان والاصفياء ونسيك القرباء والبعداء فامسيت ولو نطقت لانشدت قولنا فى سكان الثرى ورهائن الترب والبلا

مقيم بالحجون رهين رمس * وأهلى راحلون بكل واد
كانى لم أكن لهم حبيبا * ولا كانوا الاحبة فى السواد
فعوجوا للسلام فان أبيتم * فأوموا بالسلام على بعاد
فان طال المدى وصفا خليل * سوانا فاذكروا صفو الوداد
وذاك أقل مالك من حبيب * وآخره الى يوم التناد
فلو أنا بموقفكم وقفنا * سقينا الترب من مهج الفؤاد

(وقال) مكرم بن يوسف العابد أوحى الله الى نبى من أنبياء بنى اسرائيل ان قف على المدائن والحصون وأبلغهم عنى حرفين لا تأكلوا الا طيبا ولا تتكلموا الا بالحق ولما دخل يزيد الرقاشى على عمر بن عبد العزيز قال عظنى يا يزيد قال يا أمير المؤمنين اعلم انك أول خليفة تموت فبكا عمر وقال زدنى يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم الا أب ميت فبكا وقال زدنى يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بين الجنة والنار منزل فسقط مغشيا يا أيها الرجل لا تغفلن عن تذكر ما تتيقنه من خوف الفناء وتقضى المسار بذهاب اللذات وانقضاء الشهوات وبقاء التبعات وانقلابها حسرات وان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له من صح فيها سقم ومن سلم فيها هرم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب من ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها أعمته ومن بصر بها بصرته لا خيرها يدوم ولا شرها يبقى ولا فيها المخلوق بقاء يا أيها الرجل لا تخدعن كما خدع من قبلك فان الذى أصبحت فيه من النعم انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يديك بمثل ما صار اليك فلو بقيت الدنيا للعالم لم تصر للجاهل ولو بقيت للاول لم تنتقل الى الآخر يا أيها الرجل لو كانت الدنيا كلها ذهبا وفضة ثم سلمت عليك بالخلافة وألقت اليك مقاليدها وافلاذ كبدها ثم كنت طريدة للموت ما كان ينبغى لك ان تتهنا بعيش لا خير فيما يزول ولا غناء فيما لا يبقى وهل الدنيا الا كما قال الاول قدر تغلى وكنيف يملا وكما قال الشاعر

ولقد سألت الدار عن أخبارهم * فتبسمت عجبا ولم تبدى
حتى مررت على الكنيف فقال لى * أموالهم ونوالهم عندى

ولقد أصاب ابن السماك لما قال له الرشيد يا ابن السماك عظنى وبيده شربة من ماء فقال يا أمير المؤمنين أرأيت لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفتديها بملكك قال نعم قال يا أمير المؤمنين فلو حبس عنك خروجها أكنت تفتديه بملكك قال نعم قال فلا خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة أيها الشاب لا تغتر بشبابك فان أكثر من يموت الشباب والدليل عليه ان أقل الناس الشيوخ يا أيها الشاب كم من جمل فى التنور وأبوه يرعى وكم من طفل فى التراب يوجده يجنى

وقال

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لاسقف قد أسلم عظني قال يا أمير المؤمنين ان كان الله عليك فمن ترجو وقال أحسنت فزدني قال ان كان الله معك فمن تخاف قال أحسنت فزدني قال أحسب ان الله قد غفر ذنب المذنبين اليس قد فاتهم ثواب المحسنين قال حسبي حسبي وبكى أربعين صباحا وقال الحسن قدم صعصعة يعني عم الفرزدق على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه يقرأ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فقال حسبي حسبي لا ابالي ان لا أسمع آية غيرها وقال سليمان بن عبد الملك لحميد الطويل عظني فقال ان كنت اذا عصيت الله ظننت انه يراك فلقد اجترأت على رب عظيم وان كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت برب عظيم وكتب علي بن الحسين رضي الله عنه الى سلمان انما مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها ويقتل سمها فاعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن فيها الى سرور أشخص منها الى مكروه وقال ابو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذا * ودار الفناء ودار الغير
ولو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها وطر
أيا من يؤمل طول الحياة * وطول الحياة عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير في العيش بعد الكبر

ولما بلغ مراده من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه ورقت اليه همته رفضها ونبذها وقال هذا سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هلك وغناء لولا انه فناء وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنى لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء لولا انه بلاء وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بغد يا أيها الرجل لا تكن كالمنخل يرسل اطيب ما فيه ويمسك الحثالة واعلم ان من قسا قلبه لا يقبل الحق وان كثرت زواجره قال الله تعالى فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة وذلك ان كثرة الذنوب مانعة من قبول الحق القلوب وولوج المواعظ فيها قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون أي غطاها وغشيها فلا تقبل خيرا ولا تصغي لموعظة جاء في التفسير اذا اذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ثم اذا اذنب نكتت نكتة سوداء حتى يسود القلب وقال حذيفة القلب كالكف فاذا اذنب العبد انقبض وقبض اصبعا ثم اذا اذنب انقبض وقبض اصبعا أخرى ثم كذلك في الثالث والرابع حتى ينقبض الكف كله ثم يطبع الله عليه فذلك هو الران وقال بكر بن عبد الله اذا اذنب العبد صار في قلبه كوخز الابرة ثم كلما أذنب صار فيه كوخز الابرة ثم كلما اذنب صار فيه كوخز الابرة حتى يعود القلب كالمنخل وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب وقال ابن شبرمة اذا كان البدن سقيما لم ينفعه الطعام واذا كان القلب مغرما بحب الدنيا لم تنفعه الموعظة وفيه قيل

ولا أرى أثر الذكر في خلدي * والحبل في الصخرة الصماء له أثر
اذا قسا القلب لم تنفعه موعظة * كالارض ان سبخت لم ينفع المطر

ويروى ان أبا العتاهية مر بدكان الوراق واذا كتاب فيه بيت من الشعر

لن ترجع الانفس عن غيها * مالم يكن منها لها زاجر

فقال لمن هذا فقيل لابى نواس قال وددت انه لى بنصف شعرى قال الاصمعى ان النعمان الذى هو امرؤ القيس الاكبر الذى بنى الخورنق أشرف على الخورنق يوما فاعجبه ما اوتى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه نحوه فقال لاصحابه هل اوتى احد مثل ما اوتيت فقال له حكيم من حكماء اصحابه اهذا الذى أوتيت شئ لم يزل ولا يزال ام شئ كان لمن كان قبلك زال عنه وصار اليك قال بل شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الى وسيزول عنى قال فسررت بشئ تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فاين المهرب قال اما ان تقيم وتعمل بطاعة الله او تلبس امساحا وتلحق بجبل وتعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك قال فاذا كان ذلك فمالى قال حياة لا موت فيها وشباب لا هرم فيه وصحة لا سقم فيها وملك جديد لا يبلى قال فاى خير فيما يفنى والله لاطلبن عيشا لا يزول أبدا وملكا جديدا فانخلع من ملكه ولبس الامساح وسار فى الارض وتبعه الحكيم وجعلا يعبدان الله حتى ماتا وفيه يقول عدى بن زيد

وتبين رب الخورنق اذ فكر يوما وللهدى تذكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقد قال ما غبطة حى الى الممات يصير
أين كسرى كسرى الملوك انوشر * وان أم اين قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور
لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور

وفيهم يقول الاسود بن يعفر

ولقد علمت سوى الذى انباتنى * ان السبيل سبيل ذى الاعواد
ماذا أؤمل بعد آل محرق * تركوا منازلهم و بعد اياد
أرض الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذى الشرفات من سنداد
نزلوا بانقرة تسيل عليهم * ماء الفرات يجئ من أطواد
أرض يحبوها الطيب مقيلها * كعب بن مالك وابن أم دواد
جرت الرياح على محل ديارهم * فكانهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى به * يوما يصير الى بلى ونفاد

(وقال) وهب بن منبه أصيب على غمدان وهو قصر سيف بن ذى يزن بارض صنعاء اليمن وكان من الملوك الاجلة مكتوبا بالقلم المسند فترجم بالعربية واذا هى أبيات جليلة وموعظة عظيمة

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم * غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم * فاسكنوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا * أين الاسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت محجبة * من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم * تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا يوما وما شربوا * فأصبحوا بعد ذا الأكل قد أكلوا

قال شيخنا قرئ على القاضي أبي الوليد الباجي وأنا أسمع لبعض الشعراء

ويحك يا أسماء ما شاني * أضللتني والله ما شاني
الموت حق فاعلمي نازل * قرب لي لحدي وأكفاني
قد كنت ذا مال فلا والذي * أعطاني العيش وأغناني
ما قرت العين به ساعة * الا تذكرت فأشجاني
علمي بأني صائر للبلى * وفاقد أهلي وجيراني
وتارك مالي على حاله * نهبا لشيطان ابن شيطان
لامرأة أو ابني أو لزوج ابنتي * يا لك من غي وخسران
يسعد في مالي وأشقى به * قوم ذوو غل وشنآن
ان أحسنوا كان لهم أجره * وخف من ذلك ميزاني

* وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وفناءها ونقصها وزوالها ابراهيم بن أدهم بن منصور من أبناء الملوك ملوك خراسان من كورة بلخ ولما زهد في الدنيا زهد عن ثمانين سريرا قال ابراهيم بن بشار سألت ابراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت الى هذا قال غير هذا أولى بك قلت يرحمك الله لعل الله ينفعني به يوما ثم سألته ثانية فقال ويحك اشتغل بالله تعالى ثم سألته ثالثة فقلت ان رأيت يرحمك الله أن تخبرني لعل الله أن ينفعني فقال كان أبي من ملوك خراسان وكان من المياسير وكان قد حبب الي الصيد فبينا أنا راكب فرسا وكلبي معي وأثرت أرنبا أو ثعلبا فحركت فرسي فسمعت نداء من ورائي يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحدا فقلت في نفسي لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت نداء أقوى من الأول يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت مقشعرا أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيأ فقلت لعن الله ابليس ثم حركت فرسي فسمعت من قربوس سرجي يا ابرهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت وقلت هيهات جاءني النذير من رب العالمين والله لا عصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا فتوجهت الى أهلي وخليت فرسي وجئت الى بعض رعاة أبي فأخذت جبته وكساءه وألقيت اليه ثيابي فلم أزل أرض تقلني وأرض تضعني حتى صرت الى العراق فعملت بها أياما فلم يصف لي شيء من الحلال فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال عليك بالشام قال فانصرفت الى مدينة يقال لها المنصورية وهي المصيصة فعملت بها أياما فلم يصف لي شيء من الحلال فسألت بعض المشايخ فقال ان أردت الحلال فعليك بطرسوس فان المباحات بها والعمل كثير قال فبينا أنا قاعد على باب البحر اذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانا فتوجهت معه فكنت في البستان أياما كثيرة فاذا أنا بخادم قد أظل ومعه أصحاب له ولو علمت أن البستان للخادم ما نظرته فقعد في مجلسه ثم قال يا ناطور فأجبته قال فاذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه فأتيته برمان فأخذ الخادم رمانة فكسرها فوجدها حامضة فقال يا ناطور ما هذا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا لا تعرف الحلو من الحامض قلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيأ وما أعرف الحلو من الحامض قال فغمز الخادم أصحابه

وقال ألا تعجبون من هذا ثم قال لى لو كنت ابراهيم بن أدهم مازاد على هذا فلما كان من الغد حدث الناس فى المسجد بالصفة فجاء الناس عنقا الى البستان فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم وكان ابراهيم بن أدهم يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين والعمل فى الطين وكان يوما يحفظ كرما فتربه جندى فقال اعطنا من هذا العنب فقال ما أمر به صاحبه فاخذ يضربه بالسوط فطاطا رأسه وقال اضرب رأسا طالما عصى الله فاعجز الرجل ومضى وقال سهل بن ابراهيم صحبت ابراهيم بن أدهم فمرضت فانفق على نفقته فاشتهيت شهوة فباع حماره وأنفق ثمنه على فلما تماثلت قلت يا ابراهيم أين الحمار فقال بعناه فقلت فعلام أركب قال يا أخى على عنقى قال فحملنى ثلاث منازل رحمه الله وأنشدوا شعرا

أيها المرء ان دنياك بحر * طافح موجه فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها مبين * وهو أخذ الكفاف والقوت منها

* وبلغنى أن بالهند يوما يخرج الناس فيه الى البرية فلا يبقى فى البلد بشر من طين لا شيخ كبير ولا مولود صغير وهذا اليوم يكون بعد انقراض مائة سنة من يوم مثله فاذا اجتمع الخلق فى صعيد واحد نادى منادى الملك لا يصعدن هذا الحجر لحجر هناك منصوب الا من حضر فى المجمع الاول الذى قد خلا من مائة سنة فربما جاء الشيخ الهرم الذى قد ذهبت قوته وعمى بصره وفنى شبابه وتجىء العجوز ترحف لم يبق منها الا رسمها وقد أخنى الدهر عليها فيصعدان على الحجر الذى هناك ويقول الشيخ حضرت الجمع الاول منذ مائة سنة وأنا طفل صغير وكان الملك فلانا ويصف الجيوش الماضية والامم الخالية وكيف طحنهم البلى وصاروا تحت أطباق الثرى ويقوم خطيبهم فيعظ الناس ويذكرهم صرعة الموت وحسرة الفوت فيبكى القوم ويتوبون من المظالم ويكثرون الصدقات ويخرجون عن التبعات ويصلحون على ذلك * وقال وهب بن منبه صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيأ فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ثم التفت اليه فى اليوم السابع فقال يا هذا قد علمت ماتريد حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فى الدنيا رأس كل خير والتوفيق نتاج كل خير فاحذر رأس كل خطيئة وارغب فى رأس كل خير وتضرع الى ربك أن يهب لك نتاج كل خير قال فكيف أعرف ذلك قال كان جدى رجلا من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء فشبهها بالماء المالح يغرو ولا يروى ويضر ولا ينفع وبسحاب الصيف يغر ولا ينفع وبظل الغمام يغر ويخذل وبزهر الربيع ينضر ثم يصفر فتراه هشيما وباحلام النائم يرى السرور فى منامه فاذا استيقظ لم يكن فى يده الا الحسرة وبالعسل المشوب بالسم الذعاف يغر ويقتل فتدبرت هذه الاحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت حرفا واحدا فشبهتها بالغول التى تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها فرأيت جدى فى المنام وقال يا بنى أشهد انك منى وأنا منك هى والله الغول التى تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها قلت فباى شئ يكون الزهد فى الدنيا قال باليقين واليقين بالصبر والصبر بالعين والعين بالفكر ثم وقف الراهب وقال خذهامنا فلا أراك تلقى الا متجردا بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به قلت وقد وصف الله تعالى الدنيا وأهلها بصفة أعم من هذه الصفة فقال سبحانه اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل

غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد والكفار ههنا الزراع كان الزرع يكون في أول نباته أخضر ناعما اهتزت الارض به بعد يبسها فجاءت في العيون كأملح ما يكون ثم يهيج فتراه مصفرا أي يكبر ويستوي فيجف ويحترق ويتكسر أعلاه ويستقل بسنبله ثم يداس فيكون حطاما أي تبنا متكسرا متقطعا وهذا مثل ضربه الله لبني آدم اذ كانوا أطفالا أول الولادة وفي حال الطفولية كأحسن مرأى يعجبون الآباء ويفتنون ذوي الاحلام والنهى ثم يكبرون فيصيرون شيوخا منكسة رؤسهم مقوسة ظهورهم قد ذهب حسنهم ونعومتهم وفني شبابهم وجمالهم وذوت غضارتهم ونضارتهم واستولى عليهم الهرم والشيب ثم يموتون فيصيرون حطاما في القبور كالتبن في الحريق هذا بعدما وصفها بخمس صفات مذمومة لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر وكان الصدر الاول يسمي الدنيا خنزيرة ولو وجدوا اسما أقبح منه لسموها به وكانوا يسمونها أم ذفر والذفر النتن وقال مالك بن انس بلغني أن ملكا من ملوك بني اسرائيل ركب يوما في زي عظيم فنشرت له الناس ينظرون اليه أفواجا حتى مر برجل يعمل شيأ مكبا عليه لم يلتفت اليه ولا رفع رأسه اليه فوقف الملك عليه وقال كل الناس ينظرون الي الا أنت فقال الرجل اني رأيت ملكا مثلك وكان على هذه القرية فمات هو ومسكين فدفن الى جنبه في يوم واحد وكنا نعرفهما في الدنيا باجسادهما ثم كنا نعرفهما بقبريهما ثم نسفت الريح قبريهما وكشفت عنهما فاختلطت عظامهما فلم أعرف الملك من المسكين فلذلك أقبلت على عملي وتركت النظر اليك وروى أن داود عليه السلام بينما هو يسيح في الجبال اذ اوى الى غار فاذا فيه رجل عظيم الخلق من بني آدم واذا عند رأسه حجر مكتوب بكتاب محفور فيه أنا رستم الملك ملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وافترعت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت الى ما ترى صار التراب فراشي والحجارة وسادي فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني وقال وهب بن منبه خرج عيسى بن مريم عليه السلام ذات يوم مع جماعة من أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أمكن من الفرك فقالوا يا نبي الله انا جياع فاوحى الله اليه أن ائذن لهم في اقواتهم فاذن لهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون فبينما هم كذلك اذ جاء صاحب الزرع وهو يقول زرعي وأرضي ورثته عن آبائي باذن من تأكلون يا هؤلاء قال فدعا عيسى ربه فبعث الله تعالى جميع من ملك تلك الارض من لدن آدم الى ساعته فاذا عند كل سنبلة أو ما شاء الله رجل أو امرأة كلهم ينادون زرعي وأرضي ورثته عن آبائي ففزع الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام وهو لا يعرفه فلما عرفه قال معذرة اليك يا رسول الله اني لم أعرفك زرعي ومالي لك حلال فبكى عيسى عليه السلام وقال ويحك هؤلاء كلهم قد ورثوا هذه الارض وعمروها ثم ارتحلوا عنها وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك أرض ولا مال وقال أبو العتاهية

وعظتك أحداث صمت * ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت
وارتك قبرك في القبو * ر وأنت حي لم تمت
يا شامتا بمنيتي * ان المنية لم تمت
ولربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت

وروى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه لما رأى فاطمة رضى الله عنها مسجاة بثوبها بكى حتى رثى له ثم قال

لكل اجتماع من خليلين فرقة * وان الذى دون الممات قليل
أرى علل الدنيا على كثيرة * وصاحبها حتى الممات عليل
وان افتقادى واحدا بعد واحد * دليل على أن لا يدوم خليل

وقال

ألا أيها الموت الذى ليس تاركى * أرحنى فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيرا بالذين أحبهم * كأنك تنحو نحوهم بدليل

ولما نفض يديه من ترابها تمثل بقول بعض بنى أمية

أقول وقد فاضت دموعى حسرة * أرى الارض تبقى والاخلاء تذهب
أخلاى لو غير الحمام أصابكم * عتبت ولكن ما على الموت معتب

وقال العتابى

قلت للفرقدين والليل ملق * سودا كنافه على الآفاق
ابقيا ما بقيتما فسيرمى * بين شخصيكما بسهم الفراق
غر من ظن أن يفوت المنايا * وعراها قلائد الاعناق
كم صفيين متعا باجتماع * ثم صارا لغربة وافتراق
لا يدوم البقاء للخلق لكن * دوام البقاء للخلاق

وأنشدنى بعض الادباء

أسعدانى يا نخلتى حلوان * وارثيا لى من ريب هذا الزمان
ولعمرى لو ذقتما حرق الفر * قة ابكاكما الذى أبكانى
واعلما ان بقيتما ان نحسا * سوف يأتيكما فتفترقان

ولما سافر الرشيد الى طوس وعلى فى طريقه من حر أصابه فقال له الطبيب لا يبرئك الا جمار النخل وكان نزوله قريبا من هاتين النخلتين فامر بقطع جمار احدى النخلتين فلما مثل بين يديه أنشده بعض الجلساء هذه الابيات لبعض الشعراء فى هاتين النخلتين فقال الرشيد لو سمعتها لما أمرت بقطعهما ولما مات الاسكندر قال ارسطاطاليس أيها الملك لقد حركتنا بسكونك وقال بعض الحكماء من أصحابه كان الملك أمس انطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فنظمه أبو العتاهية فقال

كفى حزنا بدفنك ثم أنى * نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات * فانت اليوم أوعظ منك حيا

ووجد مكتوبا على قبر قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة (وقال عبد الله بن المعتز)

نسير الى الآجال فى كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم ار مثل الموت حقا كأنه * اذ ما تخطته الامانى باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا * فكيف به والشيب فى الرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى * فعمرك ايام تعد قلائل

ولما

ولما دخل أبو الدرداء الشام قال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ لكم ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالى أراكم تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا شديدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح أملهم غرورا وجمعهم بورا ومساكنهم قبورا ❊ وروى الحافظ قال وجد مكتوبا فى حجر ابن آدم لورأيت يسير ما بقى من أجلك لزهدت فى طول ما ترجو من أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت عن حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب فلا أنت فى عملك زائد ولا الى أهلك عائد ❊ وقال مالك بن أنس بلغنى ان امرأتين أتتا عيسى عليه السلام فقالتا يا روح الله ادع الله لنا أن يخرج لنا أبانا فانه هلك ونحن غائبتان عنه قال تعرفان قبره فقالتا نعم فذهب معهما فاتيا قبرا فقالتا هذا هو فدعا الله فاخرج لهما فاذا هو ليس به فدعا فرده ثم دلتاه على قبر آخر فدعا أن يخرج فخرج فاذا هو فلزمتاه وسلمتا عليه ثم قالتا يا نبى الله يا معلم الخير ادع الله أن يبقيه معنا فقال وكيف أدعو له ولم يبق له رزق يعيش به ثم رده وانصرف وانشدنى بعض الادباء

وأسفى من فراق قوم ❊ هم المصابيح والحصون
والمزن والمدن والرواسى ❊ والخير والامن والسكون
لم تتغير بنا الليالى ❊ حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب ❊ وكل ماء لنا عيون

(وروى) ان النعمان بن المنذر خرج متصيدا ومعه عدى بن زيد فمروا بشجرة فقال عدى بن زيد أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة قال لا قال انها تقول

من رآنا فليحدث نفسه ❊ انه موف على قرب سؤال
وصروف الدهر لا يبقى لها ❊ ولما تأتى به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا ❊ يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا الدهر بعيش حسن ❊ آمنى دهرهم غير عجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ❊ وكذاك الدهر حالا بعد حال

قال ثم جاوزوا الشجرة فمروا بمقبرة فقال له عدى أيها الملك أتدرى ما تقول هذه المقبرة قال لا قال انها تقول

أيا الركب المخبونا ❊ على الارض المجدونا
كما أنتم كذا كنا ❊ كما نحن تكونونا

فقال النعمان قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت انك انما أردت تعظنى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتعبد الله وحده قال فى هذه النجاة قال نعم فترك عبادة الاوثان وتنصر يومئذ وأخذ فى العبادة والاجتهاد (وقال) عبد الله بن المعلم خرجنا من المدينة حجاجا فلما كنا بالرويثة نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة ليس له منظر وهيئة فقال من يبغ خادما من يبغ ساقيا فقلت دونك هذه القربة فاخذها فانطلق فلم يلبث الا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طينا فوضعها كالمسرور الضاحك ثم قال ألكم غير هذا قلنا لا وأطعمناه قرصا باردا فأخذه وحمد الله تعالى وشكره ثم اعتزل وقعد فأكله أكل جائع فادركتنى عليه الرأفة فقمت اليه بطعام طيب كثير فقلت له قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع

فدونك هذا الطعام فنظر فى وجهى وتبسم وقال يا عبد الله اغماهى فورة جوع فما أبالى باى شئ رددتها فرجعت عنه فقال لى رجل الى جنبى أتعرفه قلت لا قال انه من بنى هاشم من ولد العباس ابن عبد المطلب كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها ففقد فما عرف له أثر ولا وقف له على خبر فاعجبنى قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له هل لك أن تعادلنى فان معى فضلا من راحلتى فجزانى خيرا وقال لو أردت هذا لكان لى معدا ثم أنس الى فجعل يحدثنى فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد وبذخ وانى أمرت خادما لى أن تحشو فراشا لى من حرير ومخدة بورد نثر فهعات وانى لنائم اذا بقمع وردة قد أغفلته الخادم فقمت اليها فاوجعتها ضربا ثم عدت الى مضجعى بعد اخراج القمع من المخدة فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال أفق من غشيتك أبصر من حيرتك ثم أنشأ يقول

يا خد انك ان توسد لينا * وسدت بعد الموت صم الجندل
فامهد لنفسك صالحا تسعد به * فلتندمن غدا اذا لم تفعل

فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتى هاربا الى ربى (وقال) عبد الواحد بن زيد ذكر لى أن فى جوانب الابلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم أزل أطلبها حتى وجدتها فى خرابة جالسة على حجر وعليها جبة صوف وهى محلوقة الرأس فلما نظرت الى قالت من غير أن أكلمها مرحبا بك يا عبد الواحد فقلت لها رحمك الله بك وعجبت من معرفتها الى ولم ترنى قبل ذلك فقالت ما الذى جاء بك ههنا فقلت جئت لتعظينى فقالت واعجبا لواعظ يوعظ ثم قالت يا عبد الواحد اعلم أن العبد اذا كان فى كفاية ثم مال الى الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد فيظل حيرانا والها فان كان له نصيب عند الله عاتبه وحيا فى سره فقال عبدى أردت ان أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى واجعلك دليلا لاوليائى وأهل طاعتى فى أرضى فملت الى عرض من أعراض الدنيا وتركتنى فورثتك بذلك الوحشة بعد الانس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى عبدى ارجع الى ما كنت عليه ارجع لك ما كنت تعرفه من نفسك ثم تركتنى وولت عنى وانصرفت عنها وبقلبى حسرة منها وأنشدوا

انك فى دار لها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
تعجل الذنب بما تشتهى * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا غفلة * ماذا بفعل الحازم العاقل

* ولما نزل سعد بن أبى وقاص الحيرة قيل له ههنا عجوز من بنات الملوك يقال لها الحرقة بنت النعمان بن المنذر وكانت من اجل قبائل العرب وكانت اذا خرجت الى بيعتها نشرت عليها ألف قطيفة حرير وديباج ومعها ألف وصيف ووصيفة فأرسل اليها سعد فجاءت كالشن البالى فقالت يا سعد كنا ملوك هذا المصر قبلك يحمل الينا خراجه ويطيعنا أهله مدة من المدد حتى صاح بنا صائح الدهر فشتت شملنا والدهر ذو نوائب وصروف فلو رأيتنا فى أيامنا الا رعدت فرائصك فزعا منا فقال لها سعد ما أنعم ما تنعمتم به قالت سعة الدنيا علينا وكثرة الاصوات اذا دعونا ثم انشأت تقول

وبينا نسوس الناس والامر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة ليس تنصف
فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها * تقلب تارات بنا وتصرف

ثم قالت يا سعد انه لم يكن أهل بيت خبر الا والدهر يعقبهم غيره حتى يأتي أمر الله على الفريقين فاكرمها سعد وأمر بردها فلما أرادت القيام قالت يا سعد لا أزال الله عنك نعمة ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا أزال عن كريم نعمة ولا أزال عن عبد صالح نعمة الا جعلك الله سببا الى ردها عليه ولبعضهم

من كان يعلم ان الموت يدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شئ سوى التقوى به سمج * وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

(وروى) ان عيسى عليه السلام كان معه صاحب له يسيحان فاصابهما الجوع وقد انتهيا الى قرية فقال عيسى لصاحبه انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية وقام عيسى يصلي فجاء الرجل بثلاثة ارغفة فابطأ عليه انصراف عيسى فاكل رغيفا فانصرف عيسى فقال أين الرغيف الثالث فقال ما كانا الا رغيفين قال فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام ظبيا منها فذكاه فاكلا منه ثم قال عيسى عليه السلام للظبي قم باذن الله فاذا هو يشتد فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى بالذي اراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين قال فمضيا على وجوههما فمرا بنهر عجاج عظيم فاخذ عيسى عليه السلام بيده فمشى به على الماء حتى جاوزا الماء فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه السلام بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة واذا قريب منها البن ثلاث من ذهب فقال الرجل هذا مال فقال عليه السلام أجل هذا مال واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف فقال أنا صاحب الرغيف فقال عليه السلام هي لك كلها ففارقه فاقام عليها ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللبن فقال اثنان منهم لواحد انطلق الى القرية فأتنا بطعام فذهب فقال احد الباقين تعال نقتل هذا اذا جاء ونقسم هذا بيننا قال الآخر نعم وقال الذي ذهب يشتري الطعام أجعل في الطعام سما فاقتلهما وآخذ اللبن ففعل فلما جاء قتلاه واكلا من الطعام الذي جاء به فماتا فمر بهم عيسى عليه السلام وهم حولها منصرعين فقال هكذا تفعل الدنيا باهلها (وقال عبد الملك) بن عمير رأيت في هذا القصر عجبا رأيت رأس الحسين على ترس بين يدي ابن زياد ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار ثم رأيت رأس المختار بين يدي المصعب بن الزبير ثم رأيت رأس المصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان (وقال الاصمعي) لما زخرف الرشيد مجالسه وتحرم فيها وزوقها وصنع فيها طعاما كثيرا ارسل الى ابي العتاهية وقال صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال

عش ما بدا لك سالما * في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور
واذا النفوس تقعقعت * في ضيق حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنا * ما كنت الا في غرور

فبكى هرون فقال الفضل بن يحيى بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فاحزنته فقال هرون دعه فانه رآنا في ضلالة وعمى فكره أن يزيدنا عمى (ويروى) ان سليمان بن عبد الملك لبس أفخر ثيابه ومس أطيب طيبه ونظر في مرآته فأعجبته نفسه وقال أنا الملك الشاب وخرج الى الجمعة وقال لجاريته كيف ترين فقالت

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب * عابه الناس غير أنك فانى

فاعرض بوجهه ثم خرج فصعد المنبر وصوته يسمع آخر المسجد فركبته الحمى فلم يزل صوته ينقص حتى ما سمعه من حوله فصلى ورجع بين اثنين يسحب رجليه فلما صار على فراشه قال للجارية ما الذي قلت لى في صحن الدار قالت ما رأيتك ولا قلت شيأ وأنى لى بالخروج الى صحن الدار فقال انا لله وانا اليه راجعون نعيت الى نفسي ثم عهد عهده وأوصى وصيته فلم تدر عليه الجمعة الاخرى الا وهو في قبره (ووجد) مكتوبا على قصر سيف بن ذى يزن

من كان لا يطأ التراب برجله * وطئ التراب بناعم الخد

من كان بينك في التراب وبينه * شبران كان بغاية البعد

لو بعثرت للناس أطباق الثرى * لم يعرف المولى من العبد

(وقال الهيثم بن عدى) وجدوا غارا في جبل لبنان زمان الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالرومية أنا سبا بن نواس بن سبا خدمت عيصو بن اسحق بن ابراهيم خليل الرب الديان الملك الاكبر وعشت بعده عمرا طويلا ورأيت عجبا كثيرا ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبر أحبائه ويعلم انه صائر اليهم ثم لا يتوب وقد علمت ان الاجلاف الجفاة سينزلونى عن سريرى ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان وتتأمر الصبيان ويكثر الحدثان فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ومات ذليلا (ويروى) ان الاسكندر مر بمدينة قد ملكها أملاك سبعة وبادوا فقال هل بقى من نسل الاملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد قالوا رجل يكون في المقابر فدعابه وقال له ما دعاك الى لزوم المقابر قال أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت ذلك سواء قال فهل لك أن تتبعنى فأحيى بك شرف آبائك ان كانت لك همة قال ان همتى لعظيمة ان كانت بغيتى عندك قال وما بغيتك قال حياة لا موت فيها وشباب لا هرم فيه وغنى لا يتبعه فقر وسرور لا يعتريه مكروه قال ما أقدر على هذا قال فانفذ لشأنك وخلنى أطلب بغيتى ممن هى عنده فقال الاسكندر هذا احكم من رأيت (وروى) في الاسرائيليات ان عيسى بن مريم عليه السلام بينما هو في بعض سياحته اذ مر بجمجمة نخرة فامرها أن تتكلم فقالت يا روح الله أنا بلوام بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة وولد لى ألف ذكر وافتضضت ألف بكر وهزمت ألف عسكر وقتلت ألف جبار وافتتحت ألف مدينة فمن رآنى فلا يغتر بالدنيا كما غرتنى فما كانت الا كحلم نائم فبكى عيسى عليه السلام (ووجد) مكتوبا على قصر بعض الملوك وقد باد أهله وأقفرت ساحته

هذى منازل أقوام عهدتهم * يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكى عليهم ديار كان يطربها * ترنم المجد بين الحلم والكرم

(وقال) عبد الله بن أبى نوح نزل حى من العرب شعبا من شعاب اليمن فتشاحنوا فيه واختلفوا واستعدوا للقتال فاذا صائح يصيح ياهؤلاء على رسلكم علام القتال فى فوالله لقد ملكنى سبعون أعور كلهم اسمه عمرو

(فصل) أيها الرجل اعتبر بمن مضى من الملوك والاقيال وخلا من الامم والاجيال وكيف بسطت لهم الدنيا وأنسئت لهم الآجال وانفسح لهم فى المنى والآمال وأمدوا بالآلات والعدد والاموال كيف طحنتهم بكلكلها المنون واختدعهم بزخرفه الدهر الخؤن وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور وعاد العين أثرا والملك خبرا فاما اليوم فقد ذهب صفو الزمان وبقى كدره فالموت اليوم تحفة لكل مسلم كأن الخير أصبح خاملا والشر أصبح ناظرا وكأن الغى أصبح ضاحكا والرشد باكيا وكأن العدل أصبح غائرا وأصبح الجور عاليا وكأن العقل أصبح مدفونا والجهل منشورا وكأن اللؤم أصبح باسقا والكرم خاويا وكأن الود أصبح مقطوعا والبغضاء موصولة وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخى بها الاشرار وكأن الخب أصبح مستيقظا والوفاء نائما وكأن الكذب أصبح مثمرا والصدق ماحلا وكأن الاشرار أصبحوا يسامون السماء وأصبح الاخيار يردون بطن الارض أما ترى الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك ولا تنافس أهل الدنيا فى خفض عيشهم ولين رياشهم ولكن انظر الى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم قال الشاعر

رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الاشيا من عرسه

وقد قال التهامى

تنافس فى الدنيا غرورا وانما * قصارى غناها أن تؤل الى الفقر
وانا لفى الدنيا كركب سفينة * تظن وقوفا والزمان بها يجرى

ولبعض الشعراء

تروح لك الدنيا بغير الذى غدت * وتحدث من بعد الامور أمور
وتجرى الليالى باجتماع وفرقة * وتطلع فيها أنجم وتغور
فمن ظن أن الدهر باق سروره * فذاك محال لا يدوم سرور
عفا الله عمن صير الهم واحدا * وأيقن ان الدائرات تدور

(وقال وهب بن منبه) قرأت فى كتب بعض الانبياء عليهم السلام أن المسيح اجتاز بجمجمة هائلة عظيمة نخرة فقال له اصحابه يا روح الله لو سألت الله تعالى أن يستنطق هذه الجمجمة فعسى تخبرنا بما رأته من العجائب ففعل فانطقها الله تعالى فقالت يا روح الله انى عشت ألف سنة

واستولدت ألف ذكر واقتحمت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وقتلت ألف جبار وصحبت الدهر واختبرته وامتحنت تقلبه وانقلابه فلم أر شيأ أشد من طالع بلى أمر صالح ولم أجد لهذا الدهر شيأ أنفع من الصبر وملة أهله ولم أر هلاك أهله الا فى الحرص والطمع ووجدت العز فى الرضا بالقسم (وقال محمد) بن أبى العتاهية آخر شعر قاله أبى فى مرضه الذى توفى فيه رحمه الله

الهى لا تعذبنى فانى * مقر بالذى قد كان منى
فمالى حيلة الا رجائى * وعفوك ان عفوت وحسن ظنى
وكم من زلة لى فى البرايا * وأنت على ذو فضل ومن
اذا فكرت فى قدمى عليها * عضضت أناملى وقرعت سنى
أجن بزهرة الدنيا جنونا * وأقطع طول عمرى بالتمنى
وبين يدى مبقات عظيم * كأنى قد دعيت له كأنى
ولو أنى صدقت الله فيها * قلبت لاهلها ظهر المجن

(وقال ابن عباس) لما ورد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ايكم يعرف قس بن ساعدة قالوا كلنا نعرفه يارسول الله قال رجل لست انساه بعكاظ على جمل احمر وهو يخطب الناس ويقول ايها الناس اجتمعوا فاذا اجتمعتم فاسمعوا فاذا سمعتم فعوا فاذا وعيتم فقولوا فاذا قلتم فاصدقوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ان فى السماء لخبرا وان فى الارض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحر لا يغور أقسم قس قسم حق لا كذب فيه ولا اثم لئن كان فى الارض رضا ليكونن سخطا ان لله دينا هو أحب اليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فقاموا او تركوا على حالهم فناموا ثم قال ايكم يروى شعره فأنشدوه

فى الذاهبين الاولين * من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها * تمضى الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضى الى * ولا من الباقين غابر
سكنوا البيوت فوطنوا * ان البيوت هى المقابر
أيقنت أنى لا محا * لة حيث صار القوم صائر

ثم قال الرجل لقد رأيت منه عجبا اقتحمت واديا فاذا انا بعين جارية وروضة مدهامة وشجرة عادية واذا بقس بن ساعدة قاعد فى اصل الشجرة وبيده قضيب وقد ورد على العين سباع كثيرة فكلما ورد سبع على صاحبه ضربه بالعصا وقال تنح حتى يشرب الذى ورد قبلك فلما رأيت ذلك ذعرت ذعرا شديدا فالتفت الى وقال لا تخف فالتفت فاذا بقبرين بينهما مسجد فقلت ماهذان القبران قال هما قبرا اخوين كانا يعبدان الله تعالى معى فى هذا الموضع وأنا أعبد الله بينهما حتى ألحق بهما فقلت له ألا تلحق بقومك فتكون فى خيرهم ثم قال لى ثكلتك أمك اوما علمت ان ولد اسمعيل تركت دين ابيها واتبعت الاصنام وعظمت الانداد ثم تركنى

وأقبل على القبرين وقال

خليلى هبا طالما قد رقدتما * أجدكما ما تقضيان كراكما
أرى النوم بين الجلد والعظم منكما * كأن الذى يسقى العقار سقاكما
ألم تعلما أنى بسمعان مفرد * ومالى فيه من خليل سواكما
مقيم على قبريكما لست نازحا * طوال الليالى أو يجيب صداكما
أأبكيكما طول الحياة وما الذى * يرد على ذى غصة ان بكاكما
كأنكما والموت أقرب غاية * بروحى فى قبريكما قد أتاكما
سلام وتسليم وروح ورحمة * ومغفرة المولى على ساكناكما
فلو جعلت نفس لنفس وقاية * لجدت بنفسى أن تكون فداكما

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان قس بن ساعدة يبعث أمة وحده يعنى ان كل أمة آمنت بنبيها تبعث أمة وحدها لا يخالطها غيرها ويبعث قس أيضا وحده أمة ليس معه أحد (ويروى) ان المهدى نام يوما فانشد فى نومه هذه الابيات

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ركنه ومنازله
فلم يبق الا ذكره وحديثه * ينادى بليل معولات ثواكله

فما أتت عليه عاشرة عشرة حتى مات (وأنشدنى) القاضى أبو العباس الجرجانى رحمه الله بالبصرة هذه الابيات

بالله ربك كم قصر مررت به * قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقاب المنايا فى جوانبه * فصاح من بعده بالويل والحرب

وأنشدنى أيضا

أيها الرافع البناء رويدا * لن تذود المنون عنك المبانى
ان هذا البناء يبقى ويفنى * كل شئ ابقى من الانسان

(وقال الحكم بن عمرو) قال أبو جعفر المنصور عند موته اللهم ان كنت تعلم أنى ارتكبت الامور العظام جراءة منى عليك فانك تعلم أنى قد أطعتك فى أحب الاشياء اليك شهادة أن لا اله الا الله منا منك لا منا عليك * وكان سبب احرامه من الخضراء أنه كان يوما نائما فاتاه آت فى منامه فقال

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه أهله ومنازله
وصار عميد القصر من بعد بهجة * الى تربة تسفى عليه جنادله

فاستيقظ مرعوبا ثم نام فأنشد

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لابد واقع
فهل كاهن أعددته ومنجم * أبا جعفر عنك المنية دافع

فقال ياربيع ائتنى بطهورى فقام واغتسل ولبى وتجهز للحج ثم قال ياربيع القنى فى حرم الله تعالى (وأنشدنى) القاضى أبو العباس الجرجانى بالبصرة

ان كنت تسمو الى الدنيا وزينتها * فانظر الى ملك الاملاك قارون

زمّ الامور فاعطته مقادتها * وسخر الناس بالتشديد واللين
حتى اذا ظنّ أن لاشئ غالبه * ومكنت قدماه أى تمكين
راحت عليه المنايا روحة تركت * ذا الملك والعز تحت الماء والطين

وأنشدنى أبو محمد التميمى ببغداد

لمن أبغى لمن أسم المطايا * لمن استأنف الشئ الجديدا
اذا ماصار اخوانى رفاتا * وصرت لفقدهم فردا وحيدا
أعاين معشرا لهم شكول * وأشكالى قد اعتنقوا اللحودا

(وممن زهد فى الدنيا) وأبصر عيوبها من أبناء الملوك أبو عقال علوان بن الحسن من بنى الاغلب وهم ملوك المغرب وكان ذا نعمة وملك وله فتوة ظاهرة فتاب الى ربه ورجع عن ذلك رجوعا فارق نظراءه فرفض المال والاهل وهجر البناء والوطن وبلغ من العبادة مبلغا أربى فيه على المجتهدين وعرف باجابة الدعوة وكان عالما أديبا قد صحب عدة من أصحاب سحنون وسمع منهم ثم انقطع الى بعض السواحل فصحب رجلا يكنى أباهرون الاندلسى منقطعا متبتلا الى الله تعالى فلم يرمنه كبير اجتهاد فى العمل فبينما أبو عقال يتهجد فى بعض الليالى وأبو هرون نائم اذ غالبه النوم فقال لنفسه يانفس هذا عابد جليل القدر ينام الليل كله وأنا أسهر الليل كله فلو أرحت نفسى فوضع جنبه فرأى فى منامه شخصا قائلا عليه أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات الى آخر الآية فاستيقظ فزعا وعلم أنه المراد فأيقظ أباهرون وقال له سألتك بالله هل أتيت كبيرة قط قال لا يا ابن أخى ولا صغيرة عن تعمد والحمد لله فقال أبو عقال لهذا تنام أنت ولا يصلح لمثلى الا الكد والاجتهاد ثم دخل الى مكة ولزم بيت الله الحرام وحج مرارا وأربى على عباد المشرق وكان يعمل بالقربة على ظهره بقوته ومات بمكة وهو ساجد فى صلاة الفريضة بالمسجد الحرام سنة ست وتسعين ومائتين وقال له رجل كان يصحبه يوما الك حاجة فقال له بعد الجهد به حاجتك مقضية قال ان كان لك شهوة أخبرنى بها قال نعم أشتهى أن آكل رأسا قال فاشتريت له رأسين ولففتهما فى رقاق وجئته بهما ثم سألته بعد أيام هل طاب لك الرأسان قال لا ماهو الآن فتحتهما فاذا هما محشوان دودا ليس فيهما البتة لحم الا الدود فاتيت الرآس فاخبرته فأطرق متعجبا ثم قال ماظننت أن فى زماننا أحدا يحمى عن الحرام هذه الحماية تلك الرؤس كانت من غنم انتهبها بعض العمال ثم أعطانى رأسين من غير تلك الغنم فاتيت بهما أباعقال فأكلهما فاخبرته بما قال الرآس فبكى ثم قال يارب ما كان يستحق عبدك أبو عقال مثل هذه الحماية ولكنه يارب فضلك وكرمك فلك على يارب أن لا آكل طعاما بشهوة أشتهيها حتى ألقاك ان شاء الله تعالى وكانت له أخت متعبدة فلما مات لحقت قبره بمكة وبكت عليه وكتبت عليه هذه الابيات

ليت شعرى ما الذى عاينته * بعد دوم الصوم مع نفى الوسن
مع عزوف النفس عن أوطارها * والتخلى عن حبيب وسكن
يا شقيق ليس فى وجدى به * علة تمنعنى أن أجن
وكما تبلى وجوه فى الثرى * فكذا يبلى عليهن الحزن

(وروى) ان رجلين تنازعا فى ارض فانطق الله لبنة من جدار تلك الارض فقالت انى كنت ملكا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنه ثم مت وصرت رميما ألف سنه فاخذنى خزاف واتخذنى خزفا ثم أخذنى وضربنى لبنا وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة فلم تتنازعان فى هذه الارض (ومن اعجب) ما روى فى الاسرائيليات ان ابنة من بنات الملوك تزهدت فى الدنيا وتابت وخرجت من ملكها ففقدت فلم يسمع لها خبر ولا علم لها أثر وكان هنالك دير للمتعبدين فلحق بهم شاب يتعبد فابصر وامنه من الاجتهاد والجد فى العمل وملازمة الاوراد ومواصلة الاعمال ما فاق به جميع من فى الدير واقام على ذلك ما شاء الله تعالى الى ان انقضت ايامه ووافاه حمامه فقضى الفتى نحبه فحزن له اهل الدير من الزهاد والعباد والمنقطعين وأذروا عليه الدموع ثم اخذوا فى غسله واذا هو امرأة ففحصوا عن امره واذا هى بنت الملك فزادهم ذلك اعجابا به وتعظيما له وتشاوروا فى امره ماذا يجدون له من الكرامة ثم اجمعوا امرهم أن لا يدفنوها تحت الثرى وان يحملوها فوق اكتافهم فغسلوها وكفنوها وجهزوها وصلوا عليها ثم اقبلوا يحملونها على الاكف والسواعد كلما ضجر واحد جاء واحد يحمل مع من يحمل وكل من انقطع فى الدير لعبادة ربه جعل يحمل معهم الى أن بليت وتقطعت أوصالها مع طول الزمان فدفنت حينئذ رحمة الله عليها (وكان) فى بلاد الروم مما يلى ارض الاندلس رجل نصرانى قد بلغ فى التخلى من الدنيا مبلغا عظيما واعتزل الخلق والتزم الجبال والسياحة فى الارض الى الغاية القصوى فورد على المستعين بن هود فى بعض الامر فاكرمه ابن هود ثم اخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائن امواله وما حوته من البيضاء والحمراء واحجار الياقوت والجواهر وامثالها ونفائس الاعلاق والجوارى والحشم والاجناد والكراع والسلاح فاقاموا فى ذلك اياما فلما انقضت قال له كيف رأيت ملكى قال قد رأيت ملكا ولكنه يعوزك فيه خصلة ان انت قدرت عليها فنعم انتظام ملكك وان لم تقدر عليها فهذا الملك لا شئ قال وما تلك الخصلة قال تعمد فتصنع غطاء عظيما حصينا قويا وتكون مساحته قدر البلد ثم تكبه على البلد حتى لا يجد ملك الموت مدخلا اليك فقال المستعين سبحان الله أو يقدر البشر على هذا فقال العلج يا هذا اتفتخر بامر تتركه غدا ومثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه فى النوم (ويروى) ان ملكا من الملوك بنى قصرا وقال انظروا من عاب منه شيأ فأصلحوه وأعطوه درهمين فأتاه رجل فقال ان فى هذا القصر عيبين قال وما هما قال يموت الملك ويخرب القصر فقال صدقت ثم اقبل على نفسه وترك الدنيا (ومن عجائب) اخبار الخضر عليه السلام قالوا سئل الخضر عليه السلام عن اعجب شئ رأيته فى الدنيا فى طول سياحتك وكثرة خلواتك وقطعك القفار والفلوات قال أعجب ما رأيته أنى مررت على مدينة لم ار على وجه الارض احسن منها فسألت بعضهم متى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا متى بنيت هذه المدينة وما زالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام وعبرت عليها بعد ذلك واذا هى خاوية على عروشها ولم ار احدا أسأله واذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت أين المدينة التى كانت ههنا قالوا سبحان الله ما يدرك آباؤنا ولا اجدادنا انه قط كانت ههنا مدينة فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا موضع تلك المدينة بحر واذا غواصون

يخرجون منه شبه الحلية فقلت لبعض الغواصين منذ كم كان هذا البحر ههنا فقال سبحان الله مايذكر آباؤنا ولا أجدادنا الا ان هذا البحر منذ بعث الله الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها واذا ذلك البحر قد غاض ماؤه واذا مكانه غيضة ملتفة بالقصب والبردي والسباع واذا صيادون يصيدون السمك في زوارق صغار فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان ههنا فقال سبحان الله مايذكر آباؤنا ولا أجدادنا انه كان ههنا قط بحر فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم أتيت الى ذلك المكان فاذا هو مدينة على حاله الاولى والحصون والقصور والاسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التي كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله مايذكر احد الا ان هذه المدينة على حالها منذ بعث الله الطوفان فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا اعاليها اسافلها وهي تدخن بدخان شديد فلم ار أحدا أسأله ثم رأيت راعيا فسألته اين المدينة التي كانت ههنا ومتى حدث هذا الدخان فقال سبحان الله مايذكر آباؤنا ولا اجدادنا الا ان هذا الموضع كان هكذا منذ كان فهذا اعجب شئ رأيته في سياحتي في الدنيا فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد ووارث الارض ومن عليها ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (قال الشاعر)

قف بالديار فهذه آثارهم * تبكي الاحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرا * عن اهلها اوناطقا اومشفقا
فاجابني داعي الهوى في رسمها * فارقت من تهوى فعز الملتقى

(ومن الشعر) المستحسن في هذه الابيات قول القائل •

رب ورقاء هتوف بالضحى * ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفا ودهرا صالحا * فبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها * وبكاها ربما أرقني
فاذا تسعدني أسعدها * واذا اسعدها تسعدني
ولقد تشكو فما افهمها * ولقد اشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها * وهي ايضا بالجوى تعرفني

(ونظر) رجل من العباد الى باب ملك من الملوك وقد شيده وأتقنه وزوقه فقال باب حديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد (ولما ثقل) عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوي بيده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا اعيش الا بما اكسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عنده ماهم فيه (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا او مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وامر (وقال) عيسى عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يادنيا تعززي على اوليائي ولا تحلولي لهم فتفتنيهم (وقال) مورق العجلي يا ابن آدم في كل يوم يؤتى برزقك وتحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب مايطغيك وعندك مايكفيك لا بقليل تقنع

ولا بكثير تشبع (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته ايها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى وان الليل والنهار يترا كضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات (وقال) بعض الحكماء الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبه شربا ازداد عطشا وكالكاس من العسل في اسفله السم للذائق منه حلاوة عاجلة وله في اسفله الموت الذعاف وكالاحلام للنائم التى تفرحه في منامه فاذا استيقظ انقطع الفرح وكالبرق الذى يضيء قليلا ويذهب وشيكا ويبقى راكبه في الظلام مقيما وكدودة الابريسم التى لا يزداد الابريسم على نفسها لفا الا ازدادت من الخروج بعدا (وفيه قال القائل)

كدود كدود القز ينسج دائما ✽ ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ومثال من يستعجل زهرة الدنيا ويعرض عن الدار الآخرة مثل رجلين التقطا من الارض حبتى عنب فاما أحدهما فجعل يمص الحبة التذاذا بها ثم بلعها وأما الآخر فزرع الحبة فلما كان بعد زمان التقيا فأما الذى زرع الحبة وجدها قد صارت له كرما وكثرت ثمرته وفكر الآخر في صنعه في الحبة فوجدها قد صارت عذرة وليس عنده منها شيء الا الحسرة على تفريطه والغبطة لصاحبه (وقال) وهب بن منبه أوحى الله تعالى الى نبي من أنبياء بنى اسرائيل ان أردت ان تسكن معي في حضرة القدس فكن في الدنيا وحيدا فريدا مهموما وحشيا بمنزلة الطير الوحداني الذى يظل في الارض الفلاة ويأكل من رؤس الشجر ويشرب من ماء العيون فاذا كان الليل أوى وحده ولم يأو مع الطير استئناسا به (ولبعضهم)

كم للحوادث من صروف عجائب ✽ ونوائب موصولة بنوائب

ولقد تقطع من شبابك وانقضى ✽ ما لست أعلمه الليالي بآيب

تبغى من الدنيا الكثير وانما ✽ يكفيك منها مثل زاد الراكب

(وقال مالك بن أنس) بلغنى ان عيسى عليه السلام انتهى الى قرية قد خربت حصونها وجفت أنهارها وتشعث شجرها فنادى يا خراب أين أهلك فلم يجبه أحد ثم نادى يا خراب أين أهلك فلم يجبه أحد فنودى عيسى بن مريم بادوا وتضمنتهم الارض وعادت أعمالهم قلائد في أعناقهم الى يوم القيامة فبكى عيسى عليه السلام (قال مالك) سئلت امرأة من بقية قوم عاد يقال لها هزيمة أى عذاب الله رأيت اشد قالت كل عذاب الله شديد وسلام الله ورحمته على ليلة لا ريح فيها ولقد رأيت العير تحملها الريح بين السماء والارض (وقال) مجاهد كان طعام يحيى بن زكريا العشب وان كان ليبكى من خشية الله تعالى ما لو كان القار على عينيه لا خرقه ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه (ومر) بعض الملوك بسقراط الحكيم وهو نائم فركضه برجله وقال قم فقام غير مرتاع منه ولا ملتفت اليه فقال له الملك ما تعرفنى قال لا ولكن أرى فيك طبع الدواب فهى تركض بارجلها فغضب وقال أتقول لى هذا وانت عبدى فقال له سقراط بل أنت عبد عبدى قال وكيف ذلك قال لان شهوتك قد ملكتك وأنا ملكت الشهوات فقال أنا الملك بن الاملاك السادة أملك من البلاد كذا ومن الاموال والرجال كذا قال أراك تفخر على بما ليس من نفسك وانما سبيلك أن تفخر على بنفسك

ولكن تعال نخلع ثيابنا ونلبس جميعا ثوبا من ماء فى هذا النهر ونتكلم اذ يتبين الفاضل من المفضول فانصرف الملك خجلا * وها أنا أحكى لك أمر أصابنى طيش عقلى وبلبل حرمى وقطع نياط قلبى فلا يزال مرآة لى حتى يوارينى التراب وذلك أنى كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء فقال لى صاحب لى وكان له عقل يا فلان لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء قد كان انسانا يوما من الدهر فمات فصار ترابا فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر وضربه خزفا وشواه بالنار فانتظم كوزا كما ترى وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشرا سويا يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب فاذا الذى قاله من الجائزات فان الانسان اذا مات عاد ترابا كما كان فى النشأة الاولى ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية فتمتهن فى البيوت أو لبنة فتبنى فى الجدار أو طين به سطح البيت أو يفرش فى البلد فيوطأ بالاقدام أو يجعل طينا على الجدار وقد يجوز أن يغرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الانسان شجرة وورقا وثمرة فترعى البهائم أوراقها ويأكل الانسان ثمرها فينبت منها لحمه وينشر منها عظمه أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم فبينما كان يقتات صار قوتا وبينا كان يأكل صار مأكولا ثم يعود فى بطن الانسان رجيعا فيقذف فى بيت الراحة أو بعرا ينبذ بالعراء ويجوز اذا حفر قبره ان تسفى الرياح ترابه فتتفرق اجزاؤه فى بطون الاودية والتلول والوهاد أليس فى هذا ما اذهل العقول وطيش الحلوم ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الاهلين والمال واللحوق بقلل الجبال والانس بالوحوش حتى يأتى أمر الله أليس فى هذا ما صغر الدنيا ومافيها أليس فى هذا ما حقر الملك عند من عظمه والمال عند من جمعه أليس فى هذا ما زهد فى اللذات وسلى عن الشهوات (وقال) كم من مستقبل يوما لا يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله انكم لو ابصرتم الاجل ومسيره لأبغضتم الامل وغروره (ولما) بنى المأمون بن ذى النون وكان من ملوك الاندلس قصره وأنفق فيه بيوت الاموال جاء على أكمل بنيان فى الارض وكان من عجائبه أن صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة وبنى فى وسطها قبة وساق الماء من تحت الارض حتى علا على رأس القبة على تدبير قد أحكمه المهندسون وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة فى غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها فروى عنه أنه بينما هو نائم اذ سمع منشدا ينشد هذين البيتين

أتبنى بناء الخالدين وانما * بقاؤك فيها لو عقلت قليل

لقد كان فى ظل الاراك كفاية * لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فلم يلبث بعدها الا يسيرا حتى قضى نحبه (ووجد) مكتوبا على قصر قد باد أهله وأقفرت منازله

هذى منازل أقوام عهدتهم * فى خفض عيش نفيس ماله خطر

صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا * الى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفى نفسك لما عدت هذا البيت

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض * على الماء خانته فروج الاصابع

(وروى) أن الحجاج قال فى خطبته أيها الناس ان ما بقى من الدنيا أشبه مما مضى من الماء بالماء

ولو

ولو أعطيت ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه ما قبلته فكيف آسى على ما بقي منها (وروى) ان النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لابن آدم عند الموت كمثل رجل له ثلاثة أخلاء فلما حضره الموت قال لاحدهم قد كنت لي خليلا مكرما مؤثرا وقد حضرني من أمر الله تعالى ماترى فماذا عندك فيقول هذا أمر الله غلبني عليك لا أستطيع أن أنفس كربك ولكن ها أنا بين يديك فخذ مني زادا ينفعك ثم يقول للثاني قد كنت عندي آثر الثلاثة وقد نزل بي من أمر الله تعالى ماترى فما عندك قال هذا امر الله غلبني عليك ولا أستطيع ان أنفس كربك ولكن سأقوم عليك في مرضك فاذا مت أتقنت غسلك وجودت كسوتك وسترت جسدك وعورتك وقال للثالث قد نزل بي من أمر الله ماترى وكنت أهون الثلاثة علي فماذا عندك قال اني قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة أدخل معك قبرك حين تدخله وأخرج معك حين تخرج منه ولا أفارقك أبدا فقال النبي صلى الله عليه وسلم الاول ماله والثاني أهله والثالث عمله (ولما) لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له قد كنت أحب لقاءك فعظني فقرأ الحسن أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فقال عليك السلام أبا سعيد فقد وعظت أحسن موعظة واعجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الاخرى وهو يرى الاولى واعجبا كل العجب للشاك في قدرة الله تعالى وهو يرى خلقه واعجبا كل العجب للمكذب بالنشور وهو يموت في كل يوم وليلة ويحيا واعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور واعجبا كل العجب للمختال الفخور وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو بين ذلك لا يدري ما يفعل به (وروى) ان الله تعالى أوحى الى آدم عليه السلام بجماع الخير كله في أربع واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين الناس فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئا وأما التي لك فاعمل ما شئت فاني أجزيك به وأما التي بيني وبينك فعليك الدعاء وعلي الاجابة وأما التي بينك وبين الناس فكن لهم كما تحب أن يكونوا لك (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام أوتينا ما أوتي الناس وما لم يؤتوا وعلمنا ما علم الناس وما لم يعلموا فلم نجد شيأ أفضل من خشية الله تعالى في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر (وكتب) معاوية الى عائشة رضي الله عنها ان اكتبي لي كتابا توصيني فيه ولا تكثري علي فكتبت اليه سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس والسلام (ولما) ضرب ابن ملجم عليا رضي الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضي الله عنهما (فقال) أوصيكما بتقوى الله والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ولا تأسفا على شيء فاتكما منها اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ثم دعا محمدا وقال له أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال بلى قال فاني أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل عليهما فقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان ان أباكما كان يحبه فأحباه ثم قال يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر والعدل في الصديق والعدو والعمل في النشاط والكسل والرضا عن الله في الشدة والرخاء * يا بني ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده

النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية * يا بني من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ومن رضي بقسم الله لم يحزن على مافاته ومن سل سيف البغي قتل به ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الأنذال احتقر ومن جالس العلماء وقر ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحب الحابي غنم ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن لا يملك نفسه ندم ومن مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار * يا بني الأدب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين * يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى والواحدة في ترك مجالسة السفهاء * يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعلى من التقوى ولا معقل أحرز من الورع ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية الحرص مفتاح التعب ومطية النصب التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد فطوبى لمن أخلص لله علمه وعمله وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته وقوله وفعله (وروى) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما طعن دعا بابن فشربه فخرج من طعنته فقال الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال وددت أن أخرج منها كفافا كما دخلت فيها والله أن لي اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع (قال) ابن عمر ولما حضرت الوفاة عمر غشي عليه فأخذت رأسه فوضعتها في حجري فقال ضع رأسي بالأرض لعل الله يرحمني فمسح خده بالتراب وقال ويل لعمر وويل لأمه إن لم يغفر له فقلت وهل فخذي والأرض إلا سواء يا أبتاه فقال ضع رأسي بالأرض لا أم لك كما آمرك فإذا قضيت فأسرعوا بي في حفرتي وإنما هو خير تقدموني إليه أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى فقيل له ما يبكيك قال خبر السماء لا أدري إلى جنة ينطلق بي أو إلى نار (ولما) حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال اللهم إنك أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت وأنعمت علي فأفضلت فإن عفوت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت ألا إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ثم قضى رحمه الله (ولما) حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله فقال جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكا وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له (ودخل) على المأمون في مرضه الذي مات فيه فإذا هو قد أمر أن يفرش له جل الدابة ويبسط عليه الرماد وهو راقد عليه يتضرع ويقول يا من لا يزول ملكه ارحم من يزول ملكه (وروى) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجر وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب يا ليتني كنت مثلك والله لوددت أني شجرة إلى جنب طريق فمر علي بعير فأخذني فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعرا ولم أك بشرا (وقال) عاصم بن عبد الله أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنة من الأرض فقال يا ليتني كنت مثل هذه التبنة يا ليتني لم تلدني أمي يا ليتني كنت نسيا منسيا (وقال) ابن مسعود وددت أني طائر في منكبي ريش

(وسمع) رجلا يقول ياليتني كنت من أصحاب اليمين فقال ابن مسعود ياليتني اذا مت لم أبعث
(وقال) عمران بن حصين لوددت اني رمادة تنسفني الرياح في يوم عاصف (وقال) أبو الدرداء
ياليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل ثمرتي ولم أك بشرا (وروى) ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه
لما رجع من صفين فدخل أوائل الكوفة فاذا هو بقبر فقال قبر من هذا فقالوا قبر خباب بن
الارت فوقف عليه وقال رحم الله خبابا أسلم راغبا وهاجر طائعا وعاش مجاهدا وابتلى في
جسمه آخرا الا ولن يضيع الله أجر من احسن عملا ثم مضى فاذا قبور فجاء حتى وقف عليها
فقال السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع
وبكم عما قليل لاحقون اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم طوبى لمن ذكر المعاد وعمل
للحساب وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى ثم قال يا أهل القبور أما الازواج فقد
نكحت وأما الديار فقد سكنت وأما الاموال فقد قسمت فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما
عندكم ثم التفت الى أصحابه وقال أما انهم لو تكلموا لقالوا وجدنا أن خير الزاد التقوى

(الباب الثاني في مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين)

دخل الاحنف بن قيس على معاوية وعليه شملة ومدرعة صوف فلما مثل بين يديه اقتحمته عينه
فأقبل عليه وقال مه فقال الاحنف يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير
مع تتابع المحول واتصال من الذحول فالمكثر منها قد أطرق والمقل منها قد أملق وبلغ به
المخنق فان رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير ويجبر الكسير ويسهل العسير ويصفح عن
الذحول ويداوي المحول ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ويزول اللأواء الا وان السيد من
يعم ولا يخص ويدعو الجفلى ولا يدعو النقرى ان أحسن اليه شكر وان أسيء اليه غفر
ثم يكون من وراء الرعية عمادا يدفع عنهم الملمات ويكشف عنهم المعضلات فقال معاوية
هاهنا يا أبا بحر ثم قرأ ولتعرفنهم في لحن القول (وقال) سفيان الثوري لما حج المهدي قال
لا بد لي من سفيان فوضعوا لي الرصد حول البيت فاخذوني بالليل فلما مثلت بين يديه ادناني ثم
قال لاي شئ لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا فما أمرتنا من شئ صرنا اليه وما نهيتنا عن شئ انتهينا
عنه فقلت له كم أنفقت في سفرك هذا قال لا أدري لي امناء ووكلاء قلت فما عذرك غدا
اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسالك عن ذلك لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حج قال
لغلامه كم أنفقت في سفرنا هذا قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر دينارا قال ويحك أجحفنا ببيت
مال المسلمين (وقال) الزهري ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك
فقال يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك قال
لا تعد احدا عدة وأنت لا تريد انجازها ولا يغرنك مرتقى سهل اذا كان المنحدر وعرا واعلم
ان الاعمال جزاء فاحذر العواقب والدهر تارات فكن على حذر (ولما دخل) ابن
السماك على هرون الرشيد قال له عظني قال يا أمير المؤمنين ان الله لم يرض بالخلافة في عباده غيرك
فلا ترض من نفسك الا بما رضي الله به عنك فانك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى
الناس بذلك يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقا أن يعتق نفسه
يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركونه منه اليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها

يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم الى جنة عرضها السموات والارض وقد دعيت اليها وليس
لك فيها نصيب يا أمير المؤمنين انك تموت وحدك وتحاسب وحدك وانك لا تقدم الا على نادم
مشغول ولا تخلف الا مفتونا مغرورا وانك وايانا فى دار سفر وجيران ظعن (ولما) حج سليمان
ابن عبد الملك استحضر أبا حازم فقال له تكلم يا أبا حازم فقال فيم أتكلم قال فى الخروج من هذا
الامر قال يسير ان أنت فعلته قال وما ذاك قال لا تأخذ الاشياء الا بحقها ولا تضعها الا فى أهلها
قال ومن يقوى على ذلك قال من قلده الله من الامر ما قلدك قال عظنى يا أبا حازم قال يا أمير
المؤمنين ان هذا الامر لم يصل اليك الا بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك
ثم قال يا أمير المؤمنين نزه ربك فى عظمته عن أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك يا أمير
المؤمنين انما أنت سوق فما نفق عندك حمل اليك من خير أو شر فاختر لنفسك أيهما شئت قال
فما لك لا تأتينا قال وما أصنع باتيانك ان أدنيتنى فتنتنى وان اقصيتنى أحزنتنى وليس عندى
ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له قال فارفع الينا حاجتك قال قد رفعتها الى من هو
أقدر منك عليها فما أعطانى منها قبلت وما منعنى منها رضيت يقول الله تعالى نحن قسمنا بينهم
معيشتهم فى الحياة الدنيا فمن ذا الذى يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله أو يزيد فى قليل
ما قسم الله قال فبكى سليمان بكاء شديدا فقال رجل من جلسائه اسأت الى أمير المؤمنين قال
أبو حازم اسكت فان الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج من عنده فلما
وصل الى منزله بعث اليه بمال فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما ارضاه لك
فكيف أرضاه لنفسى (وقال) الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد فبينما انا نائم ليلة اذ سمعت
قرع الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فاذا أنا بأمير المؤمنين
فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال ويحك قد حاك فى نفسى شئ لا يخرجه الا عالم
انظر لى رجلا أسأله قلت له ههنا سفيان بن عيينة قال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه
الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت
الى أتيتك قال جد لما جئناك له فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال يا عباسى اقض
دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عنى صاحبك شيأ فانظر لى رجلا أسأله فقلت ههنا عبد الرزاق
ابن همام قال امض بنا اليه نسأله فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب
أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال جد لما جئناك له
فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال يا عباسى اقض دينه ثم انصرفنا فقال
ما أغنى عنى صاحبك شيأ فانظر لى رجلا أسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض قال امض
بنا اليه فأتيناه واذا هو قائم يصلى فى غرفة يتلو آية من كتاب الله ويرددها فقرعت الباب فقال
من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالى ولامير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعة
فقال أوليس قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس للمؤمن ان يذل نفسه فنزل ففتح
الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه
بايدينا فسبقت كف الرشيد كفى اليه فقال أواه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب
الله تعالى قال فقلت فى نفسى ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى فقال جد لما جئناك له يرحمك

الله قال وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو ألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها الموت وقال له محمد بن كعب ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدا فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وقال له رجاء بن حيوة ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت اذا شئت وانى لاقول لك هذا وانى لاخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الاقدام فهل معك رحمك الله مثل هذا القوم من يأمرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشى عليه فقلت ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن ام الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به انا ثم افاق فقال زدنى فقال يا امير المؤمنين بلغنى ان عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا اليه سهرا فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يا اخى اذكر سهر اهل النار فى النار وخلود الابد فان ذلك يطرد بك الى ربك نائما ويقظان واياك ان تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما اقدمك قال له خلعت قلبى بكتابك لا وليت لك ولاية أبدا حتى ألقى الله تعالى فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال زدنى فقال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم جاءه فقال يا رسول الله أمرنى على امارة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبى نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال زدنى يرحمك الله قال يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت ان تقى هذا الوجه من النار فافعل واياك ان تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك فان النبى صلى الله عليه وسلم قال من اصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال عليك دين قال نعم دين لربى لم يحاسبنى عليه فالويل لى ان سألنى والويل لى ان ناقشنى والويل لى ان لم يلهمنى حجتى قال انما أعنى دين العباد قال ان ربى لم يأمرنى بهذا أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هذه ألف دينار خذها فانفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فقال سبحان الله انا أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا سلمك الله ووفقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لى هرون اذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا هذا سيد المسلمين اليوم (وروى) ان امرأة من نسائه دخلت عليه فقالت له يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال ففرجنا به فقال انما مثلى ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه موتوا يا أهلى جوعا ولا تذبحوا فضيلا فلما سمع الرشيد ذلك فقال ادخل فعسى أن يقبل المال قال فدخلنا

فلما علم بنا الفضيل خرج وجلس على التراب على السطح فجاء هرون الرشيد فجلس الى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا كذلك اذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف يرحمك الله فانصرفنا (ووعظ) شبيب بن شبة المنصور فقال يا أمير المؤمنين ان الله لم يجعل فوقك أحدا فلا تجعل فوق شكر الله شكرا (ودخل) عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ والفجر وليال عشر حتى بلغ ان ربك لبالمرصاد لمن فعل مثل فعالهم فاتق الله يا أمير المؤمنين فان ببابك نيرانا تأجج لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله وأنت مسؤل عما اجترحوا وليسوا مسؤلين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بافساد آخرتك أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم الا العدل لتقرب به اليك من لا يريده فقال له سليمان بن مجالد اسكت فقد غممت أمير المؤمنين فقال له عمرو ويلك يا ابن أم مجالد أما كفاك انك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه اتق الله يا أمير المؤمنين فان هؤلاء قد اتخذوك سلما الى شهواتهم فانت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب وان هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيأ (وقال) الاوزاعى للمنصور فى بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت انه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة بدلك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا فكيف من سفك دماء المسلمين وشقق أستارهم وانتهب أموالهم ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدشة خدشها اعرابيا من غير تعمد فقال له جبريل عليه السلام ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون رعيتك يا أمير المؤمنين لو أن ثوبا من النار نشر على ما فى الارض لاحتشه فكيف بمن يتقمصه ولو أن ذنوبا من النار صب على ما فى الارض لاحتشه فكيف بمن يتجرعه ولو ان حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يسلسل فيها ويرد فضلها على عنقه (ودخل) بعض العقلاء على سلطان فقال له ان أحق الناس بالاحسان من أحسن الله اليه وأولاهم بالانصاف من بسط يديه بالقدرة فاستدم ما أوتيت من النعم بتاديه ما عليك من الحق (وروى) ان اعرابيا قام بين يدى هشام بن عبد الملك فقال أيها الامير أتت على الناس سنون ثلث أما الاولى فاكلت اللحم وأما الثانية فاذابت الشحم وأما الثالثة فهاضت العظم وعندك فضول أموال فان كانت لله فاقسمها بين عباده وان كانت لهم فلم تحصرها عليهم وان كانت لكم فتصدقوا فان الله يجزى المتصدقين فامر هشام بمال تقسم بين الناس وأمر للاعرابى بمال فقال أكل المسلمين مثل هذا قال لا يقوم بذلك بيت المال قال لا حاجة لى فيما يبعث لائمة الناس على أمير المؤمنين (وقال) رجل لعمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين اذكر مقامى هذا لا يشغل الله عنك كثرة من يخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب فبكا عمر بكاء شديدا ثم استرده الكلام فجعل يردده وعمر يبكى وينتحب ثم قال ما حاجتك قال عاملك باذربيجان أخذ منى اثنى عشر ألف درهم قال ألا تكتبوا له حتى يرد عليه ماله (ولما) دخل زياد على عمر ابن عبد العزيز قال يا زياد الا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال زياد يا أمير المؤمنين والله لو ان شعرة منك نطقت ما بلغت كنه ما أنت فيه فاعمل لنفسك فى الخروج

مما أنت فيه يا أمير المؤمنين كيف حال رجل له خصم الد قال سيء الحال قال فان كان له
خصمان الدان قال اسوأ لحاله قال فان كانوا ثلاثة قال لا يهنئه عيش قال فوالله ما احد
من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الا وهو خصمك قال فبكى حتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك
(وقال) محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين انما الدنيا سوق منها خرج الناس
بما ربحوا فيها لآخرتهم وخرجوا بما يضرهم فكم من قوم غرهم مثل الذي أصبحنا فيه حتى
أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرملين لم يأخذوا من الدنيا للآخرة فاقتسم مالهم من لا يحمدهم
وصاروا الى من لا يعذرهم فانظر الى الذي تحب ان يكون معك فقدمه بين يديك حتى تخرج اليه
وانظر الى الذي تكره ان يكون معك اذا قدمت فابتغ به البدل حيث يجوز البدل ولا تذهبن
الى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عندك يا أمير المؤمنين افتح الابواب وسهل الحجاب
وانصر المظلوم (وحضر) رجل بين يدي بعض الملوك فأغلظ له السلطان فقال له الرجل انما
أنت كالسماء اذا أرعدت وأبرقت فقد قرب خيرها فسكن غيظه وأحسن اليه * ولما احتاج
المنصور بن أبي عامر ملك الاندلس ان يأخذ أرضا محبسة ويعاوض عنها خيرا منها استحضر
الفقهاء في قصره فأفتوا بانه لا يجوز فغضب السلطان وأرسل اليهم رجلا من الوزراء مشهورا
بالحدة والعجلة فقال لهم يقول لكم أمير المؤمنين يا مشيخة السوء يا مستحلي أموال الناس
يا آكلي أموال اليتامى ظلما يا شهداء الزور يا آخذي الرشا وملقني الخصوم وملقحي الشرور
وملبسي الامور وملتمسي الروايات لاتباع الشهوات تبا لكم ولآرائكم فهو أعزه الله
واقف على فسوقكم قديما وخونكم لامانتكم مغض عنه صابر عليه ثم احتاج الى دقة
نظركم في حاجة مرة واحدة في دهره فلم تسعفوا ارادته ما كان هذا ظنه بكم والله ليعارضنكم
وليكشفن ستوركم وليناصحن الاسلام فيكم واغلظ عليهم بهذا ونحوه فاجابه شيخ منهم
ضعيف المنة فقال نتوب الى الله مما قاله أمير المؤمنين ونسأله الاقالة فرد عليه زعيم القوم
محمد بن ابراهيم بن حيويه وكان جلدا صارما فقال للمتكلم مم نتوب يا شيخ السوء نحن برآء من
متابك ثم أقبل على الوزير فقال يا وزير بئس المبلغ أنت وكلما نسبته الينا عن أمير المؤمنين
فهو صفتكم معاشر خدمه فانتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل وتستحلون ظلمهم
بغير حق وتحيفون معايشهم بالرشا والمصانعة وتبغون في الارض بغير الحق وأما نحن فليست
هذه صفاتنا ولا كرامة لا يقولها لنا الا متهم في الديانة فنحن أعلام الهدى وسرج الظلمة
بنا يحصن الاسلام ويفرق بين الحلال والحرام وتنفذ الاحكام وبنا تقام الفرائض وتثبت
الحقوق وتحقن الدماء وتستحل الفروج فهلا اذ عتب علينا سيدنا أمير المؤمنين بشيء لا ذنب
فيه لنا وقال بالغيظ ما قاله تأنيت لابلاغنا رسالته بأهون من افحاشك وعرضت لنا بانكاره
حتى نفهمنا منك فأجبناك عنه بما يصلح الجواب عنه به فكنت تزين على السلطان ولا تفشي
سره وتستحيينا بما استقبلتنا به فنحن نعلم ان أمير المؤمنين لا يتمادى على هذا الرأي فينا ولا
يعتقد هذا المعتقد في صفاتنا وانه سيراجع بصيرته في ايثارنا وتعزيزنا فلو كنا عنده على
هذه الحال التي وصفتها عنا والعياذ بالله من ذلك لبطل عليه كل ما صنعه وعقده من أول
خلافته الى هذا الوقت فما يثبت له كتاب من حرب ولا سلم ولا شراء ولا بيع ولا صدقة ولا حبس

ولاهبة ولاعتق ولاغير ذلك الا بشهادتنا هذا ما عندنا والسلام ثم قاموا منصرفين فلم يكادوا يبلغوا باب القصر الا والرسل تناديهم فادخلوا القصر فتلقاهم الوزراء بالاعظام ورفعوا منازلهم واعتذروا اليهم مما كان من صاحبهم وقالوا لهم أمير المؤمنين يعتذر اليكم من فرط موجدته ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزغته التي حملته على الجفاء عليكم ويعلمكم انه نادم على ما كان منه اليكم وهو مستبصر في تعظيمكم وقضاء حقوقكم وقد أمر لكل واحد منكم ماترون من صلة وكسوة عامة لرضاه عنكم فدعوا له وقبضوا ما أمر لهم وانصرفوا غالبين لم يمسسهم سوء (ولما) نظر مالك بن دينار الى المهلب بن أبي صفرة يجر اذياله ويتبختر في أثواب خيلائه ناداه ان ارفع من ثيابك فقال له المهلب أوما تعرفني قال له مالك بلى اني أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة ويروى ان رجلا قال لعبيد الله العمري هذا هرون الرشيد في الطواف قد اخلي له المسعى فقال له لا جزاك الله عني خيرا كلفتني أمرا كنت عنه غنيا ثم جاء اليه فقال له يا هرون فلما نظر اليه قال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من خلق الله فقال لا يحصيهم الا الله عز وجل فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد منهم يسئل عن خاصة نفسه وأنت واحد تسئل عنهم كلهم فانظر كيف تكون قال فبكى هرون وجلس وجعل يعطونه منديلا منديلا للدموع ثم قال له فيما قال ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف فيمن أسرع في مال المسلمين فيقال ان هرون كان يقول بعد ذلك اني أحب ان أحج في كل عام وما يمنعني من ذلك الا عبيد الله العمري ويروى ان الحسن ابن محمد بن الحسين رضي الله عنهم دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له يا عمر ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان فقال له عمر ايه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وجثا على ركبتيه فقال الحسن من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ومن اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ومن اذا قدر لم يتناول ماليس له (ولما) ولي عمر بن عبد العزيز وفدت الوفود من كل بلد فوفد عليه الحجازيون فقدم غلام منهم للكلام وكان حديث السن فقال له عمر لينطق من هو أسن منك فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فاذا منح الله عبدا لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه ولو ان الامر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الامة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال صدقت قل ما بدا لك فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة وقد أتيناك لمن الله الذي من علينا بك ولم يقدمنا اليك رغبة ولا رهبة أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فقال له عمر عظني يا غلام فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين ان ناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الاقدام فهووا في النار فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم فلا جعلك الله منهم وألحقك بصالحي هذه الامة ثم سكت فسال عمر الغلام عن سنه فاذا هو ابن احدى عشرة سنة ثم سال عنه فاذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فتمثل عمر عند ذلك فقال

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

وفي مثل هذا قيل للعتابي وكان لا يبالي ما لبس مالك لا تجيد الملبوس فقال انما يرفع الرجل ادبه وعقله لا حليته وحلته لحى الله أمرأ يرضى ان ترفعه هيئته وجماله لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ويعلو به أكبراه همته ولبه ولما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن المنذر وهو ملك وكان ضمرة ذا رأي وعقل احتقرته عيناه لدمامته فقال لان تسمع بالمعيدي خير من أن تراه فقال ضمرة أبيت اللعن ان القوم ليسوا بجزور تجزر انما المرء باصغريه قلبه ولسانه فاذا نطق نطق ببيان واذا قاتل قاتل بجنان والرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالقبان فأعجب المنذر بكلامه وروى ان روح بن زنباع وكان في طريق مكة في يوم شديد الحر مع أصحابه فنزلوا فضربت لهم الخيام والظلال وقدم اليهم الطعام والشراب المبرد فبيناهم كذلك اذا هم براع فدعاه للطعام فأبى وقال اني صائم قال له روح في مثل هذا اليوم الحار قال أفادع أيامي تذهب باطلا قال روح لقد ضننت بأيامك يا راعي اذ جاد بها روح بن زنباع وروى ان اعرابيا قام بين يدي سليمان بن عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين اني مكلمك بكلام فاحتمله ان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته قال هات يا اعرابي قال ساطلق لساني بما خرست به الالسن اداء لحق الله ولحق امانتك انك قد اكتنفك رجال اساؤا الاختيار لانفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تصلح دنياك بفساد آخرتك فاعظم الناس غبنا يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره فقال له سليمان اما أنت فقد نصحت وارجو ان الله سيعيننا على ما قلدنا وقد جردت لسانك فهو سيفك فقال أجل يا أمير المؤمنين وهو لك لا عليك وقال ابن أبي عروبة حج الحجاج فنزل بعض المياه بين مكة والمدينة ودعا بالغداء وقال لحاجبه انظر من يتغدى معي واسأله عن بعض الامر فنظر نحو الجبل واذا هو براع بين شملتين نائم فضربه برجله وقال له ائت الامير فأتاه فقال له الحجاج اغسل يدك وتغد معي فقال دعاني من هو خير منك فاجبته قال ومن هو قال الله تعالى دعاني الى الصيام فصمت قال في هذا الحر الشديد قال نعم صمت ليوم هو أشد منه حرا قال فافطر وصم غدا قال ان ضمنت لي البقاء الى غد قال ليس ذلك الي قال فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه قال لانه طيب قال لم تطيبه أنت ولا الطباخ ولكن طيبه العافية ولما حج هرون الرشيد بعث الى مالك ابن أنس بكيس فيه خمسمائة دينار فلما قضى نسكه وانصرف ودخل المدينة بعث الى مالك بن أنس ان أمير المؤمنين يحب ان تنتقل معه الى مدينة السلام فقال للرسول قل له ان الكيس بخاتمه وقال الرسول عليه السلام والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وقال وهب بن منبه ان ملكا كان يفتن الناس ويحملهم على أكل لحم الخنزير فأتى برجل أفضل أهل زمانه فاعظم الناس مكانه وهالهم أمره فراوده على أكل لحم الخنزير فلم يفعل فرق له صاحب شرطة الملك فقال له أنا آتيك بجدي تذبحه مما يحل لك أكله فاذا دعا الملك بلحم خنزير أتيتك به فتفعل ثم أتى به الملك فدعا بلحم الخنزير فأتى صاحب الشرطة بذلك الجدي فامر به الملك ان يأكله فأبى ان يأكله فجعل صاحب الشرطة يغمزه ان يأكله فأبى ان يأكله فأمر الملك صاحب الشرطة ان يقتله فلما ذهب به قال ما منعك ان تأكل وهو اللحم الذي ذبحته أنت أظننت اني جئت بغيره قال لا قد علمت انه هو ولكني خفت أن يفتتن الناس بي فان أكرهوا على أكل الخنزير قالوا قد أكله فلان فيستن

بي فأكون فتنة لهم فقتل رحمه الله وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب
الاحبار يا كعب خوفنا فقال أوليس فيكم كتاب الله وسنة رسوله قال بلى يا كعب ولكن خوفنا قال
يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى
فنكس عمر وأطرق مليا ثم أفاق ثم قال يا كعب خوفنا فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم
قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال
يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي
مرسل الا خر على ركبتيه حتى يخر ابراهيم خليل الرحمن على ركبتيه يقول يا رب لا أسألك اليوم
الا نفسي واستأذن أبو دهمان على بعض الامراء فحجبه ثم أذن له فلما دخل قال ان هذا الامر
الذي صار اليك قد كان في يد غيرك فامسوا والله حديثا فان خيرا فخير وان شرا فشر فتحبب الى
عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب فان حب عباد الله موصول بحب الله
وبغضهم موصول ببغضه لانهم شهداء الله على خلقه (ولما) دخل محمد بن واسع سيد العباد في
زمانه على بلال بن أبي بردة أمير البصرة وكان ثوبه الى نصف ساقه فقال له بلال ما هذه الشهرة
يا ابن واسع فقال له ابن واسع أنتم شهرتمونا هكذا كان لباس من مضى وانما انتم طولتم ذيولكم
فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة واما انا فلما دخلت على ملك مصر وهو الافضل بن أمير الجيوش
فقلت سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا وأكرم اكراما
جزيلا وأمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه فقلت ايها الملك ان الله سبحانه وتعالى قد
احلك محلا عاليا شامخا وأنزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه وأشركك في حكمه ولم
يرض ان يكون أمر احد فوق امرك فلا ترض ان يكون احد اولى بالشكر منك وان الله تعالى
قد ألزم الورى طاعتك فلا يكونن أحد اطوع لله منك وان الله تعالى أمر عباده بالشكر وليس
الشكر باللسان ولكنه بالفعال والاحسان قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا واعلم ان هذا
الملك الذي أصبحت فيه انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك بمثل ما صار
اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل قال الله
تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال تعالى وان كان مثقال حبة من خردل
أتينا بها وكفى بنا حاسبين واعلم أيها الملك ان الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن
داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح
تجري بامره رخاء حيث أصاب ثم رفع عنه حساب ذلك اجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن او امسك
بغير حساب فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف ان تكون
استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ام اكفر فافتح الباب
وسهل الحجاب وانصر المظلوم اعانك الله لي ما قلدك وجعلك كهفا للملهوف وامانا للخائف
ثم اتممت المجلس بان قلت قد دوخت البلاد شرقا وغربا فما اخترت مملكة تزوجت فيها او ولد لي غير
هذه المملكة ثم انشدت شعرا

والناس اكيس من ان يحمدوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

وكتب حكيم الى حكيم اني سائلك عن ثلاثة اشياء ان اجبت عنها اصرت لك تلميذا اي الناس

أولى بالرحمة ومتى تضيع أمور الناس وبم تتلقى النعمة من الله تعالى فكتب اليه ان أولى الناس بالرحمة ثلاثة البر يكون فى سلطان فاجر فهو الدهر حزين لما يرى ويسمع والعاقل يكون فى تدبير الجاهل فهو الدهر مغموم والكريم يحتاج الى اللئيم فهو الدهر خاضع له ذليل وتضيع أمور الناس اذا كان الرأى عند من لا يقبل منه والسلاح عند من لا يستعمله والمال عند من لا ينفقه وتتلقى النعمة من الله تعالى بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معصيته فصار تلميذا له الى ان مات (وقال يحيى بن سعيد) حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز فلما أشرفا على عقبة عسفان نظر سليمان الى السرادقات قد ضربت له فقال له يا عمر كيف ترى قال أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضا وأنت المسؤل عنها المأخوذ بما فيها فبينماهما كذلك اذ طار غراب من سرادقات سليمان فى منقاره كسرة فصاح فقال سليمان ما يقول هذا الغراب قال عمر ما أدرى ما يقول ولكن ان شئت أخبرتك بعلم قال أخبرنى قال هذا غراب طار من سرادقاتك فى منقاره كسرة أنت بها مأخوذ وعنها مسؤل من أين دخلت ومن أين خرجت قال انك لتخبرنا بالعجائب قال أفلا أخبرك بأعجب من هذا قال بلى قال من عرف الله كيف عصاه ومن عرف الشيطان كيف أطاعه ومن ايقن بالموت كيف يهنيه العيش قال لقد غصصت علينا ما نحن فيه ثم ضرب فرسه وسار (ويروى) ان بلال بن ابى بردة خرج فى جنازة وهو أمير على البصرة فنظر الى جماعة وقوفا فقال ما هذا قالوا مالك بن دينار يذكر الناس فقال لوصيف معه اذهب الى مالك بن دينار وقل له يرتفع الينا الى القبر فجاء الوصيف فأدى الرسالة الى مالك فصاح به مالك مالى اليه حاجة فأجيئه فيها فان تكن له حاجة فليجئ الى حاجة نفسه فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه الى حلقة مالك فلما دنا منه نزل ونزل من معه ثم جاء يمشى الى الحلقة حتى جلس فلما رآه مالك بن دينار سكت فاطال السكوت فقال له بلال يا أبا يحيى ذكرنا فقال ما نسيت شيأ فاذكرك به قال فحدثنا قال اما هذا فنعم قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه فى هذه الجبانة ثم اتينا بزنجى فدفناه الى جنبه فوالله ما أدرى أيهما كان أكرم على الله سبحانه فقال بلال يا أبا يحيى أتدرى ما الذى جرأك علينا وما الذى اسكتنا عنك لانك لم تأكل من دراهمنا شيأ اما والله لو أخذت من دراهمنا شيأ ما اجترأت علينا هذه الجرأة فافاد هذا الحديث علما ألا فاتقوا دراهمهم (ودخل) ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام قال وما هو يا أمير المؤمنين قال حدثونا ان الله تبارك وتعالى اذا استرعى عبدا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيآت قال كذبوا يا أمير المؤمنين أنبى خليفة أقرب الى الله أم خليفة ليس بنبى قال بل نبى خليفة قال فانا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا تشك فيه قال الله تعالى لنبيه داود يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب يا أمير المؤمنين فهذا وعيد الله لنبى خليفة فما ظنك بخليفة غير نبى فقال الوليد ان الناس ليغروننا عن ديننا (وروى) زياد عن مالك بن أنس قال بعث الى ابو جعفر والى ابن طاوس فدخلنا عليه فاذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه انطاع قد بسطت وبين يديه جلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الاعناق وأومأ الينا ان اجلسا فجلسنا فاطرق عنا طويلا ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس

وقال حدثنا عن أبيك قال نعم انى سمعت أبى يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فادخل عليه الجور فى حكمه فامسك أبو جعفر ساعة قال مالك فضممت ثيابى مخافة ان ينضحنى بدمه فامسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ثم قال يا ابن طاوس ناولنى هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ناولنى هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ما يمنعك ان تناولنيها قال اخشى ان تكتب بها معصية فاكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عنى قال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغى منذ اليوم قال مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم (وقال أحمد بن أبى الحوارى) سمعت رجلا يحدث عن ابن السماك قال بعث الى هرون فلما انتهيت الى باب القصر أخذ حرسيان بضبعى فادخلانى فى دهليز القصر فلما انتهيت الى باب القاعة لقينى خصيان فاخذانى من الحرسيين فادخلانى فى قاعة القصر فانتهيت الى البهو الذى هو فيه فتلقانى خصيان دونهما فاخذانى فادخلانى فى البهو فقال لهما هرون ارفقوا بالشيخ فلما وقفت بين يديه قلت له يا أمير المؤمنين ما مر بى يوم منذ ولدتنى أمى أتعب فيه من يومى هذا فاتق الله فى خلقه واحفظ محمدا فى أمته وانصح لنفسك فى رعيتك فان لك مقاما بين يدى الله تعالى انت فيه اذل من مقامى هذا بين يديك فاتق الله واعلم ان من اخذ الله وسطواته على اهل المعصية كيت وكيت قال فاضطرب على فراشه حتى نزل الى مصلى بين يدى فراشه فقلت يا أمير المؤمنين هذا ذل الصفة فكيف ولو رأيت ذل المعاينة قال فكادت نفسه تخرج فقال يحيى للخصيين اخرجوه فقد أبكى أمير المؤمنين ثم دخل مرة اخرى فقال عظنى واوجز قال يا أمير المؤمنين ان الذى اكرمك بما اكرمك به لحقيق ان تحب ما يحب وتبغض ما ابغض فوالله لقد احب الله دارا وابغضها وابغض دارا واحببتها كأنما اردت خلاف ربك اواردت سواه واعلم يا أمير المؤمنين ان الذى فى يدك لو بقى على من كان قبلك لم يصل اليك فكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك فاتق الله فى خلافته واحفظ وصية محمد صلى الله عليه وسلم فى امته * ودخل هرون على بعض النساك فسلم عليه فقال وعليك السلام ثم قال أيها الملك تحب الله قال نعم قال فتعصيه قال نعم قال كذبت والله فى حبك اياه انك لو احببته اذا ما عصيته ثم انشأ يقول

تعصى الاله وانت تظهر حبه * هذا لعمرى فى المقال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع
فى كل يوم يبتديك بنعمة * منه وأنت لشكر ذاك مضيع

(وروى زيد بن أسلم عن أبيه) قال قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن أبى طالب الهاشمى والى المدينة احذر ان يأتى رجل غدا ليس له فى الاسلام نسبة ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم منك كما كانت امرأة فرعون أولى بنوح ولوط عليهما السلام من زوجيهما وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه * وقال بشر بن السرى بينما الحجاج جالس فى الحجر اذ دخل رجل من أهل اليمن فجعل يطوف فوكل به بعض من معه فقال اذا خرج من طوافه فاتنى به فلما فرغ من طوافه اتاه به فقال له ممن أنت قال من أهل اليمن قال أفلك علم بمحمد بن يوسف قال نعم قال فاخبرنى عنه قال لقد تركته أبيض بضا سمينا طويلا عريضا قال ويلك ليس عن هذا أسالك قال

فعمه قال عن سيرته وطعمته قال فاجورا السير وأخبث الطعم واعدى العداة على الله وأحكامه قال فغضب الحجاج وقال ويلك أما علمت أنه أخي قال بلى قال افانت ما علمت ان الله ربي والله اهو امنع بي منك أكثر منك لاخيك قال أجل أرسله يا غلام (وقال الاصمعي) حدثني رجل من أهل المدينة قال سمعت محمد بن ابراهيم يحدث قال شهدت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين ليسوا القريش فقالوا لابي جعفر اجعل بيننا وبينهم ابن أبي ذئب قال أبو جعفر لابن أبي ذئب ما تقول في بني فلان قال أشرار من أهل بيت أشرار قالوا سله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة قال ما تقول في الحسن قال يأخذ بالاحنة ويقضي بالهوى فقال الحسن والله يا أمير المؤمنين لو سألته عن نفسك لرماك بداهية ونعتك بشر قال ما تقول في قال اعفني يا أمير المؤمنين قال لابد ان تقول قال انك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية فتغير وجه أبي جعفر فقام ابراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل وقال طهرني بدمه يا امير المؤمنين قال له ابن أبي ذئب اقعد يا بني فليس في دم رجل يشهد ان لا اله الا الله طهور ثم تدارك ابن ابي ذئب الكلام فقال دعنا يا أمير المؤمنين مما نحن فيه بلغني انك رزقت ابنا ما الحبالى العراق يعني المهدي قال أما ان قلت ذلك انه ايصوم اليوم البعيد ما بين الطرفين قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج فقال ابو جعفر اما والله ماهو بمستوثق العقل ولقد قال بذات نفسه (ودخل ابو النصر) سالم مولى عمر بن عبيد الله على عامل للخليفة فقال له يا ابا النصر انه تاتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ولا نجد بدا من انفاذها فما ترى قال ابو النصر قد اتاك كتاب الله قبل كتاب الخليفة فايهما اتبعت كنت من اهله

(الباب الثالث فيما جاء في الولاة والقضاة وما في ذلك من الغرور والخطر)

قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله جاء في التفسير من اتباع الهوى ان يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي لك منه خاصة وبهذه الخصلة سلب سليمان بن داود عليهما السلام ملكه قال ابن عباس رضي الله عنهما كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام ان ناسا من أهل جرادة امرأته وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا اليه مع غيرهم فاحب أن يكون الحق لاهل جرادة فيقضي لهم فعوتب حين لم يكن هواه فيهم واحدا ومن ذلك آية الملوك التي أنزلها الله تعالى في السلاطين لما اقتضته من السياسة العامة التي فيها بقاء الممالك وثبوت الدول قال الله تعالى ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ثم سمى المنصورين ووضح شرائط النصر فقال تعالى الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فضمن الله تعالى النصر للملوك وشرط عليهم شرائط كما ترى فمتى تضعضعت قواعدهم وانتقص عليهم من اطراف ممالكهم اوظهر عليهم عدو أو باغ فتنة أو حاسد نعمة أو اضطربت عليهم الامور رأوا أسباب الغير فيلجؤا الى الله تعالى ويستجنوا من سوء أقداره باصلاح ما بينهم وبينه باقامة الميزان القسط الذي شرعه الله تعالى لعباده وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السموات والارض واظهار شرائع الدين ونصر المظلوم والاخذ على يد الظالم وكف يد القوي عن الضعيف ومراعاة الفقراء والمساكين وملاحظة ذوي الخاصة

والمستضعفين وليعلموا انهم قد أخلوا بشيء من الشرائط الاربع التي شرطت في النصر (وروى) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فالامام الذي على الناس راع وهو مسؤل عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤل عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهي مسؤلة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤل عنه ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فجعل النبي صلى الله عليه وسلم كل ناظر في حق غيره راعيا له واللفظ مأخوذ من الرعاية والمراعاة فاذا تقدم لرعاية غيره من يأكله فهو الهلاك كما قال الشاعر

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها * فكيف اذا الذئاب لها رعاه

(وروى مسلم) في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مامن امرئ يلي أمر المسلمين ثم لم يجتهد لهم وينصح الالم يدخل الجنة معهم وقال معقل بن يسار سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه الالم يجد رائحة الجنة (وروى) عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعبد الرحمن لاتسأل الامارة فانك ان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وان اعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها (وروى) أبو هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة وقال أبو ذر رضي الله عنه قلت أمرني يارسول الله قال انها أمانة وانها حسرة وندامة يوم القيامة الامن أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها (وروى البخاري) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الامر حتى يقع فيه (وفي الحديث) من ولي من أمر المسلمين شيأ ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار * وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث الى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيوقف على جسر جهنم فيامر الله سبحانه الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عظم منه عن مكانه ثم يامر الله العظام فترجع الى مكانها ثم يسائله فان كان لله تعالى طائعا اخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته وان كان لله عاصيا انخرق به الجسر فيهوي به في جهنم مقدار سبعين خريفا فقال عمر سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم مالم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان اي والله ياعمر ومع السبعين سبعين خريفا في واد يلتهب التهابا فقال عمر بيده على جبهته انالله وانا اليه راجعون من يأخذها بما فيها قال سلمان من سلب الله أنفه والصق خده بالارض (وروى) ان العباس رضي الله عنه قال أمرني يارسول الله فاصيب واستريش فقال له ياعباس ياعم النبي صلى الله عليه وسلم نفس تحييها خير من امارة لاتحصيها الا احدثكم عن الامارة اولها ملامة واوسطها ندامة وآخرها حسرة يوم القيامة (وروى) أبو داود في السنن جاء رجل فقال يارسول الله ان أبي عريف على الماء واني أسالك ان تجعل لي العرافة من بعده فقال النبي صلى الله عليه وسلم العرفاء في النار (وروى) الساجي عن أبي سعيد الخدري قال قال النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة الامام الجائر * وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليس من وال ولا قاض الا ويؤتى به يوم القيامة حتى يقف بين يدي الله سبحانه على الصراط ثم تنشر الملائكة سيرته فيقرؤنها على رؤس الخلائق فان كان عادلا نجاه الله

بعدله وان كان غير ذلك انتقض به الصراط انتقاضة صار بين كل عضو من أعضائه مسيرة سنة
ثم ينخرق به الصراط فما يلقى قعر جهنم الا بحر وجهه (وروى) معاذ بن جبل ان النبي صلى
الله عليه وسلم قال ان القاضي يزل في مزلقة أبعد من عدن في جهنم (وقالت) عائشة رضي الله
عنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى في شدة
الحساب على ما قضى حتى يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة (وروى) الحسن البصري ان النبي
صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال يا رسول الله خر لي فقال اقعد في بيتك
(وروى) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ليودن اقوام يوم القيامة لو وقعوا من الثريا ولم يكونوا
امراء على شيء وكم من متخوّل في مال الله ومال رسوله له النار غدا (وفي) الحديث ان النبي صلى
الله عليه وسلم قال صنفان من امتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة امام ظالم غشوم وغال في
الدين مارق منه (وقال) أبو هريرة رضي الله عنه ما من امير يؤمر على عشرة الا جيء به يوم القيامة
مغلولا لنجاه عدله أو أهلكه (وقال) طاوس لسليمان بن عبد الملك هل تدري يا أمير المؤمنين
من أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه فاستلقى سليمان على
سريره وهو يبكي وما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه (وقال) حذيفة بن اليمان من اقتراب الساعة
ان يكون امراء فجرة وقراء كذبة وامناء خونة وعلماء فسقة وعرفاء ظلمة (وقال) عبيد بن عمير
ما ازداد رجل من السلطان قربا الا ازداد من الله بعدا ولا كثر أتباعه الا كثر شيطانه ولا كثر
ماله الا كثر حسابه (وفي الحديث) عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان في النار
وواحد في الجنة رجل قضى بغير علم فهو في النار ورجل قضى بعلم فجار فهو في النار ورجل قضى
بالحق فهو في الجنة رواه بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم (وقال) ابن سيرين جاء صبيان الى
عبيدة السلماني يتخايرون اليه في ألواحهم فلم ينظر فيها وقال هذا حكم ولا أتولى حكما أبدا (وتخاير)
غلامان الى ابن عمر فجعل ينظر الى كتابتهم وقال هذا حكم ولا بد من النظر فيه * والمصنفون
يرسلون في كتبهم حديثا مرفوعا رواه أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قدم
الى القضاء فقد ذبح بغير سكين (وفي أخبار) القضاة ان قاضيا قدم الى بلد فجاءه رجل له عقل
ودين فقال له أيها القاضي أبلغك قول النبي صلى الله عليه وسلم من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين
قال نعم قال فبلغك ان أمور الناس ضائعة في بلدنا فجئت تجبرها قال لا قال أفأكرهك السلطان
على ذلك قال لا قال فاشهد أني لا أطألك بجلسا ولا أؤدي عندك شهادة أبدا (وروى) ان أبا بكر
الصديق رضي الله عنه قال في بعض خطبه ان الملك اذا ملك زهده الله في ماله ورغبه فيما في يد غيره
واشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل و يسخط الكثير جذل الظاهر حزين الباطن فاذا
وجبت نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه الله فاشد حسابه وأقل عفوه (وذكر) السلطان
لاعرابي فقال والله لئن عزوا في الدنيا بالجور لقد ذلوا في الآخرة بالعدل وبقليل فان رضوا عن
كثير باق وانما يكون الندم حين لا ينفع الندم (وقال) أبو بكر بن أبي مريم حج قوم فمات صاحب
لهم بارض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا دلنا على الماء قال احلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا
انه لم يكن فيكم صرافا ولا مكاسا ولا عريفا ولا بريدا و بروى ولا عرافا قال أنا ادلكم على الماء فحلفوا
له ثلاثا وثلاثين يمينا فدلهم على الماء ثم قالوا له عاونا على غسله فقال احلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا

كما تقدم ذكره فخافوا له فاعانهم على غسله ثم قالوا تقدم وصل عليه قال لا حتى تصلوا فوالى أربعا وثلاثين يعينا كما تقدم فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا وكانوا يرون انه الخضر عليه السلام (وقال) ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبي وامام ضلالة وممثل من الممثلين (وقال) أبو ذر قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ست أيام اعقل يا أباذر ما أقول لك ثم لما كان في اليوم السابع قال أوصيك بتقوى الله في أمر سرك وعلانيتك فاذا أسأت فاحسن ولا تسألن أحدا وان سقط سوطك ولا تؤوين امانة ولا تؤوين يتيما ولا تقضين بين اثنين (وقال) أبو ذر أيضا قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أباذر اني أحب لك ما أحب لنفسي واني أراك ضعيفا لا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم (وروى) أبو ذر ايضا قلت يا رسول الله الا تستعملني فضرب بيده على منكبي وقال لي يا أباذر انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزي وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها (وروى) علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن وأنا حديث السن فقلت يا رسول الله انك تبعثني الى قوم شيوخ ذوي أسنان ولا علم لي بالقضاء فقال ان الله سبحانه هادي قلبك ولسانك فاذا جلس الخصمان فلا تقض للاول حتى تسمع كلام الآخر فانك اذا سمعت ذلك عرفت كيف تقضي (فان قال قائل) كيف نهى أباذر عن القضاء وأمر عليا بالقضاء مع ما فيه من التغرير وما روي بان من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين وفيه البعد عن حضرته والتمين بالمشاهدة وتعلم سننه وشرائع دينه والتخلق باخلاقه وشيمه وايهما أفضل المثول بين يديه والكون بحضرته ومشاهدته والصلاة خلفه أو القضاء في غيبته مع البعد عنه (قلنا) انما نهى اباذر لمعنى فيه يقصر به عن رتبة القضاء مما كان ضده في علي رضي الله عنه ثم قال في آخره الا من اخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها فاستدللنا بذلك على أن من استجمعت فيه شروط القضاء وكان قويا على اداءه لم يدخل تحت النهي ومما يعد ضعفا عن القضاء طلبه اياه اذ لم يدر عواقبه وقد وصف الله سبحانه المتسرع الى الامانة بالجهل فقال تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا اي ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة امره والدليل على صحة هذا التاويل قول النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار (قلت) فهذان الرجلان ضعيفان عن رتبة القضاء احدهما بغشه وظلمه والآخر بجهله وقد عابت جهلة بني اسرائيل طالوت فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال فعابوه بخمله بين الفقر وأنه ليس من سبط المملكة فقال لهم نبيهم ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم فبين شروط الولايات والممالك وانها تفتقر الى العلم الذي به يحكم والى القوة التي بها تنفذ الاحكام دون ماظنه بنو اسرائيل * وأما قولك أيهما أفضل القضاء في غيبته أو الحضور بين يديه والكون في حضرته * فالجواب ان أوامره عليه السلام فرض يعصي بتركه والكون في حضرته مستحب بعد الهجرة لا يعصي بتركه فعلمنا بهذا انه انما بعث عليا رضي الله عنه للقضاء لانه

افضل

أفضل من سكناه بحضرته لانه مبلغ عنه الى الخلائق شريعته التى بعثه الله بها فهو خليفته في ذلك يدل على هذا انه اوجب الجنة لمن قضى بالحق

(الباب الرابع في بيان معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام ووجه طلبه الملك وسؤاله أن لا يؤتى لاحد من بعده)

قال هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى فطلب الملك ثم زاد على ذلك بان لا يؤتى مثله أحد ابعده وكان ظاهره يؤذن بالبخل * والكلام على هذه الآية من وجوه (أحدها) انه انما سأل هذا بعد أن سلبه الله تعالى ملكه ثم أعاده اليه فحين طلب الملك كان ملكا فكانه قال هذا الملك الذى جددته لى هبه لى على صفات لا أعصيك فيها فتسلبنى اياه وتعاقبنى يدل عليه انه بدأ بالمغفرة فقال رب اغفرلى وهب لى ملكا أى ملكا لا أعصيك فيه فتؤاخذنى والدليل على صحة هذا قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فكانه أجاب دعاءه فقال تصرف كيف شئت فلا حساب عليك فيه * وقيل ان أعطيت أجرت وان أمسكت فلا تبعة عليك فيه وهذا تخصيص لسليمان ابن داود عليهما السلام ولم يخص به أحد من ولد آدم سواه لان الله تعالى قال للخلائق فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون * وأما قوله لا ينبغى لاحد من بعدى فمعناه لا أسلبه في باقى عمرى فيصير لغيرى كما سلبته فيما مضى من عمرى وقيل لا تسلط على فيه شيطانا مثل الذى قد سلطت على وقيل انما سأل ذلك ليكون علما على المغفرة وقبول التوبة فاجيب الى ذلك فعلم أنه قد غفر له وقيل انما سأل ذلك ليكون آية لنبوته وعلما على معجزته * وقال مقاتل كان سليمان بن داود ملكا ولكنه أراد بقوله لا ينبغى لاحد من بعدى تسخير الرياح والطير يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى فسخرنا له الريح الى آخر الآية وقيل ان سليمان كان ملكه في خاتمه ولهذا ذهب ملكه بذهاب خاتمه فقال لا ينبغى لاحد من بعدى يعنى اجعل ملكى في نفسى لا في خاتمى حتى لا يملكه أحد غيرى فان ابليس لما أخذ خاتم سليمان تحول ملك سليمان الى ابليس وقعد على كرسيه يحكم فيه حتى أنكرت بنو اسرائيل احكامه وكان قد ألقى عليه شبهه (وقال) عمرو بن عثمان المكى انما أراد به ملك النفس وقهر الهوى يدل عليه ما روى سلامان الشعبانى قال بلغنى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أرأيتم سليمان وما آتاه الله من ملكه فانه لم يرفع طرفه الى السماء تخشعا لله تعالى حتى قبضه الله تعالى * وزاد غيره انما أراد ملك النفس وقهرها لئلا يفتتن بالمملكة ولهذا قدم سؤال المغفرة على طلب المملكة * وقال بعض الوعاظ انما أراد حتى ينتقم لآدم من ابليس وذريته حيث كان سببا في اخراجه وذريته من الجنة (وروى) البخارى في صحيحه ان النبى عليه السلام قال ان عفريتا من الجن جعل يتفلت على البارحة ليقطع على صلاتى وان الله تعالى أمكننى منه فصرعته ولقد هممت ان اربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى يصبح فتنظرون اليه كلكم فذكرت قول سليمان هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى فرده الله خاسئا (فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم (قلت) يستفاد من الآية ان من حصل بين يدى ملك لا يعرف قدره او أمة لا يعرفون فضله فخاف على نفسه او اراد ابراز فضله جاز له ان ينبههم على مكانه وما يحسنه دفعا للشر عن نفسه او اظهار الفضله فيجعل في مكانه * وفيه فائدة اخرى وهو أنه اذا رأى الامور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدى

الامانة ويعلم من نفسه اداء الامانة مع الكفاية جازله ان ينبه السلطان على امانته وكفايته ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء جازله ان ينبه السلطان على مكانه و يخطبه خطة القضاء وقال بعضهم بل يجب ذلك عليه اذا كان الامر في يدي من لا يقوم به

(الباب الخامس في فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا)

قال الله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض يعني لولا أن الله تعالى اقام السلطان في الارض يدفع القوي عن الضعيف وينصف المظلوم من الظالم لاهلك القوي الضعيف وتواثب الخلق بعضهم على بعض فلا ينتظم لهم حال ولا يستقر لهم قرار فتفسد الارض ومن عليها ثم امتن الله تعالى على الخلق باقامة السلطان فقال تعالى ولكن الله ذو فضل على العالمين يعني في اقامة السلطان فيأمن الناس به فيكون فضله على الظالم كف يده عن المظلوم وفضله على المظلوم كف يد الظالم عنه (وروى) ابو هريرة ان النبي عليه السلام قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم (وروى) ان النبي عليه السلام قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني اخاف الله ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (وروى) كثير بن مرة قال قال النبي عليه السلام السلطان ظل الله في ارضه يأوي اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر واذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر (وروى) أبو هريرة يرفعه قال لعمل الامام العادل في رعيته يوما أفضل من عبادة العابد في اهله مائة سنة أو خمسين سنة (وقال) قيس بن سعد ليوم من امام عادل خير من عبادة رجل في بيته ستين سنة (وروى) ان سعد بن ابراهيم واباسلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن مصعب بن شرحبيل ومحمد بن صفوان قالوا لسعد بن سليمان بن زيد بن ثابت لقضاء يوم بالحق أفضل عند الله من صلاتك عمرك وسيتضح لك صحة هذه الاقوال اذا وقفت على ما نالته الرعية من الصلاح بصلاح السلطان (واعلم) أرشدك الله ان الانسان اعز جواهر الدنيا واغلاها قدرا واشرفها منزلة وبالسلطان صلاح الانسان اذ فهو أعز اعلاق الدنيا واعمها بركة ولذلك خلق الله تعالى دارين دار الدنيا ودار الآخرة ثم لما كان السلطان صلاح الدارين فاخلق بشخص يعم نفعه العباد والبلاد ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة أن يكون شرفه عند الله عظيما كما كان قدره في العقول جسيما ومقامه عند الله كريما كما كان نفعه عميما وعلى قدر عموم المنفعة تشرف الاعمال وعلى قدر النعمة تكون المنة ألا ترى ان الانبياء عليهم السلام أعم خلق الله نفعا فهم اجل خلق الله قدرا لانهم تعاطوا اصلاح الخلائق واخراجهم من الظلمات الى النور كذلك سلطان الله في الارض هو خلافة النبوة في اصلاح الخلائق ودعائهم الى فناء الرحمن واقامة دينهم وتقويم أودهم وليس فوق السلطان العادل منزلة الا نبي مرسل او ملك مقرب فاتخذ عظم قدر السلطان عندك حجة لله تعالى على نفسك وناصحه على قدر ما نفعك وليس نفعه مقصورا على عجالة من حطام الدنيا يحبوك بها ولكن صيانة جمعتك

فناء بكسر الفاء

وصيانة حريمك وحراسة مالك عن البغاة أعم نفعا لك ان عقلت واليس لله سلطان الا وقد اخذ عليه شرائط العدل ومواثيق الانصاف وشرائع الاحسان وكما أنه ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كذلك ليس دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبة لشرير لان شره يعم كما ان خيره الاول يعم وكما ان بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد وتنال الزلفى الى الله تعالى والفوز بجنة المأوى كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصي والآثام وتورث دار البوار وذلك ان السلطان اذا عدل انتشر العدل فى رعيته فأقاموا الوزن بالقسط وتعاطوا الحق فيما بينهم ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور وانتعشت قوانين الحق فأرسلت السماء غيثها واخرجت الارض بركاتها ونمت تجاراتهم وزكت زروعهم وتناسلت انعامهم ودرت ارزاقهم ورخصت اسعارهم وامتلأت اوعيتهم فواسى البخيل وأفضل الكريم وقضيت الحقوق واعيرت المواعين وتهادوا فضول الاطعمة والتحف فهان الحطام لكثرته وذل بعد عزته فتماسكت على الناس مروآتهم وانحفظت عليهم أديانهم وبهذا تبين لك ان الوالى ماجور على ما يتعاطاه من اقامة العدل وماجور على ما يتعاطاه الناس بسببه واذا جار السلطان انتشر الجور فى البلاد وعم العباد فرقت أديانهم واضمحلت مروآتهم ففشت فيهم المعاصى وذهبت أماناتهم فضعفت النفوس وقنطت القلوب فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل وبخسوا المكيال والميزان وجوزوا البهرج فرفعت منهم البركة وأمسكت السماء غيثها ولم تخرج الارض ريعها ونباتها فقل فى أيديهم الحطام فقنطوا وأمسكوا الفضل الموجود وتأخروا عن المفقود فمنعوا الزكوات المفروضة وبخلوا بالمواساة المسنونة وقبضوا أيديهم عن المكارم وتنازعوا المقدار اللطيف وتجاحدوا القدر الخسيس ففشت فيهم الايمان الكاذبة والختل فى البيع والخداع فى المعاملة والمكر والحيلة فى القضاء والاقتضاء ولا يمنعه من السرقة الا العار ومن الزنا الا الحياء فظل أحدهم عاريا عن محاسن دينه ومتجردا عن جلباب مروأته وأكثر همه قوت دنياه وأعظم مسراته من هذا الحطام ومن عاش كذلك فبطن الارض خير له من ظاهرها (قال) وهب بن منبه اذا هم الوالى بالجور أو عمل به ادخل الله النقص فى أهل مملكته فى الاسواق والزرع والضرع وكل شئ واذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك وقال عمر بن عبد العزيز تهلك العامة بعمل الخاصة ولا تهلك الخاصة بعمل العامة والخاصة هم الولاة وفى هذا المعنى قال الله سبحانه واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (وقال) الوليد بن هشام ان الرعية لتفسد بفساد الوالى وتصلح بصلاحه (وقال) سفيان الثورى لابى جعفر المنصور انى لاعلم رجلا ان صلح صلحت الامة قال ومن هو قال أنت (وقال) ابن عباس ان ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته مستخفيا فنزل على رجل له بقرة فراحت البقرة فحلبت له قدر حلاب ثلاثين بقرة فعجب الملك لذلك وحدث نفسه باخذها فلما راحت عليه من الغد حلبت على النصف مما حلبت بالامس فقال له الملك مابال حلابها انقص أرعت فى غير مرعاها بالامس قال لا ولكن أظن ملكنا هم باخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فعاهد الملك الله سبحانه فى نفسه ان لا ياخذها فراحت من الغد فحلبت حلاب ثلاثين بقرة فتاب الملك وعاهد ربه لاعدلن

مابقيت * ومن المشهور فى أرض المغرب ان السلطان بلغه ان امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وان قصبة منها تعصر قدحا فعزم على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم انها عصرت قصبة فلم تبلغ نصف قدح فقال لها أين الذى كان يقال فقالت هو الذى بلغك الا ان يكون السلطان قد عزم على أخذها منى فارتفعت بركتها فتاب السلطان وأخلص لله نيته ان لا يأخذها ابدا ثم أمرها فعصرت فجاءت مل القدح * وحدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الاخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا ولم يكن فى الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل فى ذلك العام شيأ ولا تمرة واحدة (قال) شيخنا رحمه الله قال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة فى الغربية تجنى عشرة أرادب ستين ويبة وكان صاحبها يبيعها فى سنين الغلاء كل ويبة بدينار (قال) الشيخ رضى الله عنه وشهدت انا بالاسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية والسمك فيه يغلى الماء به كثرة ويصيده الاطفال بالخرق ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه الا الواحدة الى يومنا هذا وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخير وان شرا فشر (وروى) أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس اذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتلاقون يتساءلون من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وامثال ذلك وكان الوليد صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الانهار وغرس الاشجار ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يتحدثون فى الاطعمة الدقيقة ويتوسعون فى الانكحة والسرارى ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولى عمر بن عبد العزيز كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك فى كل ليلة وكم يحفظ فلان ومتى يختم وكم تصوم من الشهر وامثال ذلك

(الباب السادس فى ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح)

اعلموا أرشدكم الله ان السلطان خطره عظيم وبليته عامة وقد يطرقه من الآفات ويحتوشه من الامور المهلكات ما يجب على كل ذى لب ان يستعيذ بالله مما حله ويشكره على ما عصمه لا تهدأ فكره ولا تسكن خواطره ولا يصفو قلبه ولا يستقر لبه الخلق فى شغل عنه وهو مشغول بهم والرجل يخاف عدوا واحدا وهو يخاف ألف عدو والرجل يضيق بتدبير أهل بيته واقالة ضيعته وتقدير معيشته وهو مدفوع لسياسة جميع اهل مملكته وكلما رتق فتقا من حواشى مملكته انفتق آخر وكلما رام منها شعثا رث آخر وكلما قمع عدوا أرصد له أعداء الى سائر ما يعانيه من اخلاق الناس ويقاسيه من خصوماته ونصب الولاة والقضاة وبعث الجيوش وسد الثغور واستجباء الاموال ودفع المظالم ثم من العجب العجاب ان له نفسا واحدة وانه يرزأ من الدنيا قوتها كما يرزأ آحاد الرعايا ثم يسأل غدا عن جميعهم ولا يسألون عنه فبالله ويا للعجب من رجل رضى ان ينال رغيفا ويحاسب منها على آلاف آلاف رغيف ويأكل فى معا واحد ويطلب على آلاف آلاف معا ويستمتع بنفس واحدة ويحاسب على آلاف آلاف من الانفس وعلى هذا النمط فى جميع أحواله يحمل اثقالهم ويريح اسرارهم ويجاهد عدوهم ويسد ثغورهم ويدافع مناوبهم ومناصبهم ويعصى ربه فيهم ويخالف

أمره ويركب نهيه من أجلهم ويقتحم جرائم جهم على بصيرة فيهم ثم تجدهم له قالين وعنه غير راضين ولولا ان الله تعالى يحول بين المرء وقلبه لم يرض عاقل بهذه منزلة ولا اختارها لبيب مرتبة وكل ماذكرته في هذا الباب احكمه النبي عليه السلام في كلمة فقال ما لكم ولا مرائكم صفو أمرهم وعليهم كدره ومثال السلطان مع الرعية كالطباخ مع الاكلة له العناء ولهم الهناء وله الحار ولهم القار طلب لقومه الراحة فحصل على التعب وطلب لهم النعيم فاخطأ الصراط المستقيم وعن هذا قالوا سيد القوم اشقاهم وفي الحديث ساقي القوم آخرهم شربا * وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوما وبين يديه الوزراء اذ نظر الى جماعة من التجار فقال لوزيره اتحب ان اريك ثلاث طوائف طائفة لهم الدنيا والآخرة وطائفة لا دنيا ولا آخرة وطائفة دنيا بلا آخرة قال وكيف ذلك ايها الملك فقال الذين لهم الدنيا والآخرة فهؤلاء التجار يكسبون أقواتهم ويصلون صلاتهم ولا يؤذون احدا وأما الذين لا دنيا ولا آخرة فهؤلاء الشرط والخدمة الذين بين أيدينا وأما الذين لهم دنيا بلا آخرة فانا وأنت وسائر السلاطين فحق على جميع الورى ان يمدوا السلطان بالمناصحات ويخصوه بالدعوات ويعينوه على سائر المحاولات ويكونوا له أعينا ناظرة وايديا باطشة وجننا واقية وألسنة ناطقة وقوادم تنهضه وقوائم تقله وهيهات منه السلامة وأنى له بالسلامة وعن هذا قال بعض السلاطين يوما لاصحابه اعلموا ان السلطان والجنة لا يجتمعان (قال) شيخنا رحمه الله وحدثني رجل له قدر قال ارسل الي السلطان أن طلق امرأتك وكان قد أرادها لبعض أصحابه فابيت ذلك وراجعت الرسل غير مرة فقال لي ناصح منهم خذ الامر مقبلا فانه لا حيلة لك فان السلطان لا يخاف في الدنيا عارا ولا في الآخرة نارا ففارقتها (وروى) عن عبد الملك بن مروان انه لما ولي الخلافة أخذ المصحف فوضعه في حجره ثم قال هذا فراق بيني وبينك ولما حج هرون الرشيد لقيه عبد الله العمري في الطواف فقال له يا هرون قال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من الخلق قال لا يحصيهم الا الله فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد منهم يسال عن خاصة نفسه وانت واحد تسال عنهم كلهم فانظر كيف تكون فبكى هرون وجلس فجعلوا يعطونه منديلا منديلا للدموع ثم قال له والله ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف بمن أسرع في مال المسلمين * ويقال ان هرون كان يقول والله اني أحب ان اج كل سنة وما يمنعني الا رجل من ولد عمر يسمعني ما أكره وقال مالك بن دينار قرأت في بعض الكتب القديمة يقول الله تعالى من احمق من السلطان ومن اجهل ممن عصاني ومن اعز ممن اعتز بي ايا راعي السوء دفعت اليك غنما سمانا صحاحا فاكلت اللحم وشربت اللبن وائتدمت بالسمن ولبست الصوف وتركتها عظاما تتقعقع ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم لها منك

(الباب السابع في بيان الحكمة في كون السلطان في الارض)

اعلموا ارشدكم الله ان في وجود السلطان في الارض حكمة لله تعالى عظيمة ونعمة على العباد جزيلة لان الله سبحانه جبل الخلق على حب الانتصاف وعدم الانصاف ومثلهم بلا سلطان مثل الحيتان في البحر يزدرد الكبير الصغير فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقم لهم معاش ولم يهنؤا بالحياة ولهذا قال بعض القدماء لو رفع السلطان من الارض ما كان لله في اهل الارض من حاجة ومن الحكم التي في اقامة السلطان انه من حجج الله تعالى على وجوده

سبحانه ومن علاماته على توحيده لانه كما لا يمكن استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر ينفرد بتدبيره كذلك لا يتوهم وجوده وترتيبه وما فيه من الحكمة ودقائق الصنعة بغير خالق خلقه وعالم اتقنه وحكيم دبره وكما لا يستقيم سلطانان في بلد واحد لا يستقيم الهان للعالم والعالم باسره في سلطان الله تعالى كالبلد الواحد في يد سلطان الارض ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه امران جليلان لا يصلح احدهما بالتفرد ولا يصلح الآخر بالمشاركة وهما الملك والرأي فكما لا يستقيم الملك بالشركة لا يستقيم الرأي بالانفراد به ومثال السلطان القاهر لرعيته والرعية بلا سلطان مثال بيت فيه سراج منير وحوله فئام من الخلق يعالجون صناعتهم فبينما هم كذلك طفئ السراج فقبضوا أيديهم للوقت وتعطل جميع ما كانوا فيه فتحرك الحيوان الشرير وخشخش الهام الخسيس فدبت العقرب من مكمنها وفسقت الفارة من جحرها وخرجت الحية من معدنها وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوث مع حقارته فتعطلت المنافع واستطارت فيهم المضار كذلك اذا كان قاهر الرعية كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء في أهلها محقونة والحرم في خدورهن مصونة والاسواق عامرة والاموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهر والمرافق حاصلة والحيوان الشرير من أهل الفسوق والدعارة خامل واذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع ولو جعل ظلم الناس حولا في كفة كان هرج ساعة أعظم وأرجح من ظلم السلطان حولا وكيف لا وفي زوال السلطان أو ضعف شوكته سوق اهل الشر ومكسب الاجناد ونفاق اهل العيارة والسوقة واللصوص والمناهبة * وقال الفضيل جور ستين سنة خير من هرج سنة ولا يتمنى زوال السلطان الا جاهل مغرورا وفاسق يتمنى كل محذور فحقيق على كل رعية ان ترغب الى الله تعالى في اصلاح السلطان وان تبذل له نصحه وتخصه بصالح دعائها فان في صلاحه صلاح العباد والبلاد وفي فساده فساد العباد والبلاد * وكان العلماء يقولون اذا استقامت لكم امور السلطان فاكثروا حمد الله تعالى وشكره وان جاءكم منه ما تكرهون وجهوه الى ما تستوجبونه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم واقيموا عذر السلطان لانتشار الامور عليه وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة واستئلاف الاعداء وارضاء الاولياء وقلة الناصح وكثرة التدليس والطمع * وفي كتاب التاج هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار وألباب الملوك مشغولة بكل شئ والباب السوقة مشغولة بايسر شئ والجاهل منهم يعذر نفسه مع ما هو عليه من الراحة ولا يعذر سلطانه مع شدة ما هو عليه من المؤنة ومن هنالك يعز الله سلطانه ويرشده وينصره وعن هذا قالت حكماء العجم لا تستوطن الا بلدا فيه سلطان قاهر وقاض عادل وسوق قائمة وطبيب عالم ونهر جار

(الباب الثامن في منافع السلطان ومضاره)

(قال) حكماء العرب والعجم مثل مضار السلطان في جنب منافعه مثل الغيث الذي هو سقيا الله تعالى وبركات السماء وحياة الارض ومن عليها وقد يتأذى به المسافر ويتداعى له البنيان وتكون فيه الصواعق وتدرس وله فتهلك الناس والدواب والذخائر ويموج له البحر فتشتد بليته على أهله ولا يمنع ذلك الخلق اذا نظروا الى آثار رحمة الله تعالى في الارض التي أحيا والنبات الذي أخرج والرزق الذي بسط والرحمة التي نشر أن يعظموا رحمة ربهم

ويشكرونها ويلغوا ذكر خواص الاذية التي دخلت على خواص الخلق (ومثاله) أيضا مثل الرياح التي يرسلها الله تعالى نشرا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها القاحا للثمرات ورواحا للعباد ويتنسمون منها ويتقلبون فيها وتجرى بها مياههم وتقد بها نيرانهم وتسير بها في البحر أفلاكهم وقد تضر بكثير من الناس في برهم وبحرهم وتخلص الى أنفسهم فيشكرها الشاكرون وقد يتأذى بها كثير من الناس ولا يزيلها ذلك عن منزلتها من قوام عبادته وتمام نعمته (ومثاله) أيضا مثال الشتاء والصيف الذي جعل الله حرهما وبردهما صلاحا للحرث والنسل ونتاجا للحب والثمر يجمعهما البرد باذن الله ويخرجهما الحر باذن الله فينضج على اعتدال الى غير ذلك من منافعهما وقد يكون الاذى في حرهما وبردهما وسمومهما وزمهريرهما وهما مع ذلك لا ينسبان الى الصلاح والخير وقد غمر صلاحهما اذيتهما ومثاله أيضا مثل الليل الذي جعله الله تعالى سكنا ولباسا ونوما وراحة وسباتا وقد يستوحش له أخو الفقر ويسارع فيه أهل الدعارة والفساد واللصوص وتعدو فيه السباع وتنتشر فيه الهوام وذوات الحمة والسموم القاتلة ثم لا ينسى العباد نعم الله تعالى عليهم به ولا يرز أصغير ضرره بكبير نفعه (ومثاله) ايضا مثال النهار الذي جعله الله ضياء ونورا ونشورا واكتسابا وانتشارا وقد تكون فيه الحروب والغارات والتعب والنصب والشخوص والخصومات فتستريح الخلق منه الى الليل ثم لم ينس العباد نعمة الله عليهم فيه وهكذا كل جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصا ونفعه عاما فهو نعمة عامة وكل شيء يكون نفعه خاصا فهو بلاء عام ولو كانت نعم الدنيا صفوا من غير كدر وميسورها من غير معسور لكانت الدنيا هي الجنة التي لا تعب فيها ولا نصب (وقد قال الشاعر)

لا ترج شيأ خالصا نفعه * فالغيث لا يخلو من العيب

(الباب التاسع في بيان منزلة السلطان من الرعية)

اعلموا ان منزلة السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد فاذا صفت الروح من الكدر سرت الى الجوارح سليمة وسرت في جميع أجزاء الجسد فأمن الجسد من الغير فاستقامت الجوارح والحواس وانتظم أمر الجسد وان تكدرت الروح أو فسد مزاجها فيما ورح الجسد فتسرى الى الحواس والجوارح كدرة وهي منحرفة عن الاعتدال فاخذ كل عضو وحاسة بقسطه من الفساد فمرضت الجوارح وتعطلت فتعطل نظام الجسد وجر الى الفساد والهلاك (ومثال) السلطان أيضا مثال النار ومثال الخلق مثال الخشب فما كان منها معتدلا لم يحتج الى النار وما كان منها متأودا احتاج الى النار ليقام أوده فيعتدل عوجه فان أفرطت النار احترق الخشب قبل ان يستقيم أوده وان قصرت النار لم يلن الخشب لقبول الاعتدال فيبقى متأودا واذا كانت النار معتدلة اعتدل الخشب كذلك السلطان في أطواره ان أفرطت أهلك الخلق وان فرط لم يستقيموا وان اعتدل اعتدلوا (ومثاله) ايضا مثال عين خرارة في أرض خوارة فان خلا مشربه وعذب طعمه وسلمت من الكدر والفساد أوصافه اختلج في الارض فابتلعته صافيا صرفا ثم شربته عروق الاشجار فاغتذت به كذلك فغلظت سوقها وفرعت أغصانها وامتدت أفنانها ثم اخرجت أوراقها وأبرزت أزهارها ثم قذفت

ثمارها فجاءت على أتم طبيعتها كبرا وطعما ولونا ورائحة فتقوت بها العباد وأكلت حظوظها البهائم والحشرات وسقط عليها الطير فاحرز كل منها اقوته واستقام النظام وان كان فى حواشى الارض مايدق عن الانبات والنفع ويكدى عن الزكاة والريع أوكان فيها من الشجر مايبرز جسله ويقل ريعه اعطى كل ذلك الغاية من نفسه واطلع مافى قواه ولم يغادر ممكنا الاوفاه وان كان فى العين كدر أوفسادا وملح شربتها الاشجار كذلك ففسد مزاجها وأضر الجزء الفاسد بالطيب فرقت سوقها وضعفت أغصانها وتغيرت أوراقها وقلت ازهارها وثمارها ودخل الفساد على جميع ذلك فجاءت الثمرة وهى نزرقدرها ردىء طعمها كاسف لونها فدخل بذلك من النقص على جميع الحيوان مثل مادخل عليهم فى الاولى ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ان الحشرات لتموت فى أجحرتها هزالا بذنب ابن آدم يعنى اذا كثرت المعاصى فى الارض حبست السماء غيائها ومنعت الارض نباتها فهلك الهوام والحشرات والدواب

* (الباب العاشر فى بيان معرفة خصال ورد الشرع بها فيها انتظام الملك والدول) *

وهى ثلاثة اللين وترك الفظاظة والمشاورة وان لايستعمل على الاعمال والولايات راغب فيها ولاطالب لها ولما علم الله تعالى مافيهما من انتظام أمر الملة واستقامة الامر نص عليها الله سبحانه ورسوله * اعلم ان هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم اما الالهية فقال الله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر وفى الآية اشارتان * احداهما ان الفظاظة تنفر الاصحاب والجلساء وتفرق الجموع والحشم وانما الملك ملك بجلسائه وأصحابه وحشمه واتباعه وأخلق بخصلة تنفر الاولياء وتطمع الاعداء فقمين بكل سلطان رفضها والاحتراز من سوء مغبتها ولتكن كما قال الله تعالى واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه فجاء رجل فقال أيكم ابن عبد المطلب فقالوا هذا الابيض المتكئ فقال الرجل يا ابن عبد المطلب فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد أجبتك دل الاثر على انه ما استأثر بشرف المجلس ولا قام بزى ولا مقعد وقد يبلغ باللين مالا يبلغ بالغلظة ألاترى أن الرياح تهون أصواتها فتتداخل لها الشجر وتنعطف الافنان والاغصان وفى الفرط تنكسر الاغصان والماء بلينه فى أصول الشجر يقلعها من أصلها واذا كانت الحية مع صعوبتها وسمها وتغيبها فى جحرها ترقى بالكلام حتى تستعطف فتخرج فالانسان أحرى ان يستمال بلين القول وحسن المنطق فاذا أردت ان تنتقم ممن يسئ اليك فكافئه بكل كلمة سوء قالها كلمة جميلة وحسن ثناء عليه * والاشارة الثانية انه قال وشاورهم فى الامر فاذا قيل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وامامهم وواجب عليهم مشاورته وان لا يفصلوا أمرا دونه قلنا هذا أدب أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به وجعله مأدبة لسائر الملوك والامراء والسلاطين لما علم الله تعالى مافى المشاورة من حسن الادب مع الجليس ومساهمته فى الامور فان نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتميل اليه وتخضع عنوة بين يديه شرعة لنبيه عليه السلام ولذوى الامرة من أهل ملته فصلى

الله عليه وسلم ألا ترى ان النبي عليه السلام كان في غزوة فأمرهم بالنزول فقال له سعد يا رسول الله ان كان هذا بأمرك فسمع وطاعة وان كان غير ذلك فليس بمنزل فسمع منه النبي عليه السلام وقال ارتحلوا * ومن أقبح ما يوصف به الرجال ملوكا كانوا أو سوقة الاستبداد بالرأى وترك المشاورة وسنعقد للمشاورة بابا ان شاء الله تعالى * والخصلة الثالثة ما روى البخارى ومسلم وغيرهما ان رجلا قال يا رسول الله استعملنى فقال النبي عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من أراده والسر فيه ان الولايات امانات وتصرف في ارواح الخلائق وأموالهم والتسرع الى الامانة دليل على الخيانة واغا يخطبها من يريد أكلها واذا ائتمن خائن على موضع الامانات كان كاسترعاء الذئب على الغنم ومن هذه الخصلة تفسد قلوب الرعايا على ملوكها لانه اذا اهتضمت حقوقهم وأكلت أموالهم فسدت نياتهم واطلقوا ألسنتهم بالدعاء والتشكى وذكروا سائر الملوك بالعدل والاحسان فكانوا كالبيت السائر الذى أنشدناه

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها * فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

فاذا خان أهل الامانات وفسد أهل الولايات كان الامر كما قال الاول

بالملح يصلح ما يخشى تغيره * فكيف بالملح ان حلت به الغير

(وقال آخر)

ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع
يدعو وجل دعائه * ما للفريسة ما تقع
عجل بها يا ذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع

* ومن اشراط الساعة التصدى للامانة وخطبة الولاية (وروى) عن النبي عليه السلام انه قال من اشراط الساعة ان تكون الزكاة مغرما والامانة مغنما فحينئذ يدعو عليه الضعيف وأهل الصلاح ويقعد له بالمراصد الشرير ويخاصم عليه القوى ويقبح ثناؤه عند الجماعة ويتمنوا الراحة منه وينظرون من يصلح لها سواه

(الباب الحادى عشر في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها)

فأول الخصال وأحقها بالرعاية العدل الذى هو قوام الملك ودوام الدول وأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو اصلاحية * اعلم أرشدك الله ان الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه ان ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى فلو وسع الخلق العدل ما قرن الله به الاحسان فمن لم يصلح حتى يزاد على العدل كيف يصلح اذا لم يبلغ به العدل والعدل ميزان الله في الارض الذى به يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل وليس موضع الميزان بين الرعية فقط بل بين السلطان والرعية أيضا فمن أزال ميزان الله الذى وضعه من القيام بالقسط فقد تعرض لسخط الله تعالى * واعلم أيها الوالى ان الملك بمنزلة رجل فرأسه أنت وقلبه وزيرك ويداه أعوانك ورجلاه رعيتك وروحه عدلك وما بقاء جسد بلا روح واذا أردت ذروة العدل فاعلم ان الرعية ثلاثة أنفس كبير وصغير ووسط فاجعل كبيرهم أبا ووسطهم أخا وصغيرهم ابنا فبر أباك وأكرم أخاك وارحم ابنك فانك واصل بذلك الى بر الله وكرامته ورحمته * واعلم ان عدل الملك

يوجب الاجتماع عليه وجوره يوجب الافتراق عنه عدل الملك حياة رعيته * وفي منثور الحكم سلطان جائر أربعين عاما خير من رعية مهملة ساعة واحدة من النهار اذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح له ما بعد عنه فضل الملوك في الاعطاء وشرفها في العفو وعزها في العدل عدة السلطان ثلاثة مشاورة النصحاء وثبات نيات الاعوان واقامة سوق العدل افضل الازمنة ازمنة ائمة العدل ثم العدل ينقسم قسمين قسم الهي جاءت به الرسل والانبياء عليهم السلام عن الله تعالى والثاني ما يشبه العدل وهو السياسة الاصلاحية التي هرم عليها الكبير ونشأ عليها الصغير وبعيد أن يبقى سلطان أو تستقيم رعية في حال ايمان أو كفر بلا عدل قائم ولا ترتيب للامور ثابت فذلك ما لا يجوز ولا يمكن * وقد ذكرنا في أول الكتاب ان سليمان بن داود سلب ملكه حين جلس الخصمان بين يديه وكان لاحدهما خاصة بسليمان فقال في نفسه وددت أن يكون الحق لخاصتي فاقضي له فسلبه الله تعالى ملكه وقعد الشيطان على كرسيه فاجعل العدل رأس سياستك فتسقط عنك جميع الآفات المفسدة للسياسة وتقوم لك جميع الشرائط التي تقوم بها المملكة * قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه امام عادل خير من مطر وابل وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم وقال ابن مسعود اذا كان الامام عادلا فله الاجر وعليك الشكر وان كان جائرا فعليه الوزر وعليك الصبر * وقال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا الملك بناء والجند أساسه فاذا قوي الاساس دام البناء وان ضعف الاساس انهار البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بجباية ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل فصار العدل أساسا لسائر الاساسات * فاما العدل النبوي فأن يجمع السلطان الى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الادلاء على الله تعالى والقائمون بأمر الله والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله * وروى أبو هريرة ان النبي عليه السلام قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فاتخذ بها الملك العلماء شعارا والصالحين دثارا فتدور المملكة بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء وأخلق بالسيد ور بين هاتين الخصلتين ان تقوم عمده ويطول أمده وكيف لا وقد فرقهم الله في سلطانه واصطفاهم بخالص معرفته فقال جل من قائل شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط فبدأ بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأولي العلم وهم ورثة الانبياء عليهم السلام الموفقون عن الله تعالى لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ففي تعظيمهم وتقريبهم امتثال لامر الله تعالى وتعظيم لمن أثنى الله عليه ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عمن سواهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وفيه استمالة قلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته فواجب على السلطان أن لا يقطع امرا دونهم ولا يفصل حكما الا بمشاورتهم لانه في ملك الله يحكم وفي شريعته يتصرف وأول الواجبات على السلطان ان ينزل نفسه مع الله منزلة ولاته معه أليس اذا خالف واليه أمره ومارسمه له من الاحكام عزله وعاقبه ولم يأمن سطوته واذا امتثل أوامره

وازدجر من زواجره حل منه محل الرضا فوا عجبا لمن يغضب على واليه اذا خالفه ثم لا يخاف سطوة ربه عليه اذا خالفه فهذا طريق اقامة العدل الشرعى والسياسة الاسلامية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لازمة التدبير السالمة من العيوب الممهدة لاستقامة الدنيا والدين * وكما أن الملك الحازم لا يتم حزمه الا بمشاورة الوزراء والاخيار كذلك لا يتم عدله الا باستفتاء العلماء الابرار وقد وقع المأمون فى قصة متظلم من عمرو بن مسعدة يا عمرو اعمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها وفى اشاعة العدل قوة القلب وطيبة النفس ولزوم اليقين وامان من العدو ولما استأذن الهرمزان على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يجد عنده حاجبا ولا بوابا فقيل له هو فى المسجد فاتى المسجد فوجده مستلقيا متوسدا كوما من الحصباء ودرته بين يديه فقال له عدلت فامنت فنمت وقال الحسن رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد جمع الحصباء فى مسجد النبى عليه السلام عند رأسه وقد وضع احد جانبى ردائه عليه وهو يومئذ أمير المؤمنين ما عنده أحد من الناس ودرته بين يديه وكتب عامل حمص الى عمر بن عبد العزيز ان مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت الى اصلاح فكتب اليه عمر حصنها بالعدل ونق طرقها من الجور والسلام وقالت الحكماء من حرم العدل فلا خير فيه ولا للناس فى سلطانه وقال يحيى بن اكثم ماشيت المأمون فى بستان والشمس عن يسارى والمأمون فى الظل فلما رجعنا وقعت الشمس أيضا علىّ فقال لى المأمون تحول مكانى واتحول مكانك حتى تكون فى الظل كما كنت وأقيك الشمس كما وقيتنى فان أول العدل ان يعدل الرجل على بطانته ثم الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى فعزم علىّ فتحولت وكان يقال ليس شئ أبعد من بقاء ملك الغاصب وقيل للاسكندر لو أكثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحيا ذكرك فقال انما يحيى الذكر الافعال الجميلة والسيرة الحميدة ولا يحسن بمن يغلب الرجال ان تغلبه النساء وقال الحكيم من اتخذ العدل سنة كان له أحسن جنة ومن استشعر حلة العدل استكمل زينة الفضل وقال أبو عبيد ابن عبد الله بن مسعود ان الامام العادل ليسكت الاصوات عن الله وان الامام الجائر لتكثر منه الشكاية الى الله تعالى وقال الحكيم لا يزال السلطان مهملا حتى يتخطى الى أركان العمارة ومبانى الشريعة فينتقم الله منه وقالوا لا تظلم الضعفاء فتكون من لئام الاقوياء وقال بعض الحكماء أمير بلا عدل كغيم بلا مطر وعالم بلا ورع كأرض بلا نبات وشاب بلا توبة كشجر بلا ثمر وغنى بلا سخاء كقفل بلا مفتاح وفقير بلا صبر كسراج بلا ضوء وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح وقال كسرى اتفقت ملوك العجم على أربع خصال ان الطعام لا يؤكل الا على شهوة والمرأة لا تنظر الا الى زوجها والملك لا يصلحه الا الطاعة والرعية لا يصلحها الا العدل واحق الناس باجبار نفسه على العدل الملوك الذين يعدل لهم بعدل من دونهم والذين اذا قالوا وفعلوا كان نافذا غير مردود وقالت الحكماء من ماشيت بالانصاف وأنازعهم لك بالظفر به والظلم ادعى شئ الى تغيير نعمة أو تعجيل نقمة وقال الحكيم شر الزاد الى المعاد الذنب بعد الذنب وشر من هذا العدوان على العباد ومتى أراد السلطان حسن الصيت وجميل الذكر فليقم سوق العدل وان أحب الزلفى عند الله وشرف المنزلة عنده فليقم سوق العدل وان أحبهما جميعا فليقم سوق العدل والذى يخلد به ذكر الملوك على غابر الدهور عدل

واضح او جور فاضح هذا يوجب له الرحمة وهذا يوجب له اللعنة

(فصل) فاما القسم الثانى من العدل وهو السياسة الاصطلاحية وان كان أصلها على الجور فيقوم بها أمر الدنيا وكانها تشاكل مراتب الانصاف على نحو ما كانت عليه ملوك الطوائف فى أيام الفرس وكانوا كفارا يعبدون النيران ويتبعون هواجس الشيطان فواضعوا بينهم سننا واستوا لهم أحكاما وأقاموا لهم مراتب فى النصفة بين الرعايا واستجباء الخراجات وتوظيف المكوس على التجارات كل ذلك بعقولهم على وجوه ما أنزل الله بها من سلطان ولا نصب عليها من برهان بيد أنه لما جاءت الشريعة من عند الله تعالى على لسان نبيه صاحب المعجزة محمد صلى الله عليه وسلم فمنها ما اقرته فى نصابه ومنها ما سحته وابطلت حكمه فعادت الحكمة البالغة الى الله تعالى والحكم بما أنزل الله وبطل ما سواه وكان ملكهم محفوظا برعاياتهم للقوانين المالوفة بينهم فانقطع بذلك حبل الهمل فكانوا يقيمون بها واجب الحقوق ويتعاطون بها مالهم وعليهم ومن هذا كان يقال ان السلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الاصلاحية أبقى واقوى من السلطان المؤمن العدل فى نفسه المضيع للسياسة النبوية العدلية والجور المرتب ابقى من العدل المهمل اذ لا شئ أصلح لامر السلطان من ترتيب الامور ولا شئ أفسد له من اهمالها واعلم ان درهما يؤخذ من الرعية على وجه الاهمال والخرق وان كان عدلا افسد لقلوبها من عشرة تؤخذ منها سياسة على زمام معروف ورسم مالوف وان كان جورا فلا يقوم السلطان لاهل الايمان ولا لاهل الكفر ان الا باقامة العدل النبوى وأما بشبه العدل من الترتيب الاصطلاحى وقال ابن المقفع الملوك ثلاثة ملك دين وملك حزم وملك هوى فاما ملك الدين فانه اذا أقام لاهل المملكة دينهم كانوا راضين وكان الساخط فيه بمنزلة الراضى واما ملك الحزم فيقوم به الامر ولا يسلم من الطعن والسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى واما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر ولقد بلغنا أن ملكا من ملوك الهند نزل به صمم فاصبح متوجعا مهتما بامور المظلومين وانه لا يسمع استغاثتهم فامر منادية ان لا يلبس أحد فى مملكته ثوبا أحمر الا مظلوم وقال لئن منعت سمعى لم أمنع بصرى فكان كل من ظلم لبس ثوبا أحمر ووقف تحت قصره فيكشف عن ظلامته قال شيخنا واخبرنى ابو العباس الحجازى وكان ممن دخل الصين بسيرة عجيبة غريبة للملوك بها فى سياستهم وذلك ان للبيت الذى يكون فيه الملك ناقوسا موصولا بسلسلة وطرف السلسلة فى خارج الطريق وعليها امناء للسلطان وحفظة فيأتى المظلوم فيحرك السلسلة فيسمع الملك صوت الناقوس فيامر بادخال المظلوم فكل من حرك السلسلة تمسكه تلك الحفظة حتى تدخله على السلطان

(الباب الثانى عشر فى التنصيص على الخصال التى زعم الملوك انها ازالت دولتهم وهدمت سلطانهم)

ايها الملك احرص كل الحرص ان تكون خبيرا بامور عمالك فان المسئ يفرق من خبرتك به قبل ان تصيبه عقوبتك والمحسن يستبشر بعلمك به قبل ان ياتيه ثوابك قال أبو جعفر المنصور مازال امر بنى أمية مستقيما حتى افضى أمرهم الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم من عظيم شأن

الملك

الملك وجلالة قدره قصد الشهوات وايثار اللذات والدخول فى معاصى الله ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله تعالى وامنا المكره فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة قال عبد الله بن مروان ومروان هذا هو المعروف بمروان الحمار وهو آخر ملوك بنى أمية قتل فى أرض مصر فى كورة بوصير لما زال ملكنا وهربت الى أرض النوبة فمن اتبعنى من أصحابى فسمع ملك النوبة بخبرى فجاءنى فقعد على الارض ولم يقعد على فراش افترشته فقلت له الا تقعد على ثيابنا قال لا قلت ولم قال لانى ملك وحق على كل ملك ان يتواضع لامر الله سبحانه اذ رفعه ثم قال لى لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ولم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم ولم تستعملون الذهب والفضة وتلبسون الديباج والحرير وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك فقل انصارنا وانتصرنا بقوم من الاعاجم دخلوا بلادنا وانا عبيد واتباع فعملوا ذلك على كره منا فاطرق مليا يقلب كفيه وينكت فى الارض ثم قال ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها وأخاف ان يحل بكم العذاب وانتم ببلدى فيصيبنى معكم واعا الضيافة ثلاثة أيام فتزودوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى فتزودنا وارتحلنا وسئل بزرجمهر ما بال ملك آل ساسان صار الى ما صار اليه بعد ما كان فيه من قوة السلطان وشدة الاركان فقال ذلك لانهم قلدوا كبار الاعمال صغار الرجال وعن هذا قالت الحكماء موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة وفى الامثال ان زوال الدول باصطناع السفل وقال الشافعى رضى الله عنه اظلم الناس لنفسه اللئيم اذا ارتفع جفا اقاربه وانكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوى الفضل وسئل بعض الملوك بعد زوال ملكه ما الذى سلبك ملكك قال اعطاؤنا من بطروطغى ورفع عمل اليوم لغد وسئل بعض الملوك بعد ان سلبوا ملكهم ما الذى سلب عزكم وهدم ملككم فقال شغلتنا لذاتنا عن التفرغ لمهماتنا ووثقنا بكفاتنا فآثروا مرافقتهم علينا وظلم عمالنا رعيتنا فانفسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا وحمل على أهل خراجنا فقل دخلنا وبطل عطاء عبيدنا فزالت الطاعة منهم لنا وقصدنا عدونا فقل ناصرنا وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الاخبار عنا وقالت الحكماء أسرع الخصال فى هدم السلطان وأعظمها وأسرعها فى افساده وتفريق الجمع عنه اظهار المحاباة لقوم دون قوم والميل الى قبيلة دون قبيلة فمتى أعلن بحب قبيلة فقد برئ من قبائل وقديما قيل المحاباة مفسدة وقال مهبوذ الموبذان من زوال السلطان تقريب من ينبغى ان يباعد ومباعدة من ينبغى ان يقرب وحسن شدحان أوان الغدر وقيل لملك بعد ذهاب ملكه ما الذى أذهب ملككم قال ثقتى بدولتى واستبدادى بمعرفتى واغفالى استشارتى واعجابى بشدتى واضاعتى الحيلة وقت حاجتى والتانى عند العجلة ولما أحيط بمروان الجعدى وهو آخر ملوك بنى أمية قال لهفاه على دولة ما نصرت وكف ما ظفرت ونعمة ما شكرت فقال له خادمه نسيل وكان من أولاد اشراف الروم من أغفل الصغير حتى يكبر والقليل حتى يكثر والخفى حتى يظهر اصابه مثل هذا وسئل بعض العلماء ما الذى أذهب ملك بنى مروان قال تحاسد الاكفاء وانقطاع الاخبار وذلك ان زيد بن عمر كان يحب أن يضع من نصر بن سيار وكان لا يمده بالرجال ولا يرفع الى السلطان ما يورده عليه من أخبار خراسان فلما رأى ذلك نصر

ابن سيار قال

أرى خلل الرماد وميض نار * فيوشك ان يكون لها ضرام
وان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أولها الكلام
فقلت تعجباً ياليت شعري * أأيقاظ أمية أم نيام

وكان العباسيون يؤسسون لدولتهم ولا تصل اخبارهم الى بنى أمية حتى استفحل أمرهم وضعف امر بنى أمية وسئل مروان بن محمد الجعدي وهو آخر ملوك بنى أمية ما الذى أضعف ملكك بعد قوة السلطان وثبات الاركان فقال الاستبداد برأيي لما كثرت على كتب نصر بن سيار ان أمده بالاموال والرجال قلت فى نفسى هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال بما يظهر من فساد الدولة قبله وهيهات ان ينتقض على خراسان فانتقضت دولته من خراسان

* (الباب الثالث عشر فى الصفات الرابعة التى زعم الحكماء انه لا تدام معها المملكة) *

ومن أعجب العجاب دوام الملك مع الكبر والاعجاب اعلموا ان الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة والمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتادبين وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التاديب والكبر يكسب المقت ويمنع من المسئلة وكل كبر ذكره الله فى القرآن مقرون بالشرك ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم للعباس انهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله سبحانه يغضب منهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الافضل حق لم يدر صاحبه اين يذهب به فصرفه الى الكبر وقال الاحنف بن قيس ما تكبر احد الا من ذلة يجدها فى نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتانف منه قال الشاعر

فتى كان عذب الروح لا من خصاصة * ولكن كبرا ان يقال به كبر

ونظر افلاطون الى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت انى مثلك فى ظنك وان أعدائى مثلك فى الحقيقة قالت الحكماء قد يدوم الملك مع معظم النقائص فرب فقير ساد قومه ورب أحمق ساد قبيلته منهم الاقرع بن حابس الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الاحمق المطاع قالوا ولا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب السيادة واعظم من ذلك ان الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال سبحانه وتعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد ومنعهما من دخول الجنة وقال جل وعز ساصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وقال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا الا تحوّل داؤه فى يعنى انى أتكبر عليه واعلم ان الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله ومن أبغضته بطانته كان كمن غص بالماء ومن كرهه الحماة تطاولت عليه الاعداء واما الاعجاب فيحمله على الاستبداد وترك مشورات الرجال ومن الصفات التى لا تقوم معها المملكة الكذب والغدر والخبث والجور والسخف وقالت حكماء العرب والعجم ست خصال لا تغتفر من السلطان الكذب والخلف والحسد والحدة والبخل والجبن فانه اذا كان كذابا لم يوثق بوعده ولا بوعيده فلم يرج خيره ولم يخف شره ولا بهاء لسلطان لا يرهب وقال الحكماء خراب البلاد وفساد العباد مقرونان بابطال الوعد والوعيد من الملوك والكذب اسقط

الاخلاق واغلب شئ على صاحبه وأحرى ان لا ينزع عنه لضراوته وقيل لاعرابى لم تكذب قال لو تعززت به ما تركته وهو نوع من الفحش وضرب من الدناءة وأصله استعذاب المنى وهو أضغاث فكر الحمق ومن بليته انه يحمل على صاحبه ذنب غيره فاذا سمعت كذبة طائحة نسبت اليه قال الشاعر

حسب الكذوب من المها * نة بعض ما يحكى عليه
واذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

(وقال غيره)

لى حيلة فيمن ينم وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو * ل فحيلتى فيه قليله

وقال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله واما الحسد فانه اذا كان حسود الم يشرف أحدا واذا ضاعت الاشراف هلكت الاتباع ولا يصلح الناس الا على اشرافهم قال الشاعر

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

واما البخل فاذا كان بخيلا لم يناصحه أحد ولا تصلح الولاية الا بالمناصحة وليس للملك ان يبخل لان بيوت الاموال فى يديه واما الجبن فاذا كان جبانا اجترأ عليه عدوه وضاعت ثغوره واذا كان حديدا غضوبا والقدرة من ورائه هلكت رعيته وليس للملك ان يغضب لان القدرة من وراء حاجته ولما دخل اسقف نجران على مصعب بن الزبير ضرب وجهه بالقضيب فادماه فقال الاسقف ان شاء الامير أخبرته بما أنزل الله على عيسى عليه السلام قال قل قال لا تغضب بعدها قال هات قال لا ينبغى للامام ان يكون سفيها ومنه يلتمس الحلم ولا جائرا ومنه يلتمس العدل وقال الاوزاعى يهلك السلطان بالاعجاب والاحتجاب فاما الاعجاب فقد ذكرناه واما الاحتجاب فهو أوحى الخلال فى هدم السلطان وأسرعها خرابا للدول فانه اذا احتجب السلطان فكانه قد مات لان الحجبة موت حكمى فتعبث بطانته بارواح الخلائق وحريمهم وأموالهم لان الظالم قد أمن ان لا يصل المظلوم الى السلطان ومعظم ما رأينا فى أعمارنا وسمعنا عمن سمعنا من دخول الفساد على الملوك من حجبتهم عن مباشرة الامور ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا الى سلطانهم فاذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة يا أيها الملك المغرور احتجبت عن الرعية بالحجاب والابواب وجعلت دونهم بروجا مشيدة وحفائر بالحجارة والماء والطين مانعة وباب الله مفتوح للسائلين ليس هناك لا حاجب ولا بواب قال الله تعالى الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا وقال معاوية ليس بين ان يملك السلطان رعيته أو تملكه الا الحزم والتوانى وكماله امران شدة فى غير افراط ولين فى غير امتهان وسئل بزرجمهر أى الملوك أحزم قال من ملك جده هزله وقهر لبه هواه وأعرب عن ضميره فعله ولم يختدعه رضاه عن حظه ولا غضبه عن كيده وقال بعض الحكماء زوال الدول فى اصطناع السفل ومن طال عدوانه زال سلطانه وقالوا من لم يستظهر باليقظة لم ينتفع بالحفظة وقال يحيى بن خالد أحسن ما وجدت فى طراز الحكم من البلاغة البخل والجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر فيا لها حسنة غطت على سيئتين ويا لها

(الباب الرابع عشر في الخصال المحمودة في السلطان)

وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا أيها الملك ان قصرت قوتك عن عدوك فتخلق بالاخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها فانها الكفاية من الغارة الشعواء وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال كان عالما برعيته عادلا في قضيته عاريا من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب رفيقا بالضعيف غير محاب للقوي ولا جاف للقريب وقالوا المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الالفة والصدق يوجب الثقة والامانة توجب الطمانينة والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب المقة والجود يوجب الحمد والبخل يوجب المذمة والتواني يوجب التضييع والجد يوجب رجاء الاعمال والهويني توجب الحسرة والحزم يوجب السرور والتغرير يوجب الندامة والحذر يوجب العذر واصابة التدبير توجب بقاء النعمة وبالتاني تسهل المطالب وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة وبخفض الجانب تأنس النفوس وبسعة خلق المرء يطيب عيشه والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة وعدل المنطق يوجب الجلالة وبالنصفة تكثر المواصلة وبالافضال يعظم القدر وبصالح الاخلاق تزكو الاعمال وباحتمال المؤن يجب السودد وبالحلم عن السفيه تكثر انصارك عليه وبالرفق والتؤدة تستحق اسم الكرم وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل واعلم ان السياسة تكسو أهلها المحبة والفظاظة تخلع عن صاحبها ثوب القبول ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة والنظر في العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن خاف حذر ومن اعتبر ابصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن أطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التاني السلامة زارع البر يحصد السرور صاحب العاقل مغبوط صديق الجاهل تعب اذا جهلت فاسال واذا زللت فارجع واذا أسات فاندم واذا ندمت فاقلع واذا افضلت فاكتم واذا منعت فاجمل واذا أعطيت فاجزل واذا غضبت فاحلم من بدأك ببره فقد شغلك بشكره المروآت كلها تبع للعقل الرأي تبع للتجربة العقل أصله التثبت وثمرته السلامة والتوفيق أصله العقل وثمرته النجح والتوفيق والاجتهاد زوجان فالاجتهاد سبب والتوفيق يجح الاجتهاد قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والاعمال كلها تبع للمقدور واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب من التوراة من قنع شبع ومن الزبور من سكت سلم ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن القرآن ومن اعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجهل سفه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب الى فعله ومأخوذ بعمله اصطناع المعروف يكسب الحمد أكرموا الجليس يعمر ناديكم أنصفوا من نفوسكم يوثق بكم اياكم والاخلاق الدنيئة فانها تضيع الشرف وتهدم المجد نهمة الجاهل أهون من جريرته رأس العشيرة يحمل اثقالها واجمعت

حكماء العرب والعجم على أربع كلمات لاتحمل بطنك مالا تطيق ولا تعمل عملا لاينفعك ولا تغتر بامرأة ولا تثق بمال وان كثر

(الباب الخامس عشر فيما يعز به السلطان)

وهي الطاعة قال ملك فارس لموبذان موبذ ماشئ واحد يعز به السلطان قال الطاعة قال فما ملاك الطاعة قال التودد الى الخاصة والعدل على العامة قال صدقت الامانة مع مثل الطاعة والطاعة زينة الملك وكان يقال طاعة السلطان على أربعة أوجه على الرغبة والرهبة والمحبة والديانة ولما دخل سعد العشيرة على بعض ملوك حمير قال له ياسعد ماصلاح الملك قال معدلة شائعة وهيبة وازعة ورعية طائعة فان فى المعدلة حياة الانام وفى الهيبة نفى الظلام وفى طاعة الرعية التألف والالتئام طاعة الائمة فرض على الرعية كما أن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله اتقوا الله بحقه والسلطان بطاعته من اجلال الله اجلال السلطان عادلا كان أو جائرا الطاعة تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين عصيان الائمة يهدم أركان الملة أولى الناس بطاعة السلطان ومناصحته أهل الدين والنعم والمروآت اذلا يقوم الدين الا بالسلطان ولا تكون النعم والحرم محفوظة الا به الطاعة ملاك الدين الطاعة معاقد السلامة وارفع منازل السعادة الطريقة المثلى والعروة الوثقى قوام الامة وقيام السنة بطاعة الائمة الطاعة عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة طاعة الائمة عصمة لمن لجأ اليها وحرز لمن دخل فيها وليس للرعية ان تعترض على الائمة فى تدبيرها وان سولت لها أنفسها بل عليها الانقياد وعلى الائمة الاجتهاد بالطاعة تقوم الحدود وتؤدى الفرائض وتحقن الدماء وتامن السبل الامامة عصمة للعباد وحياة للبلاد أوجب الله لمن خصه بفضلها وجعلها عبادها الطاعة فقرنها بطاعته وطاعة رسوله فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم طاعة الائمة هدى لمن استضاء بنورها وموئل لمن حافظ عليها الخارج من الطاعة منقطع العصمة برىء من الذمة مبدل بالكفر النعمة طاعة الائمة حبل الله المتين ودينه القويم وجنته الواقية وكفايته العالية اياكم والخروج عن أنس الطاعة الى وحشة المعصية ولاتسروا غش الائمة وعليكم بالاخلاص والنصيحة مامشى قوم الى سلطان ليذلوه الا اذلهم الله قبل ان يموتوا الطاعة مقرونة بالمحبة طاعة المحبة أفضل من طاعة الهيبة للرعية على السلطان الاستصلاح لهم والتعهد لامورهم وحسن السيرة فيهم والعدل عليهم والتعديل بينهم وحق السلطان عليهم الطاعة والاستقامة والشكر والمحبة بالرعية من الحاجة الى الراعى ماليس بالراعى من الحاجة اليهم لولا الرعاة هلكت الرعية ولولا المسيم هلكت السوائم

(الباب السادس عشر فى ملاك أمور السلطان)

قال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك وقال زياد ملاك السلطان ثلاثة أشياء الشدة على المذنب والمجازاة للمحسن وصدق القول ولما غزا سابور ذو الاكتاف ملك الروم وأخرب بلاده وقتل جنده وافنى بطارقته قال له ملك الروم انك قد قتلت وأخربت فاخبرنى ما الامر الذى تشبثت به حتى قويت على ما أرى وبلغت فى السياسة مالم يبلغه ملك قال

كان مما ضبط الامر به اذا دبت اليك الخراج وصرت كبعض الرعية في الطاعة لك فقال له سابور انى لم أزد في السياسة على ثمان خصال لم أهزل في أمر ولا نهى ولم أخلف في وعد ولا وعيد ووليت أهل الكفاية وأثبت على العناء لا على الهوى وضربت للادب لا للغضب واودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة والهيبة من غير ضغينة وعممت بالقوت ومنعت الفضول فأذعن له وأدى اليه الخراج وكتب الوليد الى الحجاج ان يكتب له بسيرته فكتب اليه انى أيقظت رأيى وأنمت هواى وأدنيت السيد المطاع فى قومه ووليت الحرب الحازم فى أمره وقلدت الخراج الموفى لامانته وقسمت لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظا من نظرى ولطف عنايتى وصرفت السيف الى البطر والمسىء فخاف المذنب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب وقال أبو عبيدة اذا كان الملك محصنا لسره بعيدا من أن يعرف ما فى نفسه متخيرا للوزراء مهيبا فى أنفس العامة مكافئا بحسن البلاء لا يخافه البرىء ولا يأمنه المجرم كان خليقا ببقاء ملكه

(الباب السابع عشر فى خير السلطان وشر السلطان)

افضل الملوك من كان شكره بين الرعايا لكل واحد منهم فيه قسط ليس احد احق به من احد لا يطمع القوى فى حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله كان النبى صلى الله عليه وسلم تأخذ بيده الامة من اماء المدينة فتطوف به على سكك المدينة حتى تقضى حاجتها وفى حكم الهند افضل السلطان من امنه البرىء وخافه المجرم وشر السلطان من خافه البرىء وامنه المجرم وقال عمر للمغيرة لما ولاه الكوفة يا مغيرة ليأمنك الابرار وليخفك الفجار وفى حكم الهند ايضا شر المال ما لا ينفق منه وشر الاخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البرىء وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا امن وخير السلطان من اشبه النسر وحوله الجيف لا من اشبه الجيفة وحولها النسور وعن هذا المعنى قالوا سلطان تخافه الرعية خير للرعية من سلطان يخافها وفى الامثال العامة رهبوت خير لك من رحموت وكان يقال شر خصال الملوك الجبن عن الاعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عند الاعطاء وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثلاثة من الفواقر جار ملازم ان راى حسنة سترها وان راى سيئة اذاعها وامرأة ان دخلت عليها السنتك وان غبت عنها لم تأمنها وسلطان ان احسنت لم يحمدك وان اسات قتلك وقال رجل لبعض العلماء متى اضل وانا اعلم فقال اذا ملكتك امراء ان اطعتهم اذلوك وان عصيتهم قتلوك وقال ابو حازم لسليمان بن عبد الملك السلطان سوق ما نفق عنده اتى به وفى كتاب ابن المقفع الناس على دين الملك الا القليل فان يكن للبر والمروءة عنده نفاق فسيكسد بذلك الفجور والدناءة فى آفاق الارض وسمع زياد رجلا يذم الزمان فقال لو كان يدرى ما الزمان لعاقبته ان الزمان هو السلطان وقال معاوية لابن الكواء صف لى الزمان فقال انت الزمان ان تصلح يصلح وان تفسد يفسد والمثل السائر فى كل زمان وعلى كل لسان الناس على دين الملك وقال بعض الحكماء ان احق الناس ان يحذر العدو الفاجر والصديق الغادر والسلطان الجائر وقال بزرجمهر أدوم التعب صحبة السلطان السيئ الخلق وقال بعض الحكماء اذا ابتليت بصحبة سلطان لا يريد صلاح رعيته فقد خيرت بين امرين ليس بينهما خيار اما الميل مع الوالى على الرعية فهو

هلاك الدين واما الميل مع الرعية على الوالى فهو هلاك الدنيا فلا حيلة لك الا الموت او الهرب منه وقالوا الملك العادل كالنهر الصافى ينتفع به الاشرار والاخيار ولا يضر احدا والملك السوء مثل الجيفة يسرع اليها شرار الحيوان ويتحاماها الناس

(الباب الثامن عشر فى منزلة السلطان من القرآن)

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليزعى بالسلطان مالا يزعى بالقرآن معناه اى يدفع وقال كعب مثل الاسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والاطناب والاوتاد فالفسطاط الاسلام والعمود السلطان والاطناب والاوتاد الناس لا يصلح بعضهم الا ببعض وقال اردشير لابنه يابنى ان الملك والدين اخوان لا غنى لاحدهما عن الآخر فالدين اس والملك حارس ومالم يكن له اس فهو مهدوم ومالم يكن له حارس فضائع يابنى اجعل حديثك مع اهل المراتب وعطيتك لاهل الجهاد وبشرك لاهل الدين وسرك لمن عناه ما عناك ولكن من اهل العقل وكان يقال الدين والسلطان توامان

(الباب التاسع عشر فى خصال جامعة لامر السلطان)

قالوا ظفر الملك بعدوه على حسب عدله فى رعيته ونكوبه فى حروبه على حسب جوره فى عساكره واصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود وقالوا تاج الملك عفافه وحصنه انصافه وسلاحه كفافه وماله رعيته وقالت حكماء الهند لا ظفر مع بغى ولا صحة مع نهم ولا ثناء مع كبر ولا شرف مع سوء أدب ولا بر مع شح ولا اجتناب محرم مع حرص ولا ولاية حكم مع عدم فقه ولا سودد مع انتقام ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وزارة ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه خطب فقال أيها الناس انه لا أحد أقوى عندى من المظلوم حتى آخذ له بحقه ولا أضعف من الظالم حتى آخذ الحق منه وقيل للاسكندر بم نلت ما نلت قال باستمالة الاعداء والاحسان الى الاصدقاء وقال بزرجمهر سوسوا احرار الناس بمحض المودة والعامة بالرغبة والرهبة والسفلة بالمخافة وقال الموبذان السياسة التى بها صلاح الملك الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم فى غير مشقة وسد الفروج وأمن السبل وان ينصف المظلوم من الظالم ولا يحمل القوى على الضعيف وقالوا الوالى من الرعية كالروح من الجسد لا حياة له الا به وبعد الوالى من اصلاح الرعية مع افساد نفسه كبعد الجسد مع البقاء بعد ذهاب الرأس والسلطان خليق أن يعوّد نفسه الصبر على من خالف رأيه من ذوى النصيحة والتجرع لمرارة قولهم ولا ينبغى أن يحسد الا على حسن التدبير ولا ان يكذب لان أحدا لا يقدر على استكراهه ولا أن يغضب لان الغضب والقدرة لقاح الشر والندامة ولا أن يبخل لانه أقل الناس خوفا من الفقر ولا أن يحقد لان قدره جل عن المجازاة ولا ينبغى للوالى أن يستعمل سيفه فيما يكتفى فيه بالسوط ولا سوطه فيما يكتفى فيه بالحبس ولا حبسه فيما يكتفى فيه بالجفاء والوعيد وقال معاوية انى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها ونحو هذا قول الشعبى كان معاوية كالجمل الطب والجمل الطب هو الحاذق بالشئ لا يضع يده الا حيث تبصر عينه وينبغى له أن يعلم رعيته أنه لا يصاب خيره الا بالمعونة له على الخير ولا ينبغى له أن يدع تفقد لطيف أمور الرعية

اتكالا على نظره فى جسيمها فان اللطيف موقعا ينتفع به وقد آتى الله ملك الدنيا سليمان بن داود عليهما السلام ثم تفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد لان التهاون باليسير أساس الوقوع فى الكبير وقد قال الشاعر

لا تحقرن شبيبا * كم جر شر اشبيب

وقالوا أصل الاشياء كلها شئ واحد ولا تدع مباشرة جسيم أمره فالجسيم موضع ان غفل عنه تفاقم ولا يلزم نفسه مباشرة الصغير أبدا فيضيع الكبير وقال زياد لحاجبه وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع المؤذن للصلاة وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد سخنه فسد وصارخ الليل لشر دهاه وصاحب البريد فالتهاون بالبريد ساعة يخرب عمل سنة وكان أبو العباس السفاح يقول لاعمان اللين حتى لا ينفع الا الشدة ولا كثرن من الخاصة ما أمنتهم على العامة ولاغمدن سيفى حتى يسله الحق ولاعطين حتى لا أرى للعطية موضعا وقال أردشير لما كمل ملكه وأباد أعداءه انه لم يحكم حاكم على العقول كالعبر ولم يحكمها محكم كالتجربة وليس شئ أجمع للعقل من خوف وحاجة يتأمل بهما صفحات حاله وكان عمر يقول ان هذا الامر لا يصلح له الا اللين فى غير ضعف والقوة فى غير عنف وقال الاصمعى قال لى الرشيد هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الاخلاق يقل لفظها ويسهل حفظها تكون لاغراضها التقا ولمقاصدها وفقا تشرح المستبهم وتوضح المستعجم قلت نعم يا أمير المؤمنين دخل أكثم بن صيفى حكيم العرب على بعض ملوكها فقال له انى سائلك عن أشياء لا تزال بصدرى مختلجة وما تزال الشكوك عليها والجة فأنبئنى بما عندك فيها فقال أيت اللعن سألت خبيرا واستنبأت بصيرا والجواب يشفعه الصواب فسل عما بدا لك قال ما السودد قال اصطناع المعروف عند العشيرة واحتمال الجريرة قال فما الشرف قال كف الاذى وبذل الندى قال فما المجد قال حمل المغارم وابتناء المكارم قال فما الكرم قال صدق الاخاء فى الشدة قال فما العز قال شدة العضد وكثرة العدد قال فما السماحة قال بذل النائل وحب السائل قال فما الغنى قال الرضا بما يكفى وقلة التمنى قال فما الرأى قال لب تعينه تجربة قال له الملك أوريت زنادى بصيرتى وأذكيت نار حيرتى فاحتكم قال لكل كلمة هجمة قال هى لك قال الاصمعى فقال لى الرشيد ولك بكل كلمة بدرة فانصرفت بثمانين ألفا وكان قس بن ساعدة يفد على قيصر فيكرمه فقال له يوما ما أفضل العقل قال معرفة الرجل بنفسه قال ما أفضل العلم قال وقوف الرجل عند علمه قال فما أفضل المروءة قال استبقاء الرجل ماء وجهه قال فما أفضل المال قال ما قضى به الحقوق

(الباب الموفى عشرين فى الخصال التى هى أركان السلطان)

قال أبو جعفر المنصور ما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة لا يكون على بابى أعف منهم قيل من هم يا أمير المؤمنين قال هم اركان الملك لا يصلح الملك الا بهم كما أن السرير لا يصلح الا بأربع قوائم فان نقص قائمة واحدة عابه ذلك أحدهم قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى غنى عن ظلمهم ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه آه قال من هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة وقال عمر بن الخطاب

رضى

رضى الله عنه لا يصلح الوالى الا بأربع خصال ان نقصت واحدة لم يصلح له آمر ولا نهى قوة على جمع المال من أبواب حله ووضعه فى حقه وشدة لا جبروت فيها ولين لا وهن فيه

(الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم)

قال ابن المقفع اذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك فان زوال الكرامة بزوالهما ولكن يعجبك ان أكرموك لادب أو علم أو دين * اعلم أرشدك الله أن أكثر الناس حاجة الى التفقه أكثرهم عيالا واتباعا وحشما وأصحابا والخلق مستمدون من السلطان ماله من الخلائق السنية والطرائق العلية مفتقرون اليه فى الاحكام وقطع التشاجر وفصل الخصام فهو أحوج خلق الله الى معرفة العلوم وجمع الحكم وشخص بلا علم كبلد بلا أهل وأفضل ما فى السلطان خصوصا وفى الناس عموما محبة العلم والتحلى به والشوق الى استماعه والتعظيم لحملته فان ذلك دليل على قوة الانسانية فيه وبعده من البهيمة ومضاهاته للعالم العلوى وهو من أوكد ما يتحبب به الى الرعية واذا كان الملك خاليا من العلوم ركب هواه وأضر برعيته كالدابة بلا رسن تمر فى غير طريق وقد تتلف ما تمر به * واعلم أن زهر الفضائل وحسن المناقب وبهاء المحاسن وما ضاد ذلك من قبح المثالب وخش الرذائل كل ذلك يظهر عليك ويعظم منك بقدر ما أوتيته من علو المنزلة وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن كما يكون قبحك أقبح وليس أحد من أهل الدرجات السنية والمراتب العلية أحوج الى مجالسة العلماء ومحبة الفقهاء ودراسة كتب العلوم والحكم ومطالعة دواوين العلماء ومجامع الفقهاء وسير الحكماء من السلطان وانما كان كذلك من وجهين * أحدهما انه قد نصب نفسه لممارسة أخلاق الناس وفصل خصوماتهم وتعاطى حكوماتهم وكل ذلك يحتاج الى علم بارع ونظر ثاقب وبصيرة بالعلم قوية ودراسة طويلة فكيف يكون حاله لو لم يعد لهذه الامور عدتها ولم يقدم لها أهبتها والثانى أن من سواه من الناس لا يعدمون من يشكر عليهم ويعارضهم ويذكرهم مساويهم ويخالفهم فى مذاهبهم فيكون ذلك مما يعينهم على رياضة أنفسهم وتعلم مراشدهم ومناظرة الاكفاء ومعاشرة النظراء تلقيح العقول وتهذيب النفوس وتدريب لمأخذ الاحكام بخلاف السلطان فان ارتفاع درجته يقطع عنه جميع ذلك اذ لا يلقاه ولا يجالسه الا معظم لقدره مبجل لشأنه وساتر لمساويه ومادح له بما ليس فيه وانما جوابه لهم صدق الامير وعلى قدر المرتبة يكون علو السقطة كما ان على قدر ارتفاع الحائط يكون صوت الوجبة

(فصل) يا أيها الملك ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد دون أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد أجل قدرا من أن يقبل أمر الله ولا أرفع خطرا من أن يتعلم حكم الله ولا أعلى شأنا من أن يتصف بصفات الله ومن صفات الله العلم الذى وصف به سبحانه نفسه ومدح به نبيه فقال تعالى وسع كرسيه السموات والارض والكرسى هو العلم والكراسى هم العلماء واذا كان العلم فضيلة فرغبة الملوك وذوى الاخطار والاقدار والاشراف والشيوخ فيه أولى لان الخطأ فيهم أقبح والابتداء بالفضيلة فضيلة (حكى) أن ابراهيم بن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال يا عم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا فى الصغر

واشتغلنا فى الكبر فقال المأمون لم لاتتعلم اليوم فقال أو يحسن بمثلى طلب العلم فقال نعم والله لأن تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بى العلم قال ما حسنت بك الحياة * وروى أن بعض الحكماء رأى شخصا يطلب العلم ويحب النظر فيه ويستحى فقال يا هذا أتستحى أن تكون فى آخر عمرك أفضل مما كنت فى أوله ولان الصغير أعذر وان لم يكن فى الجهل عذر * وفى منثور الحكم جهل الشباب معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما كان الصغير أفضل منه لان الامل فيه أقوى وحسبك نقيصة فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل أفضل منه وكما ذكرنا من حاجة الشيخ الى العلم فحاجة السلطان اليه أكثر ودواعيه الى اكتسابه أشد لان من عداه انما تخصه نفسه الواحدة فيقرب عليه تحصيل ما يقومها به والملك منتصب لسياسة أهل مملكته وتعليمهم وتقويم أودهم فهو الى العلم أحوج قال الشاعر

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل فى الانسان سميته طفلا
وما تنفع الاعوام حين تعدها * ولم تستفد فيهن علما ولا عقلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذى جهل كأن به جهلا

وقال بعض الحكماء كل عز لا يوطده علم مذلة وكل علم لا يؤكده عقل مضلة وكيف يستنكف ملك أو ذو منزلة عالية عن طلب العلم وهذا موسى عليه السلام ارتحل من الشام الى مجمع البحرين فى أقصى المغرب على بحر الظلمات الى لقاء الخضر ليتعلم منه فلما ظفر به قال هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا هذا وهو نبى الله وكليمه وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته من جميع خلقه قد أوصاه ربه وعلمه كيف يستنزل ما فى خزائنه فقال وقل رب زدنى علما فلو كان فى خزائنه أشرف من العلم لنبهه عليه وهذا آدم عليه السلام لما فخرت الملائكة بتسبيحها وتقديسها ربها افتخر آدم بالعلم فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين فلما عجزوا أمرهم بالسجود له وأخلق بخصلة تستدعى السجود لحاملها أن يتنافس فيها كل ذى لب وهذا فصل الخطاب لمن تدبره ولا تصبين لك عذرا علو روى فى بعض الاخبار مثل الذى يتعلم العلم فى الصغر كالوشم على الصخر والذى يتعلم فى الكبر كالنقش على الماء وقد سمع الاحنف رجلا يقول التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر فقال الكبير أكبر عقلا ولكنه أشغل قلبا ففحص عن المعنى ونبه عن العلة * وقد كان أصحاب النبى عليه السلام يسلمون شيوخا وكهولا وأحداثا وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن وهم بحور العلم وأطواد الحكم والفقه غير أن العلم فى الصغر أرسخ أصولا وأبسق فروعا وليس اذا لم يحوزه يفوته كله * قال رجل لابى هريرة رضى الله عنه انى أريد ان أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال أبو هريرة كفى بتركك له تضييعا وبعض الخير خير من كل الشر وانما مثل الجاهل تحت عبء الجهل مثل الحمال تحت حمل ثقيل فانه كلما أعيا نقصه قليلا قليلا يوشك أن ينقصه كله فيستريح منه وان هو لم يطرح القليل حتى يطرح الكثير فما أوشكه أن يصرعه حمله وكذلك الجاهل اذا تعلم قليلا قليلا يوشك أن يأتى على بقيته وان لم يتعلم فى الكبر لما فاته فى الصغر فما أوشكه به أن يموت تحت عبء الجهل

(الباب الثانى والعشرون فى وصية على أمير المؤمنين على بن أبى طالب)

رضى

رضى الله عنه لكميل بن زياد فى العلم وأهله قال كميل بن زياد النخعى خرجت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه الى الجبانة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال يا كميل بن زياد ان القلوب اوعية فخيرها اوعاها للخير احفظ عنى ما اقول لك الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيؤا بنور العلم ولم يلجؤا منه الى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزكو على الانفاق والمال تنقصه النفقة والعلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العالم دين يدان الله به يكسبه الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته مات خزان الاموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر أشخاصهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ها ان ههنا وأشار بيده الى صدره لعلما جما لو أصبت له حملة بلى قد أصبت له لقنا غير مامون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه أو كما قال وبنعمته على عباده أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له فى احنائه ينقدح الشك فى قلبه باول عارض من شبهة الا لا ذا ولا ذاك أو منهوما باللذات سريع الانقياد للشهوات أم آخر شانه جمع المال والادخار ليسا من رعاة الدين أقرب شبها بهما الانعام السائمة اللهم فكذلك يموت العلم بموت حامليه ولكن ان تخلو الارض من قائم لله سبحانه بحجة لئلا تبطل حجج الله وبيناته ومن أولئك وأين أولئك أولئك الاقلون عددا الاكثرون عند الله قدرا تخزن الحكمة فى قلوبهم حتى يزرعوها فى قلوب أشباههم ويودعوها فى صدور نظرائهم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوحشه المترفون واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا باجساد أرواحها متعلقة بالمحل الاعلى أولئك خلفاء الله فى بلاده ودعاته الى دينه آه شوقا الى رؤيتهم

(الباب الثالث والعشرون فى العقل والدهاء والخبث)

قد ذكرت فى كتاب الاسرار حقيقة العقل وأقسامه ومحله وأحكامه بما لا مزيد عليه ونذكر ههنا منافعه ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه انه الاستشهاد بالشاهد على الغائب فمن كان فى طوقه ان يستدل بما شاهد على ما غاب عنه كان معه عقل ويسمى عاقلا عند الموحدين وبه يتوجه التكليف عليه وذلك ان من نظر الى قصر قد كمل بنيانه وحصنت أركانه وجعلت فيه من الآلات ما يكتفى به ساكنوه فاشرف عليه انسان فرأى بيوتا مقطوعة وأبوابا منصوبة وفرشا مفروشة وزرابى مبثوثة وموائد موضوعة وصحافا مصفوفة وأرائك منصوبة وحجلا مشدودة وطسوتا وأباريق وبيوت ماء وميازيب تصب الماء وتحتها بلاليع لغيض الماء الى سائر ما يستعده العقلاء للانتفاع ثم فكر هل هذا القصر بما حواه صنعة قادر صانع عالم حى أو اتفق لنفسه وتركب على صورته بلا صانع فيستقر فى عقله بالضرورة استحالة وجوده من غير صانع وانه مفتقر الى صانع صنعه وهذا علم يهجم على العقول لا يفتقر الى نظر واستدلال وانما ذكرت لك هذه الامثلة لان ما فى الانسان من الاعضاء ولطيف الصنعة والعجائب أكثر مما فى القصر باضعاف مضاعفة فاذا نظر الى ما فى نفسه فرأى فيها من العجائب والتركيب ومنفعة كل عضو وتخصيصه اما بجلب نفع أو دفع ضرر فان تم نظره فى عضو واحد مثلا وهو فمه فيرى فى

أوله اسنانا تشبه الفاس تصلح للقطع وفى آخره طواحين ضرسية تصلح للطحن وشدقين كأنهما ثفال الرحى يمنعان ان ينثر الطعام الى خارج ولسانا يرد ما انقلب من الطعام اليه على الطواحين ثم يلى ذلك بلعوم لازدراده بعد الطحن علم بادنى تامل ان هذه الخلقة ما انفعلت بنفسها اتفاقا بل هى مفتقرة الى قصد قاصد وجعل جاعل وعلى هذا النمط لو ذهبنا نذكر منفعة كل عضو لوقفت على العجب ولكن تركناه كراهية التطويل وعلى هذا المعنى نبه الكتاب المهين فقال تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون وبهذه العبرة تستقل العقول باثبات الصانع وتستغنى عن النظر فى الجواهر والاعراض فالعلم المفيد لاثبات الصانع فى الشاهد مثل البناء والنجار والخياط وأشباههم بعد النظر فى صناعتهم على اضطرار والعلم المثبت للصانع سبحانه عند النظر فى حدوث العالم علم استدلال اعتبارا للغائب بالشاهد اذ لا فرق فى العقول بين صنعة وصنعة فى اقتضاء صانع وانما كان العلم فى الشاهد ضروريا لان الانسان لم يزل يرى البناء يبنى والخياط يخيط والنجار ينجر الخشب ولم تر العقلاء القديم سبحانه يخلق ويخترع وانما استفادوه من النظر فى الشاهد فان قيل فاى العلمين أقوى فى النفوس وأثبت فى العقول العلم بالصانع النظر فى السرير واقتضائه للنجار أم العلم بالاله عند النظر فى السموات والارضين وما بينهما فالجواب ان هذا يستدعى تفصيلا وتدقيقا وليس هذا الكتاب موضوعا لذلك فحينئذ نعلم ان معه عقلا غريزيا ونسميه عقلا ونوجه التكليف عليه وهو العقل التكليفى واذا ثبت هذا فاعلم ان الله تعالى خلق الخلق على أربعة انحاء ملائكة وآدميين وشياطين وبهائم فاما الملائكة فعقول بلا شهوات ولا هوى يقارنه وأما البهائم فشهوات بلا عقول وأما الشياطين والجن فركب الله فيها العقول والشهوات والهوى وهكذا ركب فى بنى آدم العقل والهوى والشهوة فغلبت شهوات الشياطين وهواهم عقولهم فقطعوا أوقاتهم بالاخلاق المذمومة بالكبر والعجب والمقت والفخر والدعوى والحسد والاذية وسائر الاخلاق المهلكة وأما البهائم فتقضت اوقاتها فى شهوات البطن والفرج واما الآدميون فركب فيهم عقول الملائكة واخلاق الشياطين وشهوات البهائم فمن غلب عقله هواه منهم فكأنه من عالم الملائكة كالانبياء والرسل والاولياء والاصفياء وقليل ماهم واما من كان عقله مغلوبا بهواه وشهواته فان كان ذلك من المباحات من المطاعم والملابس والمراكب والنساء والخيل المسومة والانعام والحرث فأكل وتمتع بعد ان كسبه من حله فهذا من عالم البهائم وانما الحقناه بعالم البهائم لانه لا تكليف على البهائم وكذلك هذه المباحات لا حرج فى الاستمتاع بها بعد ان يكون كسبه من حله وان كان الغالب عليه اخلاق الشياطين من الكبر والعجب والحسد والغش الى سائر الاخلاق المذمومة فهذا من عالم الشياطين وان اجتمع فى الشخص افراط الشهوات واتباع الهوى والاخلاق المذمومة فيكون آدميا فى صورته شيطانا فى اخلاقه بهيمة فى شهواته فلا يصلح للصحبة وان ثبت هذا فاعلم ان هذا العقل الغريزى اطول رقدة من العين واحوج الى الشحذ من السيف

(فصل) فاما العقل المكتسب وهو نتيجة العقل الغريزى فهو ثقابة المعرفة واصابة الفكرة وليس له حد ينتهى اليه لانه ينمو اذا استعمل وينقص ان اهمل ونماؤه يكون باحد وجهين اما ان يقارنه من مبدا النشوء ذكاء وحسن فطنة كالذى قال الاصمعى قلت لغلام حدث من

اولاد العرب كان يحدثني وامتعني الله بفصاحته وملاحته ايسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانك احمق قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى علي حمقي فاستخرج هذا الصبي بفرط ذكائه مايدق على من هو اكبر منه سنا وقيل لبعض الصبيان الشاب قال فكانى عيسى بن مريم وقد قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية الا ترى ان اياس بن معوية الذى يضرب المثل بذكائه قال لابيه وهو طفل وكان ابوه يؤثر أخاه عليه يا أبت تعلم ما مثلي ومثل أخي معك انا كفرخ الحمام أقبح مايكون اصغر مايكون وكلما كبر ازداد ملاحة وحسنا فتبنى له العلالي ويتخذ له المربعات ويستحسنه الملوك ومثل أخي مثل الجحش أملح مايكون أصغر مايكون وكلما كبر قبح وصار الى القهقرى انما يصلح لحمل الزبل والتراب والوجه الثاني مايصلح لذوي الحنكة وصحة الروية لطول ممارسة الامور وكثرة التجارب ومرور الغير على اسماعهم وتقلب الايام وتصرف الحوادث وتناسخ الدول قد مرت على عيونهم وجوه الغير وتصدت لاسماعهم أنواع الاخبار وآثار العبر قال بعض الحكماء كفى بالتجارب تادبا وبتقلب الايام عظة وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل ولذلك حمدت اراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ اشجار الوقار وينابيع الاخبار لايطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وعليكم باراء الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد افادتهم الايام حنكة وتجربة وقد قال الشاعر

الم تران العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء في غير آفة * افادت له الايام في كرها عقلا

غير ان للعقل آفات كما قال بعض الحكماء كيف يرجو العاقل النجاة والهوى والشهوة قد اكتنفاه والهوى ابعد من ان ينفذ فيه حيلة الحازم المحتال وهو اغمض مسلكا في الجنان من الروح في الجثمان واملك بالنفس من النفس والمالك للشئ ولهذا قيل كم من عقل اسير عند هوى امير فمن احب ان يكون حرا فلا يهوى والا صار عبدا كما قال علي بن الجهم

انفس حرة ونحن عبيد * ان رق الهوى لرق شديد

واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد في الانسان هل يكون فضيلة ام لا فقال معظم العقلاء انه فضيلة اذا كان مجموع آحاد والآحاد فضائل ولاشك ان كثرة الفضائل فضيلة اما الشئ المحدود فتكون الزيادة فيه نقصا من المحدود كالتهور في الشجاعة والتبذير في الكرم فاما الزيادة في العقل المكتسب فزيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة مالم يكن بما قد كان وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال افضل الناس اعقل الناس وقال عليه السلام العقل حيث كان الف مالوف وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب الخصال عليه ولما مات بعض الخلفاء حشدت الروم واجتمعت ملوكها وقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فيمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وضربوا في ذلك مشاورات وتراجعوا فيه بالمناظرات واجمعوا على انه فرصة الدهر وثغرة النصر وكان رجل منهم من ذوي الراي والمعرفة غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض الراي عليه فلما اخبروه بما اجمعوا

عليه قال لا ارى ذلك صوابا فسألوه عن علة ذلك فقال غدا اخبركم ان شاء الله فلما اصبحوا غدوا عليه للوعد وقالوا القد وعدتنا قال نعم فامر باحضار كلبين عظيمين قد اعدهما ثم حرش بينهما واثب كل واحد على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وارسل منه على الكلبين ذئبا عنده قد اعده فلما ابصراه تركا ما كانا عليه وتآلفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فنالا منه ما أحبا ثم أقبل الرجل على أهل الجمع فقال لهم مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج والقتال بينهم مالم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر لهم عدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله وتفرقوا عن رأيهم وأما المذموم فى هذا الباب فصرف العقل الى الدهاء والمكر قال الشعبى ودهاة العرب ستة معاوية بن ابى سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن امية وقيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن بديل بن ورقاء وقال الاصمعى كان معاوية يقول أنا للاناة وعمرو للبديهة وزياد للصغار والكبار والمغيرة للامر العظيم قال قبيصة بن جابر ما رأيت اعطى لجزيل مال بغير سلطان من طلحة بن عبد الله ولا رأيت أثقل حلما ولا اطول اناة من معاوية ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبذل لهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ولا اشبه سرا بعلانية من زياد ولو ان المغيرة كان فى مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من ابوابها كلها (وقال) أبو الدرداء قال النبى عليه السلام يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابى وامى ومن لى بالعقل قال اجتنب محارم الله وأدفرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل صالح الاعمال تزدد فى الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وعليه عزا (ويروى) لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه شعر

ان المكارم اخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم انى لا أصدقها * ولست أرشد الا حين أعصيها
والعين تعلم فى عينى محدثها * ان كان من حزبها أو من أعاديها

وقال بعض الحكماء العاقل من عقله فى ارشاد ومن رأيه فى امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله فى اغواء فقوله سقيم وفعله ذميم فاما من صرف فضل عقله الى الدهاء والمكر والشكر والحيل والخديعة كالحجاج وزياد واشباههما فمذموم وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لست بالخب والخب لا يخدعنى وقال المغيرة كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع والموصوف بالدهاء والمكر مذموم وصاحبه محذور تخاف غوائله وتحذر عواقب حبائله وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الاشعرى ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد أعن موجدة أو خيانة يا أمير المؤمنين قال لا عن واحدة منهما ولكن كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك وكتب زياد الى معاوية رضى الله عنه ان العراق فى شمالى ويمينى فارغة فولنى الحجاز أكفك أهله فبلغ ذلك ابن عمر فقال اللهم اكفه فطعن فى أصبعه بعد أيام فمات فمن وان كان رغب عن الدهاء والمكر فانما

نرغب فى الحيلة ونرضى بها والاتساع فى الحيلة مما تواصى به العقلاء قديما وحديثا وليس
شئ من أمور الدنيا الطالب الرفعة وباغى الوسيلة ومن ناداى أمر كان دق أو جل خير من
الحيلة وأضعف الحيلة أنفع من كثرة الشدة * وقالت الحكماء ملاك العقل الحيلة والتأنى
للسبب الضعيف والقوى من الامور (وروى) ان رجلا وقف لكسرى فقال أنا أصنع
ما تعجز الخلائق عنه قال ماهو قال يشد برجلى حبل طرفه برقبة الفيل وبرجلى الاخرى كذلك
ويشد طرفه برقبة الفيل ثم يساق الفيل بالضرب والزجر فلا اتزحزح ثم طالب ان يفعل ذلك
باربع من الفيلة فخرت بجهدتها فقسموه شطرين فقال كسرى من لم يكن أكبر مافيه عقله هلك
باكبر مافيه فنظمه بعض الشعراء فقال

من لم يكن أكبره عقله * أهلكه أكبر مافيه

(وسمعت) استاذنا أبا الوليد يحكى ان رجلا استأذن على هرون الرشيد وقال انى أصنع ما تعجز
الخلائق عنه قال الرشيد هات فاخرج انبوبة قصب فيها ابر عدة ثم وضع واحدة فى الارض وقام
على قدميه وجعل يرمى ابرة ابرة من قامته فتقع كل ابرة فى عين الابرة الموضوعة حتى فرغ دسته
فامر الرشيد بضربه مائة سوط ثم أمر له بمائة دينار فسئل عن جمعه بين الكرامة والهوان
فقال وصلته لجودة ذكائه وأدبته كى لا يصرف فرط ذكائه فى الفضول ومن زعم أن العقل
المكتسب اذا تناهى لا يكون فضيلة قال لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين فما
جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة كالكرم الذى هو متوسط بين البخل والتبذير والشجاعة
وسط بين التهور والجبن (وقالت الحكماء للاسكندر) أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور
فان الزيادة عيب والنقصان عجز (وفى الحديث) ان النبى عليه السلام قال خير الامور أوساطها
(وقال) على بن أبى طالب رضى الله عنه خير الامور الاوسط اليه يرجع العالى ومنه يلحق التالى
قالوا ولان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم (قلنا) هذا كله باطل
بما قدمناه لنصرة القول الاول وهو منقوض بالعقل الغريزى وبالعلوم وبسائر الفضائل وأما
قولهم انه يفضى بصاحبه الى الدهاء والمكر قلنا الدهاء والمكر كسب معان أخر غير العقل
ليست من لوازم العقل فان شاء تداهى ومكر وان شاء كف عما يقول فى كل شر يكتسبه العاقل
باختياره وليس عقله أوقعه فيه بل انما أوقعه فيه قلة عقله * وكان بزرجمهر لما فرغ من كتاب
أمثاله ونسق كل باب على حياله يقول ليس العجب ممن حفظ هذه الامثال فصار عالما انما
العجب ممن حفظها ولم يصر عالما وأنا أقول ليس العجب ممن قرأ كتابى هذا وصار مهذبا كاملا
انما العجب ممن قرأه ولم يصر مهذبا كاملا

(الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وصفاتهم والجلساء وآدابهم)

قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام واجعل لى وزيرا من أهلى فلو كان السلطان يستغنى
عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران ثم ذكر حكمة الوزراء فقال اشدد
به أزرى وأشركه فى أمرى دلت الآية على ان موضع الوزارة أن تشد قواعد المملكة وأن
يفضى اليه السلطان بعجره وبجره اذا استكملت فيه الخلال المحمودة ثم قال كى نسبحك كثيرا
ونذكرك كثيرا دلت هذه الكلمة على ان بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة

تنتظم أمور الدنيا وأمور الآخرة وكان أشجع الناس يحتاج الى السلاح وأفره الخيل الى السوط وأحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلاهم الى الوزير (وروى أبو سعيد الخدرى) قال مابعث الله نبيا ولا استخلف خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمر بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله تعالى وانما اشتقت الوزارة من الوزر وهو الثقل يريد انه يحمل من أمر المملكة وأعبائها وأثقالها مثل الاوزار * أسعد الملوك من له وزير صدق ان نسى ذكره وان ذكر أعانه * وقال وهب بن منبه قال موسى عليه السلام لفرعون آمن ولك الجنة ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاوره فى ذلك فقال بينما أنت اله تعبد اذ صرت تعبد فانف واستكبر وكان من أمره ما كان * وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن ابى مسلم لا يألوه خبالا وابئس القرناء شر قرين لشر خدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة الوزير عون على الامور وشريك فى التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه * وفى الامثال نعم الظهير الوزير (واعلم) ان أول مايستفيد الملك من الوزراء أمران علم ما كان يجهله ويقوى عنده علم ما كان يعلمه فيزول شكه واول مايظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله فى استخاب الوزراء واستفادة العلماء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبها يجمل فى الخلق ذكره ويجل فى العقول قدره وترسخ فى النفوس عظمته والمرء موسوم بقرينه * وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم * وفى كتاب كليله ودمنه لايصلح السلطان الا بالوزراء والاعوان الا بالمودة والنصيحة والمودة والنصيحة الا بالسر والعفاف وأعظم الاشياء ضررا على الناس عامة وعلى الولاة خاصة أن يحرموا اصالح الوزراء والاعوان فتكون اعوانهم غير ذى جدوى وغناء ويحذر الملك ان يولى الوزارة غير المتحرين كى لاتضيع الامور كما يحذر ان يتطبب بغير طبيب بصير مأمون (قال شريح بن عبيد) لم يكن فى بنى اسرائيل ملك الا ومعه رجل حكيم اذا رآه غضبان كتب له ثلاث صحائف فى كل صحيفة ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله صحيفة حتى يسكن غضبه (وقال اردشير) يحق على الملك أن الطف مايكون نظرا أعظم مايكون خطرا ولايذهب حسن أثره فى الرعية خوفه اهلها ولا يستغنى بتدبير اليوم عن تدبير غد وأن يكون حذره للملاقين أكثر من حذره للمتباعدين وان يتقى بطانة السوء أشد من اتقائه العامة ولايطمعن فى اصلاح العامة الا بالخاصة (وقال اردشير) لكل ملك بطانة حتى يجمع بذلك جميع المملكة فاذا أقام الملك بطانة على حال الصواب أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية * ومثال الملك الخير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافى فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا وكان الى الماء محتاجا ومثل السلطان مثل الطبيب ومثل الرعية كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والاطباء فان كذب السفير بطل التدبير وكان السفير اذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فاذا اسقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل الى الملك ماليس فى الرجل فيقتله الملك فههنا شرطنا أن يكون الوزير

صدوقا في لسانه عدلا في دينه مأمونا في الخلافة بصيرا بامور الرعية وتكون بطانة الوزير من أهل الامانة والبصيرة ويحذر الملك أن يولي الوزارة لئيما فاللئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوي الفضل * ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن ابي مسلم قال له عمر بن عبد العزيز أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تحيي ذكر الحجاج باستكتابك اياه فقال يا أبا حفص اني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم قال عمر أنا أوجدك من هو أعف منه في الدينار والدرهم قال ومن هو قال ابليس ما مس دينارا ولا درهما وقد أهلك هذا الخلق (ودخل) رجل له عقل وأدب على بعض الخلفاء فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال

يا ملك طاعته في الورى * وحبه مفترض واجب
ان الذي شرفت من أجله * يزعم هذا انه كاذب

وأشار الى الذمي فاسئله يا أمير المؤمنين عن ذلك فساله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام * لا يعرف وزير الملك ماله وما عليه حتى يراعي من صاحبه الواثق به ما يراعيه العاشق الغيور من المعشوقة المتهومة (وكان) بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره اذا رأيتني غضبانا فادفع الي رقعة فكان في الواحدة انك لست باله وانك ستموت وتعود الى التراب فيأكل بعضك بعضا وفي الثانية ارحم من في الارض يرحمك من في السماء وفي الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يصلحهم الا ذلك * اذا كان الوزير يساوي الملك في الرأي والهيبة والطاعة فليصرعه الملك فان لم يفعل فليعلم انه المصروع (وفي الامثال) اذا سكنت الدهماء خاف الوزراء * ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا لا تغتر بمودة الامير اذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فلا تخش الامير ويقال الخرق مماراة الامراء ومعاداة الوزراء ورب أمر كرهه الامير فتم بالوزير وكم من أمر أراده الامير فثناه عنه الوزير وانما السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج (وقال أنوشروان) لا يتم للملك أمره حتى يرفع نفسه عن كل عيب ويكون له جليس مأمون الغيب وخادم ناصح الجيب وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من النظر فكما ان من لم ينظر الى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان اذا لم يكن له وزير لا يعرف محاسن دولته وعيوبها وكاتب الملك مستقر اسراره ولسانه الناطق عنه في آفاق مملكته والمخصوص بقربه ولزومه دون نظرائه ظهير الامير وزيره وزينه حاجبه ولسانه كاتبه ورسوله عينه الكتابة قوام الخلافة وقرينة الرياسة وعمود المملكة * للكاتب على الملك ثلاثة أشياء رفع الحجاب عنه ويتهم الوشاة عليه ويفشي سره اليه (وقد قالت الحكماء) لا يطمعن ذو الكبر في الثناء ولا الخب في كثرة الصديق ولا السيئ الادب في الشرف ولا الشحيح في البر ولا الحريص في قلة الذنوب ولا الملك المتهاون الضعيف الوزراء في بقاء الملك وكما ان المرآة لا تريك وجهك الا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدا كذلك الامير لا يكمل أمره الا بجودة عقل الوزير وصحة فهمه وصفاء نفسه ونقاء قلبه (ومن شروط الوزير) أن يكون ممكن الرحمة

للخلق رؤفابهم لياسو برحمته ما يجرحه السلطان بغلظته (ومن شروطه) أن يكون نقي الجيب ناصح الغيب لا يقبل دقيقة ولا يكتم نصيحة * وقال بعض الملوك لوزيره لا تكونن الى ما تسر في به أسرع مبادرة من اذاري فيما يخاف على منه * وقال بعض الملوك اعط من أتاك بما تكره كما تعطي من أتاك بما تحب فان من أنذرك بشر (ومن شروطه) أن يكون معتدلا كايل تمامة لا حر ولا قر وموقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة وكان السلطان اذا أصلح صلحت الرعية واذا فسد فسدوا كذلك الوزراء اذا فسدوا فسد الملك واذا صلحوا أصلح الملك (وكان) يقال آفة العقل الهوى وآفة الامير مخافة الوزير * وقال المقتدر بالله لوزيره علي بن عيسى اتق الله بعطفي عليك ولا تعصه فيسلطني عليك * وقال المأمون لمحمد بن يزداد اياك أن تعصى الله فيما تتقرب به الي فيسلطني عليك (واعلم) انه ليس للوزير أن يكتم السلطان نصيحة وان استقلها وموقع الوزير من المملكة كموقع العينين من الانسان وكاليدين فانه اذا صح قبضهما وبسطهما صح التدبير واذا سقما دخل النقص على الجسد ولا تصلح الوزارة أن تكون في غير أهلها كما لا يصلح الملك أن يكون في غير أهله وشر الوزراء من كان الاشرار أيضا له وزراء وبطانة ودخلاء * وأوصت امرأة ابنها وكان ملكا فقالت يا بني ينبغي للملك أن يكون له ستة أشياء وزير يثق برأيه ويفضي اليه باسراره وحصن يلجأ اليه اذا فزع وسيف اذا نازل الاقران لم يخنه وذخيرة خفيفة المحمل اذا نابه نائبة كانت معه وامرأة اذا دخلت عليه أذهبت همه وطباخ اذا لم يشته الطعام طبخ له ما يشتهيه

(الباب الخامس والعشرون في الجلساء وآدابهم)

قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال سبحانه يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا * وينبغي للملك أن يجالس أهل العقل والادب وذوي الرأي والحسب وذوي التجارب والعبر فمجالسة العقلاء لقاح العقل ومادته ولذلك حمدت آراء الشيوخ فقال القدماء المشايخ أشجار الوقار وينابيع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وقالوا عليك بآراء المشايخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير * وقالوا رأي الشيخ خير من مشهد الغلام (وقال عبد الملك) لجلسائه جنبوني ثلاثا لا تطروني فاني أعرف بنفسي منكم ولا تكذبوني فانه لا رأي لكذوب ولا تغتابوا عندي أحدا فيفسد قلبي عليكم (وقال بعض الحكماء) كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الايام عظة * وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل * وقد قال هرم بن قطبة وهو أحد حكماء العرب حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد النظر (وقال كثير من حكماء العرب) عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم يعلله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم والمذهب الاول أصدق على العقول * وقال عبد العزيز بن زرارة لمعاوية عليك بمجالسة الالباء أعداء كانوا أو أصدقاء فان العقل يقع على العقل (وقال ابن عباس) مجالسة العقلاء تزيد في الشرف * وقال سفيان بن عيينة ان الرجل ممن كان قبلكم ليلقى الرجل العاقل فيكون عاقلا أياما وقال مالك بن أنس مر سليمان بن داود عليهما السلام بقصر بأرض مصر فوجد فيه مكتوبا

غدونا .

غدونا من قرى اصطخر * الى القصر فعدلنا

فمن يسأل عن القصر * فمبنيا وجدناه

يقاس المرء بالمرء * اذا ما هو ماشاه

وفى الشئ على الشئ * علامات واشباه

فلا تصحب أخا الجهل * واياك واياه

فكم من جاهل أردى * حليما حين آخاه

قال ووجدنا عليه نسرا واقعا فدعاه فقال من بنى هذا القصر قال لا ادرى قال كم لك منذ وقعت عليه قال تسعمائة سنة (وفى الامثال) يظن بالمرء ما يظن بجليسه (ولما) حج عبيد الله بن جعفر نزل مكة ليلا فلما أصبح قال يا أهل مكة عرفنا خياركم من أشراركم فى ليلة واحدة قالوا كيف ذلك قال نزلنا ومعنا اخيار واشرار فنزل أخيارنا على أخياركم وأشرارنا على أشراركم فعرفناكم *واعلم أنه ليس الدخان على النار بادل من الصاحب على الصاحب *وقال الاوزاعى الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب ان لم تكن فى مثله شانته *وقال مالك بن مسمع للاحنف بن قيس يا أبا بحر ما اشتاق الى غائب اذا حضرت ولا أنتفع بحاضر اذا غبت فاخذه ابراهيم بن العباس الكاتب فنظمه فقال

وأنت هوى النفس من بينهم * وأنت الحبيب وانت المطاع

ومابك ان بعدوا وحشة * ومامعهم ان بعدت اجتماع

*وقال عبد الله بن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة *وقال الاصمعى تناظر رجلان واعرابى حاضر فقال لاحدهما مناظرة مثلك فى الدين فرض والاستماع منك أدب ومجالستك زين ومعرفتك عز ومذاكرتك تلقيح للعقول وشحذ والخاؤك شرف وفخر *وقال السمسمانى غنى مخارق بين يدى المأمون

وانى لمشتاق الى ظل صاحب * يروق ويصفو ان كدرت عليه

عذيرى من الانسان لا ان جفوته * صفالى ولا ان صرت طوع يديه

فطرب المأمون وقال ويحك يا مخارق خذ منى نصف الخلافة واعطنى هذا الانسان *وقالت الحكماء النظر فى عواقب الامور تلقيح العقول وقالوا العاقل لا تنقطع صداقته والاحمق لا تدوم مودته فاتخذ من نصحاء أصحابك مرآة لطبائعك وفعالك كما تتخذ لوجهك المرآة المجلوة فانك الى صلاح طبائعك أحوج منك الى تحسين صورتك *وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة خلا سبعة قال وما السبع يا أمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الغنم والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطى والنظر الى الحسن من كل شئ قال فاين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال قال صدقت وهى أولاهن *وقال هشام بن عبد الملك قد قضيت الوطر من كل شئ فاكلت الحلو والحامض حتى لا اجد منهما طعما وشممت الرائحة حتى لا أجد لها رائحة وأتيت النساء حتى ما أبالى مرأة أتيت أم حائطا فما وجدت شيأ ألذ من جليس يسقط بينى وبينه مؤنة التحفظ *وقال عبد الملك بن مروان قد قضيت الوطر من كل شئ الا من محادثة الاخوان فى الليالى الزهر على

العلا الى العفو * وقال عبد الملك من قرب السفلة وأدناهم وباعد ذوي العقل وأقصاهم استحق الخذلان ومن منع المال من الحمد ورثه من لا يحمده ومن الكلام الشريف قول الحكماء ما أحوج ذا القدرة الى دين يحجزه وحياء يكفه وعقل يعدله * والى تجربة طويلة وعبر محفوظة والى اعراق تسري اليه واعلاق تسهل الامور عليه والى جليس رفيق ورائد شفيق والى عين تنظر العواقب وعقل يخاف الغير ومن لم يعرف يوم ظفر الايام لم يحترس من سطوات الدهر ولم يتحفظ من فلتات الزلل ولم يتعاظمه ذنب وان عظم ولا ثناء وان سمج واذا رأيت من جليسك امرا تنكره أو خلة لا تحبها أو صدرت منه كلمة عوراء أو هفوة غبراء فلا تقطع حبله ولا تصرم ودّه ولكن داوكلمه واستر عورته فابقه وابرأ من عمله قال الله تعالى فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون فلم يامر بقطعهم وانما أمر بالبراءة من عملهم السوء قال الشاعر

اذا راب مني مفصل فقطعته * بقيت ومالي للنهوض مفاصل

ولكن أداويه فان صح سرني * وان هو أعيا كان فيه تحامل

* وأتى رجل الى بعض الحكماء فشكا اليه صديقه وعزم على قطعه والانتقام منه فقال له الحكيم أتفهم ما أقول لك فاكلمك أم بك من ثورة الغضب ما شغلك عنه فقال اني لما تقول واع فقال أسرورك بمودته كان أطول أم غمك بذنبه قال بل سروري قال أفحسناته عندك أكثر أم سيا آته قال بل حسناته قال فاصفح بصالح أيامك عن ذنبه وهب اسرورك بجرمه واطرح مؤنة الغضب والانتقام منه ولعلك لا تنال ما أملت فتطول مصاحبة الغضب وأنت صائر الى ما تحب

(الباب السادس والعشرون في بيان معرفة الخصال التي هي جمال السلطان)

قد ذكرنا الخصال التي تجري من المملكة مجرى الاساس من البنيان ونذكر الآن الخصال التي تجري من المملكة مجرى التاج والطيلسان وحسن الهيئة والكمال فاكملها وقاعدتها العفو قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فلما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل ما هذا قال لا أدري حتى أسأل العالم فذهب جبريل ثم عاد فقال يا محمد ربك يقرؤك السلام ويامرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك واعلموا ارشدكم الله ان الله تعالى أمر بالعفو وندب اليه وذكر فضيلته وحث عليه ووصف به نفسه فقال سبحانه والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين فاوجب الله تعالى محبته للعافين وأثنى عليهم بالاحسان فقال ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وعزائم الامور من صفات المصطفين من الرسل قال الله تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال سبحانه واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال سبحانه وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم فاستعطف الخلق وندبهم الى أن يعفوا عن الجناة والظالمين والخاطئين كما يحبون أن يفعل الله بهم وقال فيمن انتصر ولم يعف ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل فرفع الحرج عن المنتصر والمنتقم ولم يوجب له فضيلة ثم كشف الغطاء وأزاح العذر وصرح بتفضيل العافين على المنتصرين والواهبين حقوقهم على المنتقمين فقال

سبحانه وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وهذا نص لا يحتمل التأويل وتحقيق القول في ذلك ان الانتصار عدل والعفو فضل وفضل الله أحب الينا من عدله لانه ان عدل علينا فاخذنا بحقه هلكنا وان عفا عنا برحمته تخلصنا ولو كان العدل يسع الخلائق لما قرنه الله بالاحسان فلماعلم ان العدل استقصاء ومناقشة وذلك مما تضيق عنده النفوس وتحرج له الصدور ناط الاحسان بالعدل فقال ان الله يامر بالعدل والاحسان وأيضا فان الانتصار انتقام وعذاب بلا امتنان والعفو محمدة من الله واحسان وأيضا فالانتصار سيئة والعفو حسنة قال الله تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة والدليل على ان الانتصار سيئة قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها غير انها انما سميت سيئة لما كانت نتيجة سيئة لا انه لا يجوز الانتصار وهو كقول عمرو بن كلثوم التغلبي

الالا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى الجزاء على الجهل جهلا وان لم يكن في الحقيقة جهلا وعن هذا روت عائشة رضي الله عنها قالت ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط غير انه اذا انتهك شئ من محارم الله فلا يقوم لغضبه شئ (وروى) انه قال ينادى مناد يوم القيامة من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا من عفا في الدنيا فان عفوت أيها الطالب كان أجرك على الله وان لم تعف كان حقك قبل من ظلمك ولان يكون أجرك في ضمان الله تعالى أوثق من ان يكون قبل مخلوق وأيضا فان لم تعف نلت حقك بلا زيادة عليه وان عفوت كانت حسنة أسديتها لاخيك والله تعالى يقول من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وشفع الاحنف بن قيس في محبوس الى السلطان فقال له ان كان مجرما فالعفو يسعه وان كان بريأ فالعدل يسعه (وقيل) لبعض الكتاب بين يدى أمير المؤمنين بلغ أمير المؤمنين عنك أمر فقال لا أبالى فقيل له ولم لا تبالى قال ان صدق الناقل وسعنى عفوه وان كذب الناقل وسعنى عدله * ولما دخل عيينة بن حصن على عمر بن الخطاب قال يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر وهم بان يوقع به فقال ابن اخيه يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان عمر وقافا عند كتاب الله تعالى (وقال) النبي صلى الله عليه وسلم ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء وقال ارحم ترحم وكان يقال أولى الناس بالسلطان احقهم بالرأفة والرحمة وفي الانجيل افلح أهل الرحمة لانهم سيرحمون (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لقد أبغض الله المتسرعين الى اراقة الدماء فاليهم انتهت القسوة والغلظة والتباعد من الرحمة ولما تمكن داود من قتل جالوت ابقى عليه وهو يومئذ عدوه وطالبه وقال يارب أعظم دمى في عين أعدائى كما عظمت في عيني دم عدوى وكذلك خلصنى من جميع الهموم * وقالت حكماء الهند لا سودد مع انتقام ولا سياسة مع عزازة نفس وعجب (وقالت) الحكماء ليس الافراط في شئ أجود منه في العفو ولا هو في شئ أقبح منه في العقوبة وكذلك التقصير مذموم في العفو محمود في العقوبة * واعلم أنك ان تخطئ في العفو في ألف قضية خير من أن تخطئ في العقوبة في قضية واحدة (وقال) معاوية انى لارفع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفوى وجهل أكبر من حلمى وعورة لا أوارىها بسترى (وقال) المأمون

ليس على في الحلم مؤنة ولوددت ان أهل الجرائم علموا رأيي في العفو فيذهب الخوف عنهم فتخلص لي قلوبهم * وقال رجل للمنصور يا أمير المؤمنين ان الانتقام انتصاف والتجاوز فضل والمتجاوز قد جاوز حد المنصف ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين وأن لا يرتفع الى أعلى الدرجتين فاعف عنا يعف الله عنك فعفا عنهم وانشدوا

واذا بغى باغ عليك بجهله * فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

وقال بعضهم لمسلم بن قتيبة لما عفا عنه والله ما أدري أيها الامير أي يوميك أشرف أيوم ظفرت أم يوم عفوت وقال الشاعر

ما زلت في العفو للذنوب واطـ * ـلاقك جان بجرمه علق

حتى تمنى العفاة أنهمو * عندك أسرى في القيد والحلق

ورفع الى انوشروان ان العامة تؤنب الملك في معاودة الصفح عن المذنبين مع تتابعهم في الذنوب فوقع المذنبون مرضى ونحن اطباء وليس معاودة الداء اياهم بمانعنا من معاودة العلاج لهم (وقال) عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما قرن شيء الى شيء أفضل من حلم الى علم ومن عفو الى قدرة (وقال) رجل لعبد الملك بن مروان لما ظفر بالمهلب ما رأيت أحدا يا أمير المؤمنين ظلم ظلمك ولا نصر نصرك ولا عفا عفوك (وقال) بعض التابعين المعاقب مستدع لعداوة أولياء المذنب والعافي مستدع لشكرهم أو مكافاتهم أيام قدرتهم ولان يثني عليك باتساع الصدر خير من أن تنسب الى ضيقه واقالة العثرة موجبة اقالة عثرتك من ربك وعفوك عن الناس موصول بعفو الله عنك وعقابك موصول بعقاب الله تعالى لك والله يحب العافين (وقال) المنصور عقوبة الاحرار التعريض وعقوبة الاشرار التصريح * وقال المأمون لما رأيت الذنوب جلت عن المجازاة بالعقاب جعلت العقاب فيها عفوا أمضى من الضرب للرقاب * وقال الاحنف لا تزال العرب بينة الفضل ما لم تعد العفو ضيما والبذل سرفا * وفي الحكمة اذا انتقمت فقد انتصفت واذا عفوت فقد تفضلت (وقال) بعض الحكماء اقبل العذر وان كان مصنوعا الا أن يكون ممن أوجبت المروءة قطيعته أو يكون في قبولك عذره تشجيعه على المكروه أو عونه على الشر فان قبولك للعذر فيه اشتراك في المنكر (ولما دخل) الفيل دمشق حشر الناس لرؤيته وصعد معاوية الى علية له متطلعا فبينا هو كذلك اذ نظر في بعض الحجر في قصره رجلا مع بعض حرمه فاتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من قصده بد فوقعت عينه على الرجل فقال يا هذا أفي قصري وتحت جناحي تهتك حرمي وأنت في قبضتي ما حملك على ذلك فبهت الرجل وقال حلمك أوقعني قال له معاوية فان عفوت عنك تسترها علي قال نعم فخلى سبيله وهذا من الدهاء العظيم والحلم الواسع ان يطلب الستر من الجاني وهو عروض قول الشاعر *

اذا مرضنا أتينا كم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

(واتى موسى الهادي) برجل قد جنى فجعل يقرعه بذنوبه ويتهدده فقال اعتذاري مما تقرعني به رد عليك واقراري بما ذكرته ذنب ولكني أقول

فان كنت ترجو في العقوبة راحة * فلا تزهدن عند المعافاة في الاجر

فامر باطلاقه (وقال المهلب) لا شيء أبقى للملك من العفو فان الملك اذا وثقت رعيته منه

بحسن العفو لم يوحشها الذنب وان عظم وان خشيت منه العقوبة أوحشها الذنب وان صغر حتى يضطره ذلك الى المعصية * ومن الحكمة البالغة فى مثل هذا قول سابور وقد جمع أولاده فقال يا بنى ان أعجزكم ان تملؤا قلوب الرعية حبا فاملؤها خوفا وليس ذلك بان تحمل العقوبة على من لا يستحقها ولكن تجعلها لمن يستحقها * وفى هذا المعنى قال الله تعالى فشرد بهم من خلفهم وهذا معنى لا يحتمل عما أوجبناه وهو معنى قول سابور ولا يخالف ما قررنا من حسن العفو بل هذا محمول على الواجب المستحق أو على ما فى تركه اغرار بركون أمثاله فههنا يكون العفو مفسدة فيا أيها المعاقب اذا أقت على مذنب عقوبة فلا تكن كالمتشفى المتلذذ بعذابه لانك واياه اخوان لأب وأم آدم وحواء لم تفضله بحولك وقوتك بل بما فضلك الله به تطولا عليك فاذكر لو كنت فى مقامه وكان فى مقامك ولا تأمن تقلب الدهر فتقوم مقامه بين يدى من لا يرحم ولا ينظر فى العواقب واحذر التفريط والتقصير وأقم نفسك مذنبا أقيم للعقوبة ولكن عقابك مقدرا كما كان عطاؤك مقدرا ولكن عقابك للتقويم لا للانتقام وللزجر لا للهوى وعن هذا قال بزرجمهر لا ينبغى للملوك أن يكرموا احدا بهوان من ليس للهوان اهلا ولا ان يهينوا احدا باكرام من ليس للكرامة اهلا * لا تكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ولا على البخل اسرع منك الى البذل قال الشاعر

صفوح عن الاجرام حتى كأنه * من العفو لم يعرف من الناس مجرما

فليس يبالى أن يكون به الأذى * اذا ما الأذى بالكرم لم يغش مسلما

(وقال سليمان بن داود) عليهما السلام التنكيل والعقوبة امنية الملك الشرير وعلى مثله يبعث الله ملكا غير رحيم * وقال معاوية لا ينبغى للملك ان يظهر منه غضب أو رضا الا لثواب أو عقاب وقال اردشير فضل الملك على السوقة انما هو بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم فكلما استكثر منها بانت فضيلته واستحقاقه لموضعه من الولاية عليهم وكلما انتقص منها اقترب من السوقة (وقال المامون) انى لاجد لعفوى لذة أعظم من لذة الانتقام واعلم انه اذا عاقب الملك أو أهان على ظن بغير يقين ادخل على نفسه من قبح الخطا فى الرأى أعظم مما أدخل على صاحبه من العقوبة * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الغالب بالشر مغلوب وما ظفر من ظفر بالاثم (وقيل) لافلاطون أى شئ من افعال الناس يشبه أفعال الله تعالى فقال الاحسان الى الناس وقال الحكيم الحلم فدام السفيه والعفو زكاة العقل * وقال الحكيم السيد الذى لا يشين حسن الظفر بقبح الانتقام وخير مناقب الملوك العفو * وكان يحيى بن معاذ يقول سبحان من أذل العبد بالذنب واذل الذنب بالعفو الهى ان عفوت فخير راحم وان عذبت فغير ظالم الهى ان كنت لا ترضى الا عن أهل طاعتك فكيف يصنع الخاطؤن وان كان لا يرجوك الا أهل وفائك فبمن يستغيث المستغيثون وقال الشاعر

وان الله ذو حلم ولكن * لعز الحلم ينتقم الحليم

(وروى ان الحجاج) أخذ القطرى بن الفجاءة فقال لاقتلنك قال ولم قال لخروج أخيك على قال فان معى كتاب امير المؤمنين ان لا تأخذنى بذنب أخى قال هاته قال ان معى أوكد منه قال الله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فتعجب من جوابه وخلى سبيله * ولما وفد عقيل بن أبى طالب على

معاوية أمر له بمائة ألف درهم فلما اراد الانصراف رأى فى الطريق جارية باربعين ألف درهم فرجع الى معاوية فاخبره قال وما تصنع بها قال تلد لى غلاما فان اغضبنى يضرب مفرقك بالسيف فامر له بها فابتاعها فولدت له مسلم بن عقيل ثم قدم مسلم الشام فابتاع منه معاوية ضيعة فبلغ الحسين بن على الخبر فكتب الى معاوية انى لا اجيز بيع مسلم فارسل معاوية الى مسلم فقال هذا كتاب الحسين يامر برد المال فقال مسلم أمادون ان اضرب مفرقك بالسيف فلا فضحك معاوية وقال والله لقد تهددنى أبوك بذلك قبل ان يشترى أمك وسوغه المال فقال الحسين غلبنا معاوية حلما وجودا

(الباب السابع والعشرون فى المشاورة والنصيحة)

وهذا الباب مما يعده الحكماء من أساس المملكة وقواعد السلطنة ويفتقر اليه الرئيس والمرؤس وقد ذكرناه فى باب الخصال القرقانية ونذكر ههنا فوائدها ومحاسنها * اعلموا ان المستشير وان كان أفضل رأيا من المشير فانه يزداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوأ فلا يقذفن فى روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأى غيرك فيمنعك ذلك عن المشاورة فانك لا تريد الرأى للفخر به ولكن للانتفاع به فان أردت الذكر كان أفخر لذكرك وأحسن عند ذوى الالباب لسياستك أن يقولوا لا ينفرد برايه دون ذوى الرأى من اخوانه ولا يمنعك عزمك على انفاذ رأيك وظهور صوابك عن الاستشارة الاترى ان ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه عزمة لامشورة فيها فحمله حسن الادب وعلمه بموقعه فى النفوس على الاستشارة فيه فقال فيه يابنى انى أرى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى وهذا من أحسن مارسم فى هذا الباب * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرأى الفرد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطين والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع ويروى أن روميا وفارسيا تفاخرا فقال الفارسى نحن لا نملك علينا من يشاور وقال الرومى ونحن لا نملك علينا من لا يشاور وقال بزرجمهر اذا أشكل الرأى على الحازم كان بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها فالتمسها فوجدها كذلك الحازم يجمع وجوه الرأى فى الامر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص له الصواب (وكان) يقال من كثرت استشارته حمدت امارته وفى حكم الهند قال بعض الملوك ان الملك الحازم يزداد برأى الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الانهار وينال بالحزم والرأى ما لا يناله بالقوة والجند ولم تزل حزمة الرجال يستحلون مرارة قول النصحاء كما يستحلى الجاهل المساعدة على الهوى * وقال المأمون لطاهر بن الحسين صف لى اخلاق المخلوع يعنى أخاه الأمين فقال كان واسع الصدر ضيق الادب يبيح من نفسه ما تأباه همم الاحرار لا مصغيا الى نصيحة ولا يقبل مشورة يستبد برأيه فيرى سوء عاقبته فلا يردعه ذلك عما يهم به قال فكيف حروبه قال يجمع الكتائب بالتبذير ويفرقها بسوء التدبير فقال المأمون لذلك ما حل محله أما والله لو ذاق لذاذة النصائح واختار مشورة الرجال وملك نفسه عند شهوتها ما ظفر به * وقال بعضهم انفاذ الملوك الامور بغير روية كالعبادة بغير نية ولم تزل العقلاء على اختلاف آرائهم يشهدون الغيوب ويستثيرون صواب الرأى من كل أحد حتى الائمة الملوك هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول رحم الله امرأ اهدى الى عيوبى * وكان يقال من أعطى أربعا لم يمنع أربعا من أعطى

الشكر

الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب * وقال بعضهم خمير الرأي خير من فطيره وتأخيره خير من تقديمه (وذكر صاحب كتاب التاج) أن بعض ملوك العجم استشار وزراءه فقال أحدهم لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحدا الا خاليا فانه أموت للسر وأحزم في الرأي وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة البعض * وكان بعض ملوك العجم اذا شاور مرازبته فقصروا في الرأي دعا الموكلين بأرزاقهم فعاقبهم فيقولون تخطئ مرازبتك وتعاقبنا فيقول نعم لم يخطؤا الا لتعلق قلوبهم بأرزاقهم واذا اهتموا أخطؤا * وكانوا اذا اهتموا بمشاورة رجل بعثوا اليه بقوته وقوت عياله سنته ليتفرغ لبه * وكان يقال النفس اذا احرزت قوتها اطمأنت واذا شاورت فاصدق الخبر تصدقك المشورة ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك * وقال بعض ملوك العجم لا يمنعنك شدة بأسك في باطنك ولا علو مكانك في نفسك من أن تجمع الى رأيك رأي غيرك فان أحمدت أحمدت وان اخطأت عذرت فان في ذلك خصالا منها ان وافق رأيك رأي غيرك ازداد رأيك شدة عندك وان خالفه عرضته على نظرك فان رأيته معتليا لما رأيته قبلته وان رأيته متضعا استغنيت عنه ويجدد لك النصيحة ممن شاورته وان اخطأ وتمحض لك مودته وان قصر ولو لم يكن من فضيلة المشاورة الا انك أن أصبته مستبدا سلبت فائدة الاصابة بألسنة الحسدة وقال قائل هذا اتفاق ولو فعل كذا لكان احسن واذا شاورت فاصبت أحمد الجماعة رأيك لانهم لنفوسهم يحمدون وان اخطأت حمل الجماعة خطأك لانهم عن نفوسهم يكافحون * واعلم أن القول الغليظ ينفع لفضل عاقبته كما يتكاره شرب الدواء المر لفضل مغبته (وقال اعرابي) ما غبنت قط حتى غبن قومي قالوا وكيف ذلك قال لا افعل شيأ حتى اشاورهم (وقيل لرجل من بني عبس ما أكثر صوابكم يا بني عبس فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم * وكان ابن هبيرة أمير البصرة يقول اللهم اني أعوذ بك من صحبة من غايته خاصة نفسه والانحطاط في هوى مستشيره (وفي حكم الهند) من التمس من الاخوان الرخصة عند المشورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه اخطأ الرأي وازداد مرضا وحمل الوزر * وقالت الحكماء لا تشاور معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا من يرهقه احد السبيلين * وقالوا لا رأي لحاقن ولا لحازق ولا لحاقب ولا لمشار من لا دقيق عنده والحازق هو الذي ضغطه الخف الضيق والحاقب هو الذي يجد في بطنه ثقلا وقالوا من شكا الى عاجز أعاره عجزه وامده من جزعه (ومن لطيف ما جرى في الاستشارة) ان زياد بن عبيد الله الحارثي استشار عبيد الله بن عمر في اخيه ابي بكر ان يوليه القضاء فاشار به فبعث الى ابي بكر فامتنع عليه فبعث زياد الى عبيد الله يستعين على أبي بكر فقال ابو بكر لعبيد الله انشدك الله اترى لي القضاء قال اللهم لا قال زياد سبحان الله استشرتك فاشرت علي به ثم اسمعك تنهاه فقال ايها الامير استشرتني فاجتهدت لك الرأي ونصحتك ونصحت للمسلمين واستشارني فاجتهدت له رأيي ونصحته (وروى ان الحجاج) بعث الى المهلب يستعجله حرب الازارقة فكتب اليه المهلب ان من البلاء ان يكون الرأي لمن يملكه دون من لا يبصره

(فصل في النصيحة) اعلموا ان النصح للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى اخبارا عن نوح عليه السلام ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وقال عليه السلام ان العبد اذا نصح لسيده واحسن عبادة الله فله أجره مرتين (وروى) أبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم فالنصح في الجملة فعل الشئ الذي به الصلاح ودفع الملامة مأخوذ من النصاحة وهي السلوك التي يخاط بها وتصغيرها نصيحة تقول العرب هذا قميص منصوح أي مخيط ونصحته نصحا اذا خطته ويختلف النصح في الاشياء لاختلاف الاشياء فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس بأهل له عقدا وقولا والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة في محابه والتباعد من مساخطه وموالاة من اطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد في رد العصاة الى طاعته قولا وفعلا وارادة بث جميع ما ذكرناه في عباده والنصيحة لكتابه اقامته في التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه واستعماله والذب عنه من تاويل المجرمين وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب والنصيحة للرسول عليه السلام موازرته ونصرته والحماية من دونه حيا وميتا واحياء سنته بالطلب واحياء طريقته في بث الدعوة وتاليف الكلمة والتخلق بالاخلاق الطاهرة والنصيحة للائمة معاونتهم على ما تكلفوا القيام به في تنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرهم في الرعية وسد خلتهم عند الحاجة ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم ورد القلوب النافرة اليهم والنصح لجماعة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم الى ما يسعدهم وتوقي ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوساوس عليهم ومن النصيحة للمسلمين رفع مؤنة نفسه وبدنه وحوائجه عنهم (قال الاصمعي) لقط عمر بن الخطاب رضي الله عنه نواة من الطريق فامسكها بيده حتى مر بدار قوم فالقاها في الدار وقال يا كلها داجنهم والنصح لجميع الملل ان يحب اسلامهم ويدعوهم الى الايمان بالقول ويحذرهم سوء مغبة الكفر وبالسيف ان كان ذا سلطان أو يكفوا عن قتال المسلمين فيكونوا ذمة والا فالقتل نصحا لاقامة أمره فيهم (وروى معاذ) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم العمل لله ومناصحة ولاة الامر والاعتصام بجماعة المسلمين فان دعوتهم تحيط من ورائهم *وقال جابر ابن عبد الله بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقنني فيما استطعت والنصح لكل مسلم (وروى) أنس ان النبي عليه السلام قال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه *وقال أبو الدرداء العلم يبلغه البر والفاجر والحكمة ينطق بها البر والفاجر والنصيحة لله تعالى لا تثبت الا في قلوب المنتخبين الذين صحت عقولهم وصدقت نياتهم واعلم ان جرعة النصيحة مرة لا يقبلها الا أولوا العزم *وكان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول رحم الله امرأ أهدى الى عيوبي *وقال ميمون بن مهران قال لي عمر بن عبد العزيز رحمه الله قل لي في وجهي

ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره * وقال مالك النصيحة لله في أرضه هي التي بعث الله بها انبياءه * ومن أمر الاسلام القصد والنصيحة لعباد الله في امورهم والنفوس مستثقلة للنصح نافرة عن أهله ومائلة الى ما وافق هواها (وفي منثور الحكم) ودك من نصحك وقلاك من مشى في هواك * وكان يقال أخوك من احتمل اثقل نصيحتك وقال بعضهم شعرا

عرضت نصيحة مني لزيد * فقال غششتني والنصح مر
ومالي أن أكون نصحت زيدا * وزيد طاهر الأثواب بر
ولكن قد اتاني أن زيدا * يقال عليه في مغناه شر
فقلت له تجنب كل شئ * يقال عليك ان الحر حر

وقال آخر

وعلي النصوح نصيحتي * وعلي عصيان النصوح

وللقطامي شعر

ومعصية الشفيق عليك مما * تزيدك مرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه * وليس بان تتبعه اتباعا

ولورقة بن نوفل

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم * انا النذير فلا يغرركم أحد
لاشئ مما ترى تبقى بشاشته * الا الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال ابن وهب انما يحسن الاختيار لغيره من يحسن الاختيار لنفسه ولا خير لك فيمن لا خير له في نفسه * وقالت العلماء لن ينصحك امرؤ لا ينصح لنفسه (وقال بعضهم) رأيي ورأيك في المعرفة امثل لنفسك من رأيك لانه خلو من هواك * وقال أبو الدرداء ان شئتم لانصحن لكم ان أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله الى عباده ويعملون في الارض نصحا وروى ان رجلا لطم ابراهيم بن أدهم فرفع رأسه الى السماء وقال الهي ان كنت تبيقي وتعاقبه فلا تبقيني ولا تعاقبه * ومن الخصال التي تجري مجرى الجمال والكمال الحلم *

(الباب الثامن والعشرون في الحلم)

قال الله تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وقال تعالى فاصفح الصفح الجميل (قال) علي رضي الله عنه الصفح الجميل الرضا بلا عتاب وقيل الصفح الجميل الرضا بلا توبيخ فيه ولا حقد معه وفي الامثال القديمة كاد الحليم أن يكون نبيا (ويروى) ان رجلا قال يا رسول الله علمني كلمات اعيش بهن ولا يكثرن علي فانسى قال لا تغضب * واعلم ان الحلم أشرف الاخلاق وأحقها بذوي الالباب لما فيه من راحة السر واجتلاب الحمد وأحق الناس به السلطان لانه منصوب لاقامة أود الخلائق وممارسة اخلاقهم ولا يطيقون به في حال سلمهم وانما يغشون بابه حين تنازعهم وخصوماتهم وشرورهم وتكدر نفوسهم وضيق اخلاقهم فان لم يكن معه حلم يرد به بوادرهم ولا وقع تحت عبء ثقيل * وكان أنوشروان ذا حلم واناة وكان يقول في خصلتان لولا انهما ظاهرتان عند الرعية لضقت بهما ذرعا الحلم والاناة (وروى) ان يحيى بن زكريا لقي عيسى

ابن مريم عليهم السلام فقال يا روح الله اخبرنى بأشد الاشياء فى الدارين قال غضب الله تعالى قال يا روح الله وما ينجينى من غضب الله تعالى قال ترك الغضب قال يا روح الله كيف بدو الغضب قال التعزز والتكبر والفخر على الناس * وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال وجبت محبة الله تعالى على من أغضب فحلم * والذى يحمل أن يضرب فى هذا الباب قصة اسحق عليه السلام قال له ابراهيم يا بنى انى رأى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ثم انه تله للجبين وأمر على حلقه السكين فلم يقل الا خيرا فقال الله تعالى وبشرناه بغلام حليم (وفى الاخبار) يقول ابليس لعنه الله ان الحديد من الرجال لم ييأس منه وان كان يحيى الموتى بدعائه لانه تأتى عليه ساعة يحتد فيها فيصير منه الى ما يريد (ويروى) ان جعفر بن محمد دخل على الرشيد وقد استخفه الغضب فقال له يا أمير المؤمنين انك انما تغضب لله تعالى ولا تغضب له بأكثر من غضبه لنفسه * واعلم أرشدك الله ان هذه الكلمة لا قيمة لها والله أعلم حيث يجعل رسالاته فما أفخمها وأجل قدرها وأعظم شأنها لانك اذا كنت أيها السلطان انما تتصرف فى ملك الله بامر الله فالله تعالى قد حدد حدودا وشرع شرائع وأقام فروضا وسننا ونهى عن حدود ورسوم ثم قدر فى كل خصلة عند مخالفته حدا محدودا ونهى أن يتجاوز ذلك الحد فلا يقبل من استحق القطع والحبس والادب والحد ولا يحبس غير من استوجب الحبس * وكانت الخلفاء يؤدبون الناس على قدر منازلهم فن عثر من ذوى المروآت اقيلت عثرته ولم يقابل بشئ لقوله عليه السلام اقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم ومن سواهم كان يقابل على قدر منزلته وهفوته فكان يقام قائما فى مجلس يقعد فيه نظراؤه فتكون هذه عقوبته وآخر يشق جيبه وآخر تنزع عمامته من رأسه وآخر يكلم بالكلام الذى فيه بعض الغلظة * قال الشعبى كانت العصاة فى زمن عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم اذا أخذ الرجل منهم نزعت عمامته وطيف به فى المسجد على قومه وقيل هذا أخذ بثغره فلما ولى زياد ضربهم ونزع عمائمهم فلما ولى مصعب بن الزبير حلق مع الضرب رؤسهم فلما ولى بشر بن مروان اقامهم على الكراسى ثم مدت أيديهم وسمرها بمسمار ثم نزع الكرسى من تحت رجليه حتى يحرم بدمه فى ميت ومن حى فلما ولى الرجل المعروف بالحجاج قال كل هؤلاء يلعب من أخذ بثغره ضرب عنقه وقال ارسطاطاليس النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان والنفس الشريفة يؤثر فيها يسير الكلام وفيه قيل

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت ايلام

واعلم ان من تجاوز فى العقوبة فوق ما حد الله تعالى فيها شارك المجرم فى الذنب واستوجب ما استوجبه المجرم من العقوبة ويتبين فى الآخرة انه انما يعاقب للهوى والتشفى اذا غضب لله تعالى (وفى كتاب سليمان بن داود عليهما السلام) القاهر لنفسه أشد ممن يفتح المدينة وحده وصدق نبى الله صلى الله عليه وسلم فان السلطان يفتح المدينة ويقهر أهلها ويغلب جنودها وحماتها ويقتل ابطالها ثم تغلبه شهوته ويبقى اسيرا فى ذل هواه قد قهرته قينة بطنبورها أو قدح خمر يذهب بعقله * وقال اكثم بن صيفى الصبر على جرع الحلم اعذب من جنى ثمر الندم (وسأل على بن أبى طالب) رضى الله عنه كثيرا من كبراء فارس من أحمد ملوكهم عندهم فقال

لاردشيرفضل السبق غيران أحدهم سيرة أنوشروان قال فاى اخلاقه كان اغلب عليه قال الحلم والاناة فقال على رضى الله عنه هما توأم ينتجهما علو الهمة * ومن محمود السيرة ان يعرف الناس من اخلاقك انك لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك ادوم لخوف الخائف ورجاء الراجى وقال محمود الوراق

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه على الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذى فوقى فاعرف فضله * واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فان قال صنت عن * اجابته نفسى وان لام لائم
وأما الذى مثلى فان زل أو هفا * تفضلت ان الحلم بالفضل حاكم

(وقال الاصمعى) سمعت اعرابيا يقول اسرع الناس جوابا من لم يغضب لا توقدن بين جنبيك جمرة الغضب واردد اسائه بالحلم فان شجر النار اذا الحت عليها الرياح حاكت اغصانها فتشتعل نارا وتحترق من أصولها * وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ثلاث من اجتمعن فيه فقد سعد من اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا اقدر عف وكف (وسئل جعفر بن محمد) عن حد الحلم فقال وكيف يعرف فضل شئ لم يركاله فى أحد * وقال الاحنف لابنه يا بنى ان اردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه فان انصفك والا فاحذره (وكان سلم بن نوفل) سيد بنى كنانة فضربه رجل من قومه بسيفه فأخذ فاتى به اليه فقال له ما الذى فعلت أما خشيت انتقامى قال فلم سودناك الا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الجانى وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه فى النفس والمال فخلى سبيله فقال قائلهم شعرا

يسود أقوام وليسوا بسادة * بل السيد المعروف سلم بن نوفل

وقال رجل من كلب للحكم بن عوانة انما أنت عبد فقال والله لاعطينك عطية ما يعطيها العبيد فاعطاه مائة رأس من السبى ومن امثال العرب احلم تسد ويروى ان هشاما غضب على رجل من أشراف الناس فشتمه فوبخه الرجل فقال له اما تستحى ان تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فاطرق هشام واستحيا وقال له اقتص فقال اذا سفيه مثلك فقال خذ من ذلك عوضا من المال قال ما كنت لأفعل قال فهبها لله قال هى لله ثم لك فنكس هشام رأسه وقال والله لأعود لمثلها وقال الشاعر

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لا صفح ذل ولكن صفح اكرام

وقال آخر

وجهل رددناه بفضل حلومنا * ولو اننا شئنا رددناه بالجهل
رجعنا وقد خفت حلوم كثيرة * وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال هشام لخالد بن صفوان صف لى الاحنف بن قيس فقال يا أمير المؤمنين ان شئت أخبرتك عنه بثلاث وان شئت باثنتين وان شئت بواحدة فقال اخبرنى عنه بثلاث قال كان لا يحرص ولا يجهل ولا يدفع الحق اذا نزل به قال فاخبرنى عنه باثنتين قال كان يؤثر الخير ويتوقى

الشر قال فاخبرني عنه بواحدة قال كان أعظم الناس سلطانا على نفسه وقال اكثم بن صيفي الغلبة والعز الحلم وقال الاحنف بن قيس وجدت الحلم انصر لي من الرجال وصدق الاحنف فان من حلم كان الناس انصاره كما روى ان رجلا أسرف في شتم بعض الادباء وهو ساكت فحمى له بعض المارين في الطريق وقال له يرحمك الله الاتنتصر لك قال لا قال ولم قال لاني وجدت الحلم انصر لي من الرجال وهل حاميت في الا الحلم وقال رجل لعمرو بن العاص والله لاتفرغن لك فقال له الآن وقعت في الشغل وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه ان رجلا ممن كان قبلكم استضاف قوما فاضافوه ولهم كلبة تنبح فقالت والله لا أنبح ضيف أهلي الليلة فعوى جروها في بطنها فبلغ ذلك نبيا لهم أو قيلا من أقيالهم فقال مثل هذا مثل أمة تكون بعدكم يظهر سفهاؤها على حلمائها وقال الاحنف اياكم ورأي الاوغاد قالوا وما رأي الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا وسئل الاحنف عن الحلم فقال هو الذي تصبر عليه واست بحليم ولكني صبور ويروى ان المهلب نازعه رجل من كبار بني تميم فاربى على المهلب والمهلب ساكت فقيل له في ذلك فقال كنت اذا سببني استحييت من خفة السباب وغلبة اللئام والسفلة وكان اذا سبني تهلل وجهه وشمخت نفسه بان ظفر بفضل القحة ونبذ المروءة وخلع ربقة الحياء وقلة الاكتراث بسوء الثناء ومر المسيح عليه السلام على قوم من اليهود فقالوا له شرا وقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده وقال اكثم بن صيفي من حلم ساد ومن تفهم ازداد وكفر النعمة لوم وصحبة الجاهل شؤم ولقاء الاخوان غنم والمباشرة يمن ومن الفساد اضاعة الزاد وسب رجل الشعبي بقبائح نسبها اليه فقال الشعبي ان كنت كاذبا فغفر الله لك وان كنت صادقا فغفر الله لي وقال رجل لابي بكر الصديق رضي الله عنه لاسبنك سبا يدخل معك في قبرك فقال أبو بكر معك والله يدخل لا معي وقال رجل للاحنف بن قيس ان قلت كلمة لتسمعن عشرا فقال له الاحنف لكنك لو قلت عشرا لم تسمع مني واحدة ويروى ان رجلا سب الاحنف وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال يا هذا ان كان بقي معك شئ فقله ههنا فاني أخاف ان سمعك فتيان الحي أن يؤذوك وسب رجل بعض الحكماء فقال له الحكيم لست أدخل في حرب الغالب فيه شر من المغلوب وقال لقيط بن زرارة شعر

فقل لبني سعد فمالي ومالكم * ترقون مني ما استطعتم واعتق
اغركم اني باحسن شيمة * بصير واني بالفواحش اخرق
وأنك قد ساببتني فقهرتني * هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

وقال رجل لابي ذر رضي الله عنه أنت الذي نفاك معاوية من الشام لو كان فيك خير ما نفاك فقال يا ابن أخي ان ورائي عقبة كؤودا ان نجوت منها لم يضرني ما قلت وان لم أنج منها فانا شر مما قلت وقال لقمان لابنه يا بني ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا أخوك الا عند الحاجة اليه وسب رجل بعض الحكماء فاعرض عنه فقال له اياك أعني فقال الحكيم وعنك أعرض وفي هذا المعنى قيل

قل ما بدا لك من زور ومن كذب * حلمي أصم وأذني غير صماء

وقيل يوما للاحنف ما أحلمك فقال لست بحليم ولكني اتحالم والله انى لا سمع الكلمة فاجم لها ثلاثا ما يمنعني من جوابها الا الخوف من ان أسمع ما هو شر منها وقال الشاعر

وليس يتم الحلم للمرء راضيا * اذا كان عند السخط لا يتحلم

كما لا يتم الجود للمرء موسرا * اذا كان عند العسر لا يتجشم

و روى ان رجلا سب جعفر بن محمد رضى الله عنه فقال اما ما قلت مما هو فينا فانا نستغفر الله منه وما قلت مما ليس فينا فانا نكلك فيه الى الله تعالى وقال بعض الحكماء احذروا الغضب فرب غضب استحق الغضبان به غضب الله تعالى وقال اكثم بن صيفي لا يكون الرجل حليما حتى يقول السفيه انه ضعيف مستذل ولا يكون مخلصا حتى يقول الاحمق انه لمفسد ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى * أصبت حليما أو اصابك جاهل

ووصف اعرابي رجلا فقال احلم من فرخ طائر وقال اعرابي ان الغضب عدو العقل ولذلك يحول بين صاحبه وبين العقل والفهم وقال صعصعة بن صوحان الغضب مقدحة العقل فربما أصلد وربما ازند وقال اعرابي اذا جاء الغضب تسلط العطب وكان ابن عوان اذا غضب على أحد من اهله قال سبحان الله بارك الله فيك وقال الاصمعي دفع اردشير الى رجل كان يقوم على راسه كتابا وقال له اذا رأيتني اشتد غضبي فادفعه الى فكان فيه اسكن فلست باله انما أنت بشر يوشك ان يا كل بعضك بعضا وتصير عن قريب للدود والتراب وهذه السيرة أول من سنها ملك تبع أمر أن يكتب في كتاب اسكن فلست باله وقال لصاحبه اذا غضبت فأعرضه على فكان اذا غضب أعرضه عليه فاذا قرأه سكن غضبه وقال معاوية أفضل ما اعطى الرجل العقل والحلم فاذا ذكر ذكر واذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر واذا غضب كظم واذا قدر عفا واذا أساء استعفى واذا وعد أنجز وفي الحكمة مكتوب من أطاع الغضب حرم السلامة ومن عمى الحق غمره الذل وقال بعض الحكماء كظام الغيظ حلم والحلم صبر والتشفي ضرب من الجزع وقال آخر أول الغضب جنون وآخره ندم وقال بعض الحكماء اذا غلب على الرجل أربع خصال فقد عطب الرغبة والرهبة والشهوة والغضب (وقيل) لبعض الصالحين ان فلانا يقع فيك فقال لاغيظن من أمره يغفر الله لى وله قيل له ومن أمره قال الشيطان وقال رجل لاخيه انى مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكرك باشياء رحمتك منها قال فهل سمعتنى اذكره بشئ قال لا قال فاياه فارحم وقال الفضيل ثلاثة لا يلامون على الغضب المريض والصائم والمسافر وقال الاحنف بن قيس لقد تعلمت الحلم من قيس ابن عاصم المنقرى انى جالس معه فى فنائه وهو يحدثنا اذ جاء جماعة يحملون قتيلا ومعهم رجل ماسور فقيل له هذا ابنك قتله أخوك فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ من منطقه ثم أنشد

أقول للنفس تأنيبا وتعزية * احدى يدى أصابتنى ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

ثم التفت الى بعض ولده فقال قم فاطلق عمك وواراخاك وسق الى امه مائة من الابل فانها

غريبة ومن أنبل بيت قالته العرب قول بعضهم

فصح بالحسير خرس بالخنى * رجح الاحلام ذيال الازر

وقال غيره

باحلام عاد لايخاف جليسهم * اذا نطق العوراء عرب لسان

اذا حدثوا لم يخش سوء استماعهم * وان حدثوا أدوا بحسن بيان

وقال المسيح عليه السلام ماحلم من لم يصبر عند الجهل وماقوة من لم يرد الغضب وما عبادة من لم يتواضع للرب تعالى وقيل للاسكندران فلانا وفلانا ينتقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهم فقال هم بعد العقوبة اعذر في ثلبي وتنقيصي (ويروى) ان جرير بن عبد الله بينما هو راكب قد أردف ابنه اذ لقيه رجل فنال منه وجرير ساكت فلما ولى قال له ابنه ياأبت لم سكت عنه قال يابني أفاأوسع جرحي وقال بعض الحكماء متى أشفي غيظي أحين اقدر فيقال لوعفوت أم حين اعجل فيقال لوصبرت وسئل بعض أصحاب الاحنف أكان الاحنف يغضب فقال نعم لولم يغضب مابان حلمه كان يغضبه الشئ يبين في وجهه اليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم ومن لم يغضب من الاشياء التي مثلها يغضب فقد فقد من الفضائل الشجاعة والانفة والحمية والدفاع والاخذ بالثار والغيرة لان هذه الخصال نتائج الغضب ومن فقد الغضب فقد فقد أس الفضائل على ماسنذكر في باب الشجاعة ان شاء الله تعالى وعند فقد الشجاعة تكون المهانة ومن المهانة يكون سفساف الاخلاق ورذالة الطباع فلا يبقى لسائر فضائله موقع وكان يقال من لم يغضب فليس بحليم لان الحليم انما يعرف عند الغضب وقال الشعبي الجاهل خصم والحليم حاكم قال الشافعي من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو جبار وقد كان النبي عليه السلام يغضب ولكنه انما كان يغضب لا لنفسه بل عند انتهاك الحرم وقربه واعلم ان الله تعالى مامدح من لايغضب وانما مدح من كظم الغيظ فقال والكاظمين الغيظ وقد انشد النابغة الجعدي بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام

ولاخير في حلم اذا لم تكن له * بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولاخير في جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ماأورد الامر أصدرا

فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله وكان ابن عمر اذا سافر استتبع سفيها ويقول أستدفع به شر السفهاء عني واعلموا أرشدكم الله أن أحسن خصال الملوك وأجلها قدرا وهي حلية الانبياء ولبسة الاصفياء وجمال السوقة والرؤساء واعظمها في النفوس موقعا واعمها على الرعايا نفعا واخلدها على مر الايام ذكرا واجلها في المحافل والمحاسن نشرا وهي الفضيلة التي تتم سائر الفضائل وتكمل بها سائر المحاسن الحلم وهاأنا أتلو عليك من ذلك مايقضي فيه العجب (هذه) دولة آل العباس أولهم أبو العباس السفاح والى يومنا هذا لم يكن فيهم أجل من المامون بلغ من حلمه انه كان يقول لوعلم الناس مالي في لذة العفو ما تقربوا الى الا بالجرائم فاق حلمه سائر خلفاء بني العباس حتى صار يضرب المثل بحلمه وبهذه الخصلة تهيأ ملكه وقهر أخاه الامين (ومنها) دولة بني أمية أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان الجعدي لم يكن فيهم أحلم من معاوية ولاجرم دانت له الدنيا وملك بها رقاب العرب

والعجم

والعجم وصار حلمه يضرب به المثل ويقتدى به الخلق ويتخلق به العقلاء حتى حكى عنه انه كان يقول لو كان بيني وبين الناس خيط عنكبوت أو شعرة ما انقطعت اذا جذبوا ارسلت واذا أرسلوا جذبت (وهذه) دولة الفرس وكانت أعظم دول الارض وأشدها باسا واكثرها علوا وحكما لم يكن في أكاسرها أحلم من كسرى أنوشروان وصار يضرب به المثل وتطرز بسيرته الكتب والمصنفات فيروى ان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه اتى كبيرا من كبراء فارس فقال له ما أحمد خصال ملوككم فقال السبق لشيرويه رأحمدهم سيرة انوشروان فقال له علي وما كان أغلب خصاله عليه قال الحلم والاناة قال علي هما توأم ينتجهما علو الهمة وبلغ من حلمه انه كان يضيق صدره بحلمه فقال في خصلتان لولا انهما ظاهرتان عند الرعية لنفقت بهما اذ رعا الحلم والاناة فأخلق بخصلة تتم منفعتها ويبقى على الدهر جمالها وتخلد في العلماء والعقلاء والملوك والسوقة بهجتها وحسن مصادرها ومواردها أن يتخذها الملوك شعارا ودثارا وانما قصدت الحكماء من الملوك خاصة فاما من سواهم من الرعية كالاحنف ونظرائه فلا يحصون كثرة

(الباب التاسع والعشرون فيما يسكن الغضب)

فاقول ذلك انك اذا نظرت الى تغير أشكالك وتبدل صورتك واحمرار وجهك وانتفاخ أوداجك وذهاب جنانك وسقط كلامك وفحش ما يخرج من فيك لامسكت عن الغضب ولطالما كنت تستحي أن تتكلم بين يدي الجلساء باليسير الجائز فصمدت تهدر بالكثير الفاحش ولو أن من غضب استذكر اذا صحا وسكن غربه انقلاب صورته وتغير وجهه واضطراب شفتيه وارتعاد أطرافه وسقط كلامه وخوى خطابه والتفاف لسانه وخفة عقله وطيشه ووثوبه من مجلسه كانه نمر وسرعة التفاته يمينا وشمالا كانه قرد وعدم فهمه لما يسمع وقلة التفاته الى من يعظه وينصحه كانه أحمق ومن شؤم الغضب وعظيم بليته انه قد يقتل النفوس ويسلب الروح وكان سبب موت مروان بن عبد الملك انه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام فعجل عليه سليمان فقال يا ابن بلحق أمه ففتح فاه ليجيبه واذا بجنبه عمر بن عبد العزيز فامسك على فيه ورد كلمته وقال يا ابن عبد الملك اخوك وامامك وله السن عليك فقال يا أبا حفص قتلتني قال وما صنعت بك قال رددت في جوفي احر من الجمر ومال لجنبه فمات والعمري انه يزيد على الحق (ومنها) أن ينتقل من الحالة التي كان عليها الى غيرها كانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا كان جالسا فليقم وبهذا المذهب كان يأخذ المأمون نفسه (ويروى) شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور (وكان) بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى بين يديه مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه (وكان) عكرمة يقول في قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت يعني اذا غضبت فانه اذا ذكر الله خاف منه فيزول غضبه (وفي) التوراة يا ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب ولا أمحقك فيمن امحق (ومنها) أن يذكر نفرة القلوب عنه وسقوط منزلته عند أبناء جنسه ووصفهم لقابحه وطيشه وسخفه فيكون ذلك سببا لزوال غيظه (ومنها) أن يذكر انعطاف القلوب عليه وانطلاق الالسنة بالثناء عليه وميل النفوس اليه وان الحلم عز وزين وان

السفه ذل وشين (روى) أبو سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما ازداد رجل بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله (وقال) بعض الحكماء من تذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباده (وكتب) بعض ملوك الفرس كتابا ودفعه الى وزيره وقال له اذا غضبت فناولنيه وفيه مكتوب مالك وللغضب انما أنت بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء (وكان) معاوية كثيرا ما ينشد

انا اذا مالت دواعى الهوى * وانصت السامع للقائل
واعتلج الناس بألبابهم * نقضى بحكم عادل فاصل
نخاف أن تسفه احلامنا * فنخمل الدهر مع الخامل

(وقال) بعض الحكماء اياك وعزة الغضب فانها تفضى الى ذلة العذر وقال الشاعر

واذا ما اعترتك فى الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

وقال غيره

زررنا على غير الفواحش قمصنا * ولم نستجز الا الذى هو أجوز

(وقال) عبد الله بن مسلم بن محارب لهرون الرشيد يا أمير المؤمنين أسألك بالذى انت بين يديه أذل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفا عنه لما ذكره قدرة الله عليه (وقال) رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله تعالى ما يحب من العفو (وقال) المأمون لعمه ابراهيم بن المهدى وكان مع أخيه عليه انى شاورت فى أمرك فاشاروا على بقتلك الا انى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال يا أمير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به العادة فى السياسة الا انك أبيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشا يقول

البر بى منك وطا العذر عندك لى * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير متهم

(وقال) بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لوم (ومنها) أن يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذلة الانتقام وشروع القصاص فى بدنه بين يدى من لا يرحمه فان ذلك مما يرده من الغضب

(الباب الثلاثون فى الجود والسخاء وهذه الخصلة الجليل قدرها العظيم موقعها الشريف موردها ومصدرها)

وهى احدى قواعد المملكة وأساسها وتاجها وجمالها تعنو لها الوجوه وتذل لها الرقاب وتخضع لها الجبابرة ويسترق بها الاحرار ويستمال بها الاعداء ويستكثر بها الاولياء ويحسن بها الثناء ويملك بها القرباء والبعداء ويسود بها فى غير عشائرهم الغرباء (وهذه) الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمال والمتممات وكم قد رأينا من كافر ترك دينه والتزم دين الاسلام ابتغاء عرض قليل من الدنيا يناله وكم قد سمعنا من مسلم ارتد فى أرض الشرك اقتناء يسير من عرض الدنيا واخلق بخصلة يترك لها الانسان دينه الذى يبذل دونه نفسه

ان

أن تكون جليلة القدر عظيمة الخطر وأحوج خلق الله اليها أفقرهم الى عطف القلوب عليه وصرف الوجوه اليه وهم الملوك والولاة (واعلموا) يامعشر من وسع الله عليه دنياه واسبغ عليه آلاءه ونعماءه انه ليس في الجنة لا وحسبك بكلمة لا تدخل الجنة مقوطا رضعة وانما اسست الجنة على ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين (وهذه) الخصلة أعني الكرم والجود والسخاء والايثار بمعنى واحد يوصف البارى تعالى بالجود ولا يوصف بالسخاء كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل لعدم التوقف (وحقيقة) الجود هي أن لا يصعب عليه البذل ويقال السخاء هو الرتبة الاولى ثم الجود ثم الايثار فمن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضر فهو صاحب ايثار (قال) ذو النون بداية السخاء أن تسخو نفسك بما في يديك ونهايته أن تسخو نفسك بما في أيدي الناس وان لا تبالي من كل الدنيا (وتذاكر) قوم من الزهاد عند رابعة العدوية فجعلوا يذمون الدنيا ويكثرون من ذلك فقالت رابعة من أحب شيأ أكثر من ذكره وأصل السخاء هو السماحة وان يؤتى ما يؤتيه من طيبة نفس (وقد يكون) المعطى بخيلا اذا صعب عليه البذل والممسك سخيا اذا كان لا يستصعب العطاء وان منع ولهذا قال علماؤنا ان الله تعالى لم يزل جوادا وان لم يقع منه عطاء في الازل لان العطاء فعل والفعل في الازل مستحيل (وقالت) الحكماء أيها الجامع لا تخدعن فانما كول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو وقال الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (قال) أبو هريرة رضي الله عنه جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني جائع فاطعمني فبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى أزواجه فقلن والذي بعثك بالحق ماعندنا الا الماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم ماعند رسول الله مايطعمك الليلة ثم قال من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله فقال رجل من الانصار أنا يا رسول الله فحمله الى منزله وقال لاهله هذا ضيف النبي صلى الله عليه وسلم فاكرميه ولا تدخري عنه شيأ فقالت ماعندنا الا قوت الصبية فقال قومي فعلليهم عن قوتهم حتى يناموا ثم أسرجي وابرزي فاذا أخذ الضيف يأكل قومي كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالي نمضغ ألسنتنا لضيف النبي صلى الله عليه وسلم ففعلت وجعلا يمضغان ألسنتهما والضيف يظن أنهما يأكلان وباتا طاويين فلما أصبحوا ونظر النبي صلى الله عليه وسلم اليهما تبسم ثم قال لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة ونزلت ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة الآية (وقال) أنس اهدى لبعض الصحابة رأس شاة مشوية وكان مجهودا فوجه به الى جاره فوجه به الجار الى أهل بيت آخر فتداولته سبعة أبيات حتى عاد الى الاول فنزلت ويؤثرون على انفسهم (وقال) حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شئ من ماء وأنا اقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به بين القتلى فقلت أسقيك فاذا رجل يقول آه فاشار ابن عمي ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع آخر يقول آه فاشار هشام أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات ثم رجعت الى هشام فوجدته قد مات ثم رجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات (وروت) عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم السخي قريب من الله

قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة والجاهل السخي احب الى الله من العابد البخيل (وروى) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن آدم انما لك من مالك ما اكلت فافنيت أو لبست فأبليت أو اعطيت فامضيت (واعلم) ان السخاء على وجوه سخاء في الدين وسخاء في الدنيا فالسخاء في الدنيا البذل والعطاء والايثار وسماحة النفس قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وعلامته ترك الادخار وبغض جمع المال وتعاهد الاخوان مسرور اقلبه بذلك والسخاء في الدين ان تسخو نفسك أن يتلفها الله تعالى وتريق دمك في الله سماحة من غير كراهة لا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا وان كنت غير مستغن عن الثواب لان الغالب على قلبك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله تعالى حتى يفعل الله بك مالا تحسن أن تختاره لنفسك (وقيل) لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من السيد قال الجواد اذا سئل الحليم اذا استجهل الكريم المجالسة لمن جالسه الحسن الخلق لمن جاوره (وقال) النعمان بن المنذر يوما لجلسائه من أفضل الناس عيشا وانعمهم بالا واكرمهم طباعا واجلهم في النفوس قدرا فسكت القوم فقال فتى ابيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس في فضله قال صدقت (وقال) الحسن باع طلحة بن عثمان أرضا بسبعمائة ألف درهم فلما جاءه المال قال ان رجلا يبيت هذا عنده لايدري مايطرقه لغرير بالله ثم جعل رسوله يختلف حتى قسمها وما أصبح عنده منها درهم (وكان) أسماء بن خارجة يقول ما أحب ان ارد أحدا عن حاجة لانه ان كان كريما أصون عرضه وان كان لئيما اصون عنه عرضي (وكان) مروان العجلي يتلطف في ادخال الرفق على اخوانه فيضع عند أحدهم الف درهم ويقول امسكوها حتى أعود اليكم ثم يرسل اليهم أنتم منها في حل (وقال) العتبي أعطى الحكم بن عبد المطلب جميع ما يملكه فلما نفد ما عنده ركب فرسه وأخذ رمحه يريد الغزو ومات بمنبج فاخبرني رجل من أهل منبج قال قدم علينا الحكم وهو مملق لاشئ معه فاغنانا قيل كيف أغنا كم وهو مملق فقال ما اغنانا بمال ولكنه علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض فاستغنينا ٭ واكرم العرب في الاسلام طلحة بن عبد الله جاءه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال هذا حائطي بمكان كذا وكذا وقد أعطيت به سمائة ألف درهم يراح بالمال الى العشية فان شئت فالمال وان شئت فالحائط (وروى) ان رجلا بعث الى حنظلة بجارية فوافته بين أصحابه وقال قبيح ان آخذها لنفسي وأنتم حضور واكره ان اخص بها واحدا منكم وكلكم له حق وحرمة وهذه لاتحتمل القسمة وكانوا ثمانين رجلا فأمر لكل واحد منهم بجارية أو وصيف (وقيل) لقيس بن عدهل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها فقالت له انه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان الغد جاء باخرى ونحرها وقال شانكم فقلنا ما اكلنا من التي نحرت البارحة الا اليسير فقال انى لا اطعم أضيافي الفاتت فاقمنا عنده اياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما اردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري لنا منه ومضينا فلما متع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام اعطيتموني ثمن القرى ثم انه لحقنا وقال لتاخذونها والا طعنتكم برمحي فاخذناها وانصرف (وقال) ميمون بن مهران من طلب مرضاة الاخوان بلاشئ فليصحب أهل القبور

(وقال)

(وقال) ابن عباس لا يتم المعروف الا بثلاثة تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته فقد هنأه واذا صغره فقد عظمه واذا ستره فقد تممه (وقال) الحسن كان احدهم يشق ازاره لاخيه بنصفين (وقال) المغيرة فى كل شئ سرف الا فى المعروف (وقيل) للحسن بن سهل لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ونظمه محمد بن حازم فقال

لا الفقر عار ولا الغنى شرف * ولا سخاء فى طاعة سرف
مالك الا شئ تقدمه * وكل شئ أخرته تلف

* واما طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى المعروف بطلحة الطلحات وانما سمى بهذا الاسم لانه كان عظيم البذل فى كل وجه وكان يبتاع الرقاب فيعتقها وكان كل معتق يولد له ولد يذكر سماه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل كل يسمى طلحة فسمى طلحة الطلحات ثم ولى سجستان وفيه يقول الشاعر

نضر الله اعظما دفنوها * بسجستان طلحة الطلحات

فقد بلغه ان معلمه كان فى الكتاب بالحجاز قد قعد به الدهر فارسل اليه مع غلامه مائة ألف وقال سلمها اليه فان يكن مات وله ولد فادفعها الى ولده وان لم يكن له ولد ففرقها على قومه فوافقه الرسول قد مات ولم يعقب ففرقها فى قومه (وقال) زيد بن أسلم وكان من الخاشعين يا ابن آدم أمرك الله أن تكون كريما وتدخل الجنة ونهاك أن تكون لئيما وتدخل النار (وقال) حكيم بن حزام ما اصبحت قط صباحا لم أر ببابى طالب حاجة الا عددتها مصيبة أرجو ثوابها (ولما) مات وجد عليه مائتا ألف دينار ووجد مكتوبا على حجر انتهز الفرص عند امكانها ولا تحمل على نفسك هم مالم يأتك * واعلم ان تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته (وقال) على بن أبى طالب رضى الله عنه ما جمعت من المال فوق قوتك فانما أنت فيه خازن لغيرك (وروى) مالك فى الموطا ان مسكينا سأل عائشة وهى صائمة وليس فى بيتها الا رغيف فقالت لمولاة لها اعطيه اياه فقالت ليس لك ما تفطرين عليه فقالت اعطيه اياه ففعلت فلما امست أهدى لها أهل بيت شاة وكفنها يعنى ملفوفة بالزعفران فقالت لى عائشة كلى هذا خير من قرصك (وقال) عبد الله بن عمر ما كان أحدنا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يحسب ان له فى الفضل شيأ (وقال) الحسن كنا نعد البخيل من يقرض أخاه الدرهم (ومن عجائب) ماروى فى الايثار ماذكره أبو محمد الازدى قال لما احترق المسجد بمصر وظن المسلمون ان النصارى أحرقوه فاحرقوا خانا لهم فقبض السلطان جماعة من الذين أحرقوا الخان وكتب رقاعا فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد ونثرها عليهم فمن وقعت عليه رقعة فعل به مافيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال ما كنت أبالى لولا أم لى وكان بجانبه بعض الفتيان فقال له فى رقعتى الجلد وليست لى أم فادفع الى رقعتك وخذ رقعتى ففعل فقتل ذلك وتخلص هذا (وحكى) ان أبا العباس الانطاكى اجتمع عنده نيف وثمانون رجلا بقرية بقرب الرى ولهم أرغفة لم تسع جميعهم فكسروا الرغفان واطفوا السراج وجلسوا للطعام الى أن كفوا فلما رفع اذا الطعام بحاله لم يأكل منه واحد منهم ايثارا لصاحبه على نفسه (وروى) انه اجتمع بالرملة جماعة من ارباب القلوب فحضر طبق فيه تين اخضر وقد غسق الليل فكان الواحد يمد يده فاذا ظفر بحبة حصرم يأكلها وان ظفر بطيب دفعه الى صاحبه ولم يأكله فلما رفع الطبق اذا الطيب كله فى الطبق لم يأكلوا

منه شيأ (وقال) بعض الرواة دخلت على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تعرى من الثياب
فقلت يا ابا نصر الناس يزيدون الثياب في مثل هذا اليوم وانت تنقص فقال ذكرت الفقراء
وما هم فيه ولم يكن لي ما اواسيهم به فاردت ان اوافقهم بنفسي في مقاساة البرد (وقال) الاستاذ
ابو علي لما سعى غلام خليل بالصوفية الى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم فاما الجنيد فانه
تستر بالفقه وكان يفتي على مذهب ابي ثور واما الشحام والرقام والنوري وجماعة فقبض
عليهم وبسط النطع لضرب اعناقهم فتقدم النوري أمامهم فقال له السياف اتدري لماذا تتقدم
وتسابق قال نعم قال وماذا يعجلك قال أوثر أصحابي بحياة ساعة فتحير السياف وانهى الخبر الى
الخليفة فردهم الى القاضي ليتعرف حالهم فالقى القاضي على أبي الحسن النوري مسائل فقهية
فاجاب عن الكل ثم أخذ يقول ان لله عبادا اذا قاموا قاموا بالله واذا نطقوا نطقوا بالله وسرد
الفاظا حتى أبكى القاضي فأرسل الى الخليفة وقال ان كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الارض
مسلم (ولما) مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه في العيادة فسأل عنهم فقال انهم
يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا ينادي
من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد (ويروى)
ان عبد الله بن جعفر وكان أحد الاجواد خرج الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيها غلام اسود
يقوم عليها فاتى بقوته ثلاثة أقراص ودخل كلب ودنا من الغلام فرمى اليه بقرص فاكله ثم رمى
اليه بالثاني والثالث فاكلهما وعبد الله ينظر فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم
آثرت هذا الكلب قال ما هي بأرض كلاب وانه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت رده قال فما
أنت صانع اليوم قال أطوي يومي هذا قال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وهذا أسخى مني
فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فاعتق الغلام ووهب ذلك له (وقال) النوري
رأيت محمد بن سوقة بالغداة صاحب مائة ألف وبالعشي سألناه من أصحابه خبزة (وقال) أبو عبد
الرحمن دخل أبو عبد الله الروذباري الى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وهناك بيت مقفل
فكسر القفل وأمر بجميع ما وجد فيه من المتاع فانفذوه الى السوق فباعوه وأصلحوا به وقتا
من الثمن فجاء صاحب الروذباري فلم يقل شيأ فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها كساء فدخلت
بيتا ورمت بالكساء وقالت يا أصحابنا هذا أيضا من جملة المتاع فبيعوه فقال زوجها لم تكلفت
هذا باختيارك فقالت اسكت مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شئ ندخره عنه (واما)
عبد الملك بن بحر فورث خمسة آلاف درهم فبعث بها الى اخوانه صررا وقال ما كنت لأسأل
لاخواني الجنة في صلاتي وابخل عليهم بمالي (ويروى) ان الاشعث بن قيس ارسل
الى عدي بن حاتم يستعيره قدورا كانت لابيه حاتم فملأها وبعث بها اليه وقال انا لا نعيرها
فارغة (وقال) بزرجمهر لا عز اثبت اركانا ولا أبذخ بنيانا من بث الكرم واكتساب الشكر
وذلك أن عز التعظيم بالفعل الجميل باق في قلوب الرجال ومن تحصن بالجود وتحرز بالمعروف
فقد ظفر بمن ناواه وربح الشكر والثواب (ويروى) ان عبد الله بن أبي بكر وكان أحد
الاجواد عطش يوما في طريقه فاستسقى من منزل امرأة فاخرجت كوزا وقامت خلف الباب
وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فاني امرأة من العرب مات زوجي منذ أيام

فنحن

فشرب عبد الله وقال ياغلام احمل اليها عشرة آلاف فقالت سبحان الله تستهزئ بي فقال ياغلام احمل اليها عشرين ألفا فقالت أسأل الله العافية فقال ياغلام احمل اليها ثلاثين ألفا فقالت أف لك فحمل اليها ثلاثين ألف درهم فما أمست حتى كثر خطابها (وقال) بعض الرواة قصد رجل الى صديق له فدق عليه الباب فلما خرج قال ما حاجتك قال أربعمائة درهم على دين فدخل الدار وأخرجها اليه ثم دخل الدار باكيا فقالت له امرأته هلا تعللت حين شقت عليك الاجابة قال انما أبكي لاني لم أتفقد حاله حتى احتاج الى مكاشفتي (وقال) أكثم بن صيفي صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجد متكأ (وقال) الفضيل ما كانوا يعدون القرص معروفا (ويروى) عن امرأة من المتعبدات انها قالت لحبان بن هلال وهو في جماعة من أصحابه ما السخاء عندكم قال البذل والايثار قالت فما السخاء في الدين قال أن تعبدى الله تعالى سخية به نفسك غير مكرهة قالت أفتريدون على ذلك جزاء قالوا نعم لان الله تعالى وعد على الحسنة بعشر امثالها قالت فاذا اعطيتم واحدة وأخذتم عشرا فأي شيء سخيتم به وانما السخاء أن تعبدوا الله تعالى متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون بذلك اجرا ألا تستحيون ان يطلع على قلوبكم فيعلم منها انها تريد شيأ بشيء (وقالت) بعض المتعبدات لبعض المتعبدين أتظن السخاء في الدينار والدرهم فقط انما السخاء في بذل مهج النفوس لله تعالى (وقال) أبو بكر الدقاق وليس السخاء ان يعطي الواجد المعدم انما السخاء ان يعطي المعدم الواجد (وقال) الشيخ ابو عبد الرحمن كان الاستاذ أبو سهل الصعلوكي من الاجواد لم يكن يناول احدا شيأ بيده وانما كان يطرحه على الارض فيتناوله الآخذ من الارض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من ان يرى من اجلها يدي فوق يد أخرى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وكان يتوضأ يوما في صحن داره فدخل عليه انسان وسأله شيأ لم يحضره شيء فقال اصبر حتى أفرغ فلما فرغ قال خذ القمقمة واخرج فلما خرج وعلم انه بعد صاح وقال دخل انسان وأخذ القمقمة فمشوا خلفه فلم يدركوه وانما فعل ذلك لانهم كانوا يلومونه على البذل (وفي معناه قال الشاعر)

ملأت يدي من الدنيا مرارا * فما طمع العواذل في اقتصادي
ولا وجبت علي زكاة مال * وهل تجب الزكاة على جواد

(وكان) أبو مرثد أحد الكرام فمدحه بعض الشعراء فقال ماعندي ما أعطيك ولكن قدمني الى القاضي وادع علي عشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسني فان أهلي لا يتركوني محبوسا ففعل ذلك فلم يمسوا حتى دفع اليه عشرة آلاف درهم (وقال) زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وانه ليخيط أزراره بيده (ولما) دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها يا أم المؤمنين اصابتني فاقة فقالت ما عندي شيء فلو كانت عندي عشرة آلاف لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف من عند خالد بن أسيد فارسلت بها في أثره فاشترى جارية بالف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا عباد المدينة محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر (وقال) يحيى بن معين كان جرير بن يزيد في دار المطلب فجاء انسان يسأله فقال للغلام اذهب الى الجواري فقل لهن من أراد منهن ان تصبغ ثيابها فلتبعث بها فجاء الغلام بثياب كثيرة فقال للسائل خذها (وقال الاصمعي) كانت جرت حرب بالبادية ثم اتصلت بالبصرة

فتفاقم الامر فيهما حتى مشى بين الناس بالصلح فاجتمعوا فى المسجد الجامع قال فبعثت وأنا غلام الى ضرار بن القعقاع بن حازم فاستأذنت عليه فاذن لى فاذا هو عليه شملة يخبط نوى لعنزة حلوب فخبرته بمجتمع القوم فأمهل حتى أكلت العنز ثم غسل القصعة وقال يا جارية غدينا فأتته بزيت وتمر قال فدعانى فقذرته أن آكل معه حتى اذا قضى من أكله حاجته وثب الى طين ملقى فى الدار فغسل به يده ثم صاح بالجارية فقال اسقنى ماء فأتته بماء فشربه ومسح فضله على وجهه ثم قال الحمد لله ماء الفرات بتمر البصرة بزيت الشام متى نؤدى شكر هذه النعم ثم قال على بردائى فأتته برداء عدنى فارتدى به على تلك الشملة قال الاصمعى فتجافيت عنه استقباحا لزيه فدخل المسجد وصلى ركعتين ومشى الى القوم فلم تبق حبوة الا حلت اعظاما له ثم جلس فتحمل ما كان بين الاحياء من الديات فى ماله وانصرف (وكان) البهلول بن راشد الفقيه لما حين يعطى كل يوم السجان دينارا فاستكثره أصحابه وكلموه فى ذلك فقال اهم حفص بن عمارة سمعت سفيان الثورى يقول اذا كمل صدق الصادق لم يملك ما فى يديه فخر بهلول على يديه وقبلها وجعل يقول سألتك بالله أنت سمعته يقول هذا الحلف بالله لقد سمعته يقوله (وقال الشاعر)

ذرينى أكن للمال ربا ولا يكن * لى المال ربا تحمدى غبه غدا
أرينى جوادا مات هزلا لعلنى * أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

(وكان) عبد الله بن ابى بكر ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه واربعين عن يساره واربعين امامه واربعين خلفه ويبعث اليهم بالاضاحى والكسوة فى الاعياد ويعتق فى كل عيد مائة مملوك واشترى يوما جارية بعشرة الاف فطلب دابة يحملها عليها فقال رجل هذه دابتى فقال احملوها على دابته الى داره (وقال عبد الله بن زهير) *

وعاذلة تخشى الردى أن يصيبنى * تروح وتغدو بالملامة والقسم
تقول هلكنا ان هلكت وانما * على الله ارزاق العباد كما زعم
وانى احب الخلد لو أستطيعه * وكالخلد عندى أن أموت ولم ألم

(وروى) ان اعرابيا قدم على على بن ابى طالب رضى الله عنه فقال يا امير المؤمنين لى اليك حاجة الحياء يمنعنى أن اذكرها قال فخطها فى الارض فخط فى الارض انى فقير فقال لغلامه يا قنبر اكسه حلتى فكساه الحلة فقال

كسوتنى حلة تبلى محاسنها * فسوف اكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيى ذكر صاحبه * كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا
ان نلت حسن ثناء نلت مكرمة * لا تبغين بما قد نلته بدلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به * كل امرئ سوف يجزى بالذى فعلا

قال على زده مائة دينار فاعطاه اياها فلما ولى الاعرابى قال قنبر يا أمير المؤمنين لو فرقتها فى المسلمين لأصلحت بها من شأنهم فقال مه يا قنبر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اشكروا لمن اثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فاكرموه (وقال) مطرف بن الشخير اذا اراد أحدكم منى حاجة فليرفعها فى رقعة فانى اكره ان ارى فى وجهه ذل الحاجة (قرئ) على القاضى أبى الوليد وأنا اسمع

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى * فليس اليه ما حييت سبيل

ارى الناس خلان الكرام ولا ارى * بخيلا له فى العالمين خليل
وانى رأيت البخل يزرى باهله * فأكرمت نفسى أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته * اذا نال خيرا أن يكون ينيل

(ولعروة بن الورد)

وانى امرؤ عافى انائى شركة * وانت امرؤ عافى انائك واحد
اتضحك منى أن سمنت وأن ترى * بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة * واحسو قراح الماء والماء بارد

(وقال) بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما ملكت على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه (وروى) انه كان عند البهلول بن راشد طعام فغلا السعر فامر به فبيع له ثم أمر ان يشترى له ربع القفيز فقيل له تبيع وتشترى فقال نفرح اذا فرح الناس ونحزن كما حزنوا (ولحاتم طى فقال)

لعمرى لقدما عضنى الجوع عضة * فآليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائم الآن أعفنى * فان أنت لم تستطع فعض الاصابعا
فهل ما ترون الآن الا طبيعة * فكيف بتركى يا ابن أم الطبائعا

(وقال آخر)

أصون عرضى بمالى لا أدنسه * لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى فأجمعه * ولست للعرض ان اودى بمحتال

(وروى) ان رجلا سأل الحسن بن على رضى الله عنه شيأ فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال ائت بحمال يحمله لك فاتاه بحمال فاعطاه طيلسانه وقال يكون كراء الحمال من قبلى (وروى) ان الليث بن سعد سألته امرأة سكرجة عسل فامر لها بزق عسل فقيل له فى ذلك فقال انها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر نعمتنا (وروى) ان رجلا استضاف لعبد الله بن عامر بن كريز فلما اراد الرجل ان يرتحل لم يعنه غلمانه فسئل عن ذلك فقال عبد الله انهم لا يعينون من ارتحل عنا (وفى معناه يقول المتنبى)

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

(الباب الحادى والثلاثون فى بيان الشح والبخل وما يتعلق بهما)

الشح فى كلام العرب البخل ومنع الفضل * كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم انى أعوذ بك من شح نفسى واسرافها ووسواسها (وروى) جابر أن النبى عليه السلام قال اتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا الدماء واستحلوا محارمهم وقد فرق بينهما قوم فقالوا الشح أشد من البخل فان البخل أكثر ما يقال فى النفقة وامساكها قال الله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال تعالى ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه وقال تعالى فى الشح أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا وقال تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فالشح يدل على الكزازة والامتناع فهو يكون فى المال وفى جميع منافع البدن (وقال) ابن عمر ليس الشح أن يمنع الرجل ماله وانما الشح ان يطمع فيما ليس له ولهذا قال ابن المبارك سخاء

النفس عما فى ايدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل (وقال) رجل لابن مسعود انى أخاف ان أكون قد هلكت سمعت الله تعالى يقول ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وانا رجل شحيح لا يكاد ان يخرج من يدى شئ فقال له ابن مسعود هذا ليس بالشح الذى ذكره الله تعالى فانه أن تأكل مال أخيك ظلما ولكن ذلك البخل وبئس الشئ البخل ففرق بينهما كما ترى (وقال) ابن عباس الشح أن يتبع هواه فلم يقبل الايمان وقال طاوس الشح ان يبخل المرء بما فى ايدى الناس والبخل ان يبخل بما فى يديه (وروى) أنس ان النبى عليه الصلاة والسلام قال برئ من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف واعطى فى النائبة (وقال) ابن زيد من لم يأخذ شيأ نهاه الله عنه ولم يدعه الشح الى ان يمنع شيأ أمر الله به فقد وقاه شح نفسه (وقال) أبو الهياج الاسدى رأيت رجلا فى الطواف يقول اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك شيأ فسألته عن ذلك فقال اذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل شيأ يكرهه الله تعالى واذا الرجل عبد الرحمن بن عوف (واعلم) ان البخل يكون من سوء الظن بالله أن لا يخلف ولا يثيب وهذا يوهن التصديق بما تكفل الله به ويطرق الخلل والامتناع الى جميع الاوامر بين العبد وبين الخالق وبين العبد وبين الخلق فى ترك معاونتهم والنصح لهم (وقال) كسرى لاصحابه أى شئ أضر بابن آدم قالوا الفقر فقال كسرى الشح أضر من الفقر لان الفقير اذا وجد اتسع والشحيح لا يتسع أبدا ولما قدم الشافعى من صنعاء الى مكة كان معه عشرة آلاف دينار فقالوا له تشترى بها ضيعة فضرب خيمته خارج مكة وصب الدنانير فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة فلما جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب ولم يبق شئ (ولما) قربت وفاته قال مروا فلانا يغسلنى وكان الرجل غائبا فلما قدم اخبر بذلك فدعا بتذكرته فوجد عليه سبعين ألف درهم دينا فقضاها وقال هذا غسلى اياه (وروى) ان رجلا أراد ان يؤذى عبد الله بن عباس فاتى وجوه البلد وقال يقول لكم ابن عباس تغدوا اليوم عندى فاتوه فملؤا الدار فقال ما هذا فاخبر الخبر فامر ان تشترى الفواكه فى الوقت وامر بالخبز والطبخ فاصلح القرى فلما فرغ قال لو كلا نه أموجود لنا هذا كل يوم قالوا نعم قال فليتغد هؤلاء كلهم كل يوم عندنا * ومن الخصال الجارية مجرى الكمال والجمال ولعلها من الاصول الصبر

(الباب الثانى والثلاثون فى الصبر)

الصبر زمام سائر الخصال وزعيم الغنم والظفر وملاك كل فضيلة وبه ينال كل خير ومكرمة قال الله تعالى وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فعظم وظائف الدين ذكرها الله ورسوله بجزاء معلوم الا من أقامها الا الصبر فانه بغير حساب وقال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا قيل عن الدنيا وقال ابن عيينة لما أخذوا برأس الامر جعلهم الله رؤساء وقال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون وقال تعالى قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ثم ندبهم الى الصبر مع وجود الاذى فقال وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور فالصبر حبس النفس على الاوامر والمكاره وعن النواهى والمعاصى الاترى ان أهل الجنة نودوا فقيل لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار فاخبر الله تعالى انه أثابهم جنته بصبرهم يعنى صبرتم على

طاعة الله وصبر تم عن معصية الله قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة
والعشي اى احبس نفسك الآية فمن امارات حسن التوفيق وعلامات السعادة الصبر في
الملمات والرفق عند النوازل (وفيما يروى) ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود
من صبر علينا وصل الينا (وقال) سفيان بلغنا ان لكل شئ ثمرة وثمرة الصبر الظفر قال الله تعالى
يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فعلق الفلاح على
الصبر والتقوى يعني اصبروا على ما فرض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه قولان قيل
رابطوا على الجهاد والثاني رابطوا على انتظار الصلوات بدليل ما روى ابو هريرة رضي الله عنه قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى
يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد
الصلاة فذلكم الرباط (وقال) الحسن في قوله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال
ابتلاه بالكوكب فصبر وابتلاه بذبح ابنه فصبر وقال سبحانه وتعالى استعينوا بالصبر والصلاة ان
الله مع الصابرين فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم قال قولا عظيما فجعل نفسه مع الصابرين دون المصلين
وقال النبي عليه الصلاة والسلام للانصار ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف
يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر
(وقال ابن مسعود) قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما فقال رجل من الانصار والله انها القسمة
ما أريد بها وجه الله فاخبرت النبي عليه الصلاة والسلام فشق عليه وتغير وجهه وغضب حتى
وددت اني لم أكن أخبرته ثم قال قد اوذي موسى باكثر من هذا فصبر (وروى) ان النبي عليه
الصلاة والسلام مر على امرأة تبكي عند قبر فقال لها اتقي الله واصبري فقالت اليك عني فانك لم
تصب بمثل مصيبتي فلما قيل لها هذا رسول الله جاءت اليه تعتذر انها لم تعرفه وقالت سأصبر فقال
النبي عليه الصلاة والسلام انما الصبر عند الصدمة الاولى ويحتمل هذا الحديث وجهين اما
الطابي فقال معناه ان الصبر المحمود عند أول نزول المصيبة قد فاتك بالجزع واما القابسي
فقال معناه ان الصدمة الاولى وقت امرها النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر وكان هذا تعليما لكل
من فاته الصبر بذهول أو نسيان او غلبة (ويروى) ان النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن الايمان
فقال الصبر والسماحة (وفي منثور الحكم) قالت الصحة انا لاحقة بارض المغرب قال الجوع
وأنا معك قال الايمان انا لاحق بارض الحجاز قال الصبر وأنا معك قال الملك انا لاحق بارض
العراق قال القتل انا معك (واعلم) ان العجلة خرق ومخرجها من قلة العقل والخرق من ذلك
التفريط في الامر بعد القدرة ومثل ذلك كالقدر على النار ان كان ماؤه قليلا غلت بيسير
من النار وان كانت مملوءة لم تغل حتى تكثر نارها وتطول مدتها وفي كتاب جاويدان خرد وليس
للعجم كتاب مثله قال محرم على السامع تكذيب القائل الا في ثلاث هن غير الحق صبر الجاهل
على مضض المصيبة وعاقل ابغض من أحسن اليه وحماة أحبت كنة

(فصل) واعلم ان الصبر على أقسام صبر على ما هو كسب للعبد وصبر على ما ليس بكسب
فالصبر على الكسب على قسمين صبر على ما امر الله تعالى به وصبر على ما نهى الله عنه فاما الصبر على
ما ليس بكسب للعبد فكصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما فيه مشقة وينقسم

من وجه آخر على أربعة اقسام فاول اقسامه وأولاها الصبر على امتثال أمر الله سبحانه والانتهاء عما نهى عنه والثاني الصبر على مافات ادراكه من مسرة أو تقضت أوقاته من مصيبة والثالث الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها والرابع الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من امر مخوف وجميع أقسامه محمود بكل لسان وفي كل ملة وعند كل امة مؤمنة او كافرة (وقال اكثم بن صيفي) من صبر ظفر (وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه) الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو (وقال اردشير) الصبر الدرك (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ضياء وبالصبر يتوقع الفرج (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب (وقال ابن عباس) افضل العدة الصبر عند الشدة (وقال عبد الحميد الكاتب) لم اسمع اعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو كان الصبر والشكر مطيتين ما باليت ايهما ركبت (وقال) بعض الحكماء بالصبر على مواقع المكروه تدرك الحظوظ (وقال) ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون قوي الجسد على الكد والعمل فان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور محتملا ولجاشه عند الحفائظ مرتبطا (وفي منثور الحكمة) من احب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا (وقال) بزرجمهر لم اوظهيرا على نتل الدول كالصبر ولا مذلا للحساد كالتحمل ولا مكسبة للاجلال كتوقي المزاح ولا مجلبة للمقت كالاعجاب ولا متلفة للمروءة كاستعمال الهزل في موضع الجد (فاما القسم الاول) وهو الصبر على امتثال اوامر الله تعالى والانتهاء عن محارمه فبه يصح اداء الفرائض واستكمال السنن ويدخل في قوله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد (وقال الجنيد) المسير من الدنيا سهل هين على المؤمن وهجر الخلق في جنب الله شديد والمسير من النفس الى الله شديد والصبر مع الله تعالى شديد وسئل عن الصبر فقال تجرع المرارة من غير تعبيس (وكان حبيب بن ابي حبيب) اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب بكى ثم قال واعجباه اعطى واثنى (وقال الخواص) الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة (وقال عبد الواحد بن زيد) من نوى الصبر على طاعة الله تعالى صبره الله تعالى عليها وقواه ومن عزم على الصبر عن معصية الله تعالى اعانه الله تعالى وعصمه منها (وقال عمر بن عبد العزيز) للقاسم بن محمد أوصني فقال القاسم عليك بالصبر في مواضع الصبر (وقال الحسن) الصبر صبران صبر عند المصيبة وصبر عما نهى الله عنه وهو الافضل وانما يختلف الصبر بالخوف والرجاء فان من خاف شيأ صبر على النار منه وصبر عند الكراهية لما يحذر من ضرره ومن رجا شيأ صبر على طلبه ليظفر به (واما القسم الثاني) وهو الصبر على مافات ادراكه من مسرة أو تقضت أوقاته من مصيبة فانه يتعجل به الراحة مع اكتساب المثوبة فان صبر طائعا استراح واحرز الثواب وان لم يصبر حمل الهم والوزر (وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه) للاشعث بن قيس ان تجزع فقد استحق ذلك منك بالرحم وان تصبر ففي ثواب الله تعالى خلف من ابنك ان تصبر جرى عليك القلم وأنت ماجور وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور ونظمه أبو تمام فقال

وقال على فى التعازى لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة * فتؤجر أم تسلو سلو البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والعزا * وتلك الايامى للبكا والمآتم

(وقال عمر بن الخطاب) رضى الله عنه لرجل ان صبرت مضى امر الله وكنت ماجورا وان جزعت مضى امر الله وكنت مأزورا (وقال الحسن) والله لو كلفنا الجزع ما قمنا به فالحمد لله الذى آجرنا على مالو نهانا عنه لصرنا اليه وعن هذا قالت الحكماء الجزع اتعب من الصبر ففى الجزع التعب والوزر وفى الصبر الراحة والاجر ولو صور الصبر والجزع لكان الصبر احسن صورة وأكرم طبيعة وكان الجزع اقبح صورة واخور طبيعة ولكان الصبر أولاهما بالغلبة لحسن الخلقة وكرم الطبيعة (وقال بعض العلماء) لو وكل الناس بالجزع للجؤا الى الصبر (وقال شبيب بن شيبة للمهدى ان المرء أحق ما صبر عليه مالم يجد سبيلا الى دفعه وأنشد

وإذا اتصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

(وقال آخر)

وعوضت أجرا من فقيد فلا تكن * فقيدك لا يأتى واجرك يذهب

(وقال) بعض الحكماء ليس بمجموع له الرشد من تابع التلهف على فائت أو أكثر الفرح عند مستطرق (وقال) الحكيم ان كنت جازعا على ما تفلت من يديك فاجزع على مالم يصل اليك ومن ايقن ان كل فائت الى نقصان حسن عزاؤه عند نزول القضاء (وقال الشاعر)

اذا طال بالمحزون أيام صبره * كساه ضنا طول المقام على الصبر
ولا شك ان الصبر يحمد غبه * ولكن انما ألقى عليه من العمر

(وقال بعض القدماء) الصبر على أربع مراتب على الشوق والاشفاق والزهد والترقب فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصيبات ومن راقب الموت اقصر عن الخطيآت (واما القسم الثالث) وهو الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها فبالصبر والتلطف تدفع عادية ما يخاف وينال نفع ما يرجو (قال) النبى عليه السلام انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة (وقال محمد بن بشير)

ان الامور اذا اشتدت مسالكها * فالصبر يفتح منها كل مارتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبه * اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا

(وقال بعض الرواة) دخلت مدينة يقال لها ذفار فبينا انا اطوف فى خرابها اذ رأيت مكتوبا على قصر خراب

يا من ألح عليه الهم والفكر * وغيرت حاله الايام والغير
اما سمعت بما قد قيل فى مثل * عند الاياس فاين الله والقدر
ثم للخطوب اذا احداثها طرقت * واصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
فكل ضيق سيأتى بعده سعة * وكل فوت وشيك بعده الظفر

(وتحته مكتوب بخط آخر) لو كان كل من صبر اعقب الظفر صبرت ولكنا نجد الصبر في العاجل يفني العمر ويدني من القبر وما كان أصلح لذي العقل موته وهو طفل والسلام (قلت) لو رأيته لكتبت تحته في الصبر استعجال الراحة وانتظار الفرج وحسن الظن بالله والاجر بغير حساب وفي الجزع استعجال الهم ونهك البدن واستشعار الخيبة وسوء الظن بالله وحمل الاثم مع العقوبة وما أحسن بذي العقل اجتناب هذا والسلام (وقال بعض البلغاء) من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعماء (وقال الشاعر)

الصبر مفتاح كل خير * وكل شر به يهون
اصبر وان طالت الليالي * فربما ساعد الحرون
وربما نيل باصطبار * ما قيل هيهات لا يكون

(وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله) ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه صبرا الا كان ما عوضه أفضل مما انتزعه منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (وروى) ان جارية كانت لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه تتصرف في حوائجه فكلما خرجت تصدى لها خياط كان بقرب دار علي ويقول لها والله اني لأحبك لله فلما اكثر من ذلك شكته الى علي فقال لها علي اذا قال لك مرة اخرى فقولي له والله اني لأحبك ما الذي تريد فعاد فقال لها ذلك فقالت له وانا والله احبك فيه فقال لها تصبرين واصبر حتى يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فرجعت الجارية واخبرت مولاها فدعا علي رضي الله عنه الخياط فوجد أمره على الصحة فوهبها له مع نفقة يستعين بها (وقال) علي رضي الله عنه الصبر كفيل بالنجاح والتوكل لا يخيبه والعاقل لا يذل باول نكبة ولا يفرح باول رفعة وكان يقال الصبر سلامة والطيش ندامة (واما القسم الرابع) وهو الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فالصبر فيه تنفتح وجوه الآراء وتتوقى مكايد الاعداء قال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى واصبر وما صبرك الا بالله وقال تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور * وروى ابن عباس ان النبي عليه السلام قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب واليسر مع العسر (وقال علي رضي الله عنه) الصبر مناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان * وقال الحكيم بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور (وانشدوا)

انما اجزع مما أتقي * فاذا حل فمالي والجزع

ولما حبس ابو ايوب في الحبس خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وقل صبره وكتب الى بعض اخوانه يشكو طول حبسه وقلة صبره فرد عليه جواب رقعته

صبرا أبا ايوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذي عقد الذي انعقدت به * عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة * فلعلها أن تنجلي ولعلها

فلما وقف عليها ابو ايوب كتب اليه

صبرتني ووعظتني فانا لها * وستنجلي بل لا اقول لعلها

ويحلها

ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها
فالبث بعد ذلك الا ايا ما حتى اطاق مكرما (ولتميم بن المعز)

سأسكت صبرا واحتسابا فانني * ارى الصبر سيفا ليس فيه فلول
عذابي أن اشكو الى الناس أنني * عليل ومن اشكو اليه عليل
وان الذي يشكو الى غير نافع * ويشكو بما في نفسه لجهول

(وانشدوا)

دع الدهر يجري بأقداره * ويقضي عجائب أوطاره
ونم نومة عن ولاة الامور * وخل الزمان بتدواره
فانك ترحم من قد غبطت * وتعجب من قبح آثاره

(وانشدني بعضهم)

ويمنعني الشكوى الى الناس أنني * عليل ومن اشكو اليه عليل
ويمنعني الشكوى الى الله أنه * عليم بما ألقاه قبل أقول

ولآخر

اذا ابتليت فثق بالله وارض به * ان الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لا تيأسن فان الصانع الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لامرئ حيلة فيما قضى الله

وصرف من هذه اللفظة صابر وصبور وصبار ومتصبر فالمتصبر من صبر في الله على المكاره فتارة يجزع وتارة يصبر والصابر من لا يشكو ولا يجزع والصبار الذي لو دفع عليه جميع البلايا والمحن لم يتغير وجهه في الحقيقة وان تغير من وجهه الرسم والبشرية والخلقة كما قال القائل

صابر الصبر فاستغاث به الصبـ * ـر فصاح الصبور يا صبر صبرا

وهذا اقوى بيت قيل في الصبر واحسنه وقريب منه قول القائل

صبرت على الايام صبرا اصارني * الى ان ينادي الحال لا صبر للصبر

والصبور هو الثابت على هذه المقامات وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق باخلاقي وان من اخلاقي أني انا الصبور ويقال الصبر لله عنى والصبر بالله تقى والصبر في الله بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وأنشدوا

اذا لعب الرجال بكل شئ * رأيت الحب يلعب بالرجال
وكيف الصبر عمن حل مني * بمنزلة اليمين مع الشمال

وقال المحاسبي بين الصبر والتصبر حالة هي التنعم وذلك اذا رفع الله له علما من أعلام الآخرة يدله على منازل الصابرين عنده فيتنعم القلب بسرور النعيم وقال أبو محمد الجريري الصبر هو ان لا تفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما والصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان اثقال المحنة وأنشدوا

صبرت ولم أطلع هواك على صبري * واخفيت ما بي منك عن موضع الصبر
مخافة ان يشكو ضميري صبابتي * الى دمعتي سرا فتجري ولا ادري

وقيل للمحاسبي بماذا يقوى الصابر على صبره فقال اذا علمت ان في صبرك رضا مولاك اما سمعت قول الحكيم

رضيت وقد ارضى اذا كان مسخطى * من الامر ما فيه رضا صاحب الامر

وفي معناه

ساصبر كى ترضى وأتلف حسرة * وحسبى ان ترضى ويتلفنى صبرى

قال شيخنا وثكلك لمن يحبه أعظم من ثكلك لنفسك هذا أيوب لما أصيب بنفسه قال مسنى الضر ويعقوب لما أصيب بحبيبه قال وا أسفا على يوسف قال احمد قال لى أبو سليمان الدارانى اتدرى بماذا أزال العقلاء اللائمة عن اساءاليهم قلت لا قال لعلمهم بان الله تعالى ابتلاهم بذلك فصبروا ويروى ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه اذا أنزلت بعبدى بلائى فدعانى فماطلته بالاجابة فشكانى فقلت عبدى أرحمك من شئ به ارحمك وقيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث قال أنس ما صبر من بث وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تستغزروا الدموع بالتذكر وقال الشاعر * ولا يبعث الاحزان مثل التذكر * ومما يعين على عظم الاسى وشدة الجزع تذكر المسار المنقضية وتصور المضار الذاهبة وكثرة الشكوى والاسف وقال الشاعر

لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق * لا يخرج الغريق بالغريق

وفى منثور الحكم المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين واعلم انه قل من صبر على شدة الا ونال ما يرجوه من فرج وينبغى لمن نزلت به مصيبة أو كان فى شدة ان يسهلها على نفسه ولا يغفل عن تذكر ما يتيقنه من وجوب الفناء وتقضى المسار فان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا ثقة له من صح فيها سقم ومن سقم فيها برم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب لا خيرها يدوم ولا شرها يبقى ولا فيها لمخلوق بقاء فاذا تصور حقيقتها فحينئذ يرى الحوادث سهلة والمصائب هينة وقال الشاعر

يمثل ذو اللب فى نفسه * مصائب من قبل ان تنزلا

فان نزلت بغتة لم ترعه * لما كان فى نفسه مثلا

رأى الامر يفضى الى آخر * فصير آخره أولا

وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يلف متوجعا ومن لم يشعر نفسه ما ذكرنا من أحوال الدنيا وتقضى المسار ثم الثواء فى اللحود بين اطباق الترب والجنادل قد فارقه الاحباء وهجره القرباء والبعداء الفته الحوادث وابقا فسلبته الصبر وضاعفت عليه الاسى وقال ابن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف فهو غير مطاق

وأنشدوا

تعودت مس الضر حتى الفته * واسلمنى حسن العزاء الى الصبر

ووسع صدرى للاذى كثرة الاذى * وان كنت احيانا يضيق به صدرى

وحسن لى ياسى من الناس كلهم * لعلى بصنع الله من حيث لا ادرى

ولبعض الاعراب

تعز فان الصبر بالحر أجمل * وليس على ريب الزمان معول

فلو كان يغنى ان يرى المرء جازعا * لنائبة أو كان يغنى التبذل

لكان التعزي عند كل مصيبة * ونازلة بالحر أولى وأجمل
فكيف وكل ليس يعدو حمامه * وما لامرئ عما قضى الله مرحل
فان تكن الايام فينا تبدلت * ببؤس ونعمى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صليبة * ولا ذللتنا للذى ليس يجمل
ولكن وجدناها نفوسا كريمة * تحمل ما لا تستطيع فتحمل
وقينا بفضل الله منا نفوسنا * فصحت لنا الاعراض والناس هزل

(الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر)

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا فلما أفشى يوسف رؤياه شهد امرأة يعقوب آخبرت اخوته فحل به ما حل وفى الحديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود واعلم ان كتمان السر من الخصال المحمودة فى جميع الخلق ومن اللوازم فى حقوق الملوك ومن الفرائض الواجبة على الوزراء وجلساء الملوك والاتباع * قال على رضى الله عنه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم ان امناء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من امناء الاموال وحفظ الاموال أيسر من كتم الاسرار فان أحراز الاموال منيعة بالابواب والاقفال وأحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وعبء الاسرار أثقل من عبء الاموال وان الرجل يستقل بالحمل الثقيل يحمله ويمشى به ويقله ولا يستطيع كتم السر وان الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه بحمل الاثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن جاشه وكأنما ألقى عن نفسه جبلا وقال عمر بن عبد العزيز القلوب أوعية والشفاه اقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره * ومن اعجب الامور ان اغلاق الدنيا كلما كثرت خزانها كان اوثق لها الا السر فانه كلما كثر خزانه كان أضيع له وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن من سطواته قال انوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقال بعض الحكماء سرك من دمك فلا تجره فى غير أوداجك فاذا تكلمت به فقد أرقته وكان لعثمان بن عفان رضى الله عنه كاتب له يقال حمران فاشتكى عثمان فقال اكتب العهد بعدى لعبد الرحمن بن عوف فقال حمران لعبد الرحمن البشرى فقال عبد الرحمن لك البشرى بماذا فاخبره الخبر فانطلق عبد الرحمن فاخبر عثمان فقال عثمان اعاهد الله أن لا يساكننى حمران أبدا ونفاه الى البصرة فلم يزل بها حتى قتل عثمان رضى الله عنه واعلم ان كتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال وكما انه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها فلا خير فى انسان لا يمسك سره ويروى ان رجلا أودع سره عند رجل فقال له افهمت قال بل جهلت قال احفظت قال بل نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمك للسر قال اجحد المخبر واحلف للمستخبر وقال الشاعر

ولو قدرت على كتمان ما اشتملت * منى الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت أول من يخفى سرائره * اذ كنت من نشرها يوما على خطر

قال شيخنا ومن احسن شئ سمعته فى كتمان السر ما أنشدنيه بعض فقهاء البصرة بالبصرة فقال

وإما سرا أثر في الضمير طويتها * نسي الضمير بأنه باقي طيه
وفي معناه ومستودعي سرا كتمت مكانه * عن الحس خوفا ان ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهرة * فاودعته في حيث لا تبلغ النفس
قال العتبي أسر معاوية رضي الله عنه الى عثمان بن عنبسة حديثا فقلت لابي ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا افاحدثك به قال لا من كتم حديثا كان الخيار له ومن أظهره كان الخيار عليه فلا تجعل نفسك مملوكا بعد أن كنت مالكا فقلت يا ابت أيدخل هذا بين الرجل وأبيه قال لا يا بني ولكن اكره ان تذلل لسانك بافشاء السر قال فحدثت به معاوية فقال أعتقك أخي من رق الخطا وقيل لبعض الملوك ما اصعب الاشياء على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم سره وقال قيس ابن الخطيم
اجود بمكنون البلاد واني * بسرك عمن سالني لضنين
اذا جاوز الاثنين سر فانه * بنث وتكثير الوشاة قمين
وان ضيع الاقوام سرا فانني * كتوم لاسرار العشير أمين
يكون له عندي اذا ما ضمنته * مكان سويداء الفؤاد مكين
قال شيخنا قلت الناس يقولون أراد بالاثنين المودع والمودع ولا يبعد ان يريد به الشفتين وكان يقال اصبر الناس من صبر على كتمان سره فلم يبده لصديقه فيوشك ان يصير عدوا وقد روي في الحديث عن النبي عليه السلام انه قال اذا حدث الرجل الرجل ثم التفت فهي امانة قلت واذا كانت امانة حرمت فيها الخيانة كالامانة في الاموال وقال أبو بكر بن حزم انما يتجالس المتجالسان بامانة الله فلا يحل لاحدهما ان يفشي على صاحبه ما يكره وقال هشام بن عروة ما من رجل ينتقص من امانته الا انتقص ايمانه وقال جعفر بن عثمان
يا ذا الذي اودعني سره * لا ترج أن تسمعه مني
لم أجره قط على فكرتي * كانه لم يجر في اذني
وكان عمرو بن العاص يقول ما افشيت سري الى رجل فافشاه على فلمته اذا كان صدري اضيق به وقال الاحنف بن قيس يضيق صدر أحدهم بسره حتى يحدث به ثم يقول اكتمه علي وفي منثور الحكم انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وأنشدوا
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر اضيق
وفي منثور الحكم من أفشى سره كثر عليه المتآمرون وقال الشاعر
وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي
وقال آخر ولا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشي
وقال آخر تبوح بسرك ضيقا به * وتبغي لسرك من يكتم
وكتمانك السر مما تخاف * وفيما تحاذره أحزم
اذا ذاع سرك من مخبر * فانت اذا لمته ألوم
وقال آخر اذا ما ضاق صدرك من حديث * وافشته الرجال فمن تلوم
وان عاتبت من افشى حديثي * وسري عنده فانا الملوم

وقال الحكيم ما كتمته من عدوك فلا تطلعن عليه صديقك فان لم يكن لك بد من اذاعته لقرينة تقتضيه من صديق مساهم أو استشارة ناصح مسالم فى صفات أمين الاسرار ان يكون ذا عقل ودين ونصح ومروءة فان هذه امور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة ومن كملت فيه فهو عنقاء مغرب ولا تودع سرك عند من يستدعيه فان طالب الوديعة خائن قال صالح بن عبد القدوس لا تذع سرا الى طالبه منك والطالب للسر مذيع وفى الجملة اذا زال سرك عن عذبة لسانك فالاذاعة مستولية عليه وان أودعته قلب ناصح محب فاحتمال مرارة الكتمان على قلبك أسهل عليك من التململ بتملك سرك غيرك واعلم ان افشاء سر غيرك أقبح من اظهار سر نفسك لانه يبوح باحدى وصمتين اما الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستخبرا وقال بعض الحكماء لابنه يابنى كن جوادا بالمال فى مواضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق فى وجه البر والبخل بمكتوم السر وكان يقال صدور الاحرار قبور الاسرار وقال الشاعر

الم تر ان وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا
فلا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا

وقال غيره

ما كل مكتوم يباح به * احذر لسانك من جوانبه
ليس الهوى ما كنت تعرفه * أيام تلعب فى جوانبه
هذا هوى لو قد فصحت به * ضحك الحسام الى مضاربه

(الباب الرابع والثلاثون فى بيان الخصلة التي هى رهن بسائر الخصال وزعيم بالمزيد من النعماء والامن ذى الجلال)

وهى الشكر قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وقد آتاه الله ملك الدنيا والجن والانس والطير والوحش والرياح تجرى بامره كيف أراد فلما استمكن ملكه قال صلى الله عليه وسلم هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فاعدها نعمة كما عدها ملوك الارض ولا حسبها كرامة من الله تعالى عليه كما ظنها ملوك الارض بل خاف ان تكون استدراجا من حيث لا يعلم كما قال تعالى فى أمة أرادها لاكهم سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم ان كيدى متين جاء فى التفسير أصب عليهم النعم وانسيهم الاستغفار وانما الفرح بما أوتى من الدنيا والغبطة بزهرتها والاغترار بزخرفها من شعار الكفار الاترى الى قول قارون اللعين انما أوتيته على علم عندى وكان جوابه ما قال الله تعالى فخسفنا به وبداره الارض ولما خاف سليمان عليه السلام ان يكون استدراجا كان جوابه ما قال الله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب واعلم ارشدك الله ان الشكر ليس هو حافظا للنعم فقط بل هو مع حفظه لها زعيم بزيادة النعم وأمان من حلول النقم والشكر على ثلاث مراتب شكر بالقلب وشكر باللسان وشكر بالجوارح فاما الشكر الواجب على جميع الخلق فشكر القلب وهو ان يعلم ان النعمة من الله وحده ولا نعمة على الخلق من أهل السموات والارض الا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله تعالى عن نفسك وعن غيرك بمعرفة نعم الله تعالى عليك وعلى غيرك وهذا النوع هو الذى يقال فيه يجب على العبد أن يشكر الله على نعمة اسديت الى غيره

والدليل على ان الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أى ايقنوا انها من الله والى هذه الكلمة انتهى جميع ما قاله الخلق فى الشكر والدليل عليه أيضا قوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون أى اتقونى فانه شكر نعمتى وخلق الله تعالى الحياة نعمة على العبد قال الله تعالى ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون والعبارة عنه أن يقال الشكر اعتراف القلب بانعام الله تعالى على وجه الخضوع ويقال فيه الشكر اعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة وقال أبو عثمان الشكر معرفة العجز عن الشكر وروى ان داود عليه السلام قال الهى كيف اشكرك وشكرى لك نعمة من عندك فاوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتنى وقال وهب بن منبه قال داود عليه السلام الهى ابن آدم ليس منه شعرة الاوتحتها نعمة وفوقها منك نعمة فمن اين يكافؤها فاوحى الله تعالى اليه يا داود انى أعطى الكثير وارضى باليسير وان شكر ذلك ان تعلم ان ما بك من نعمة فمنى وفى هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر وذلك بان ترى شكرك بتوفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعمة فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر الى ما لا يتناهى وهذا الشكر أيضا واجب ولمحمود الوراق

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة * على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الايام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها * وان مس بالضراء أعقبها الاجر
فما منهما الا له فيه نعمة * تضيق بها الاوهام والسر والجهر

ومن أقر بنعم الله واحسانه فقد أقر بقدر ما كاف لان أحدا لا يمكنه ان يوازى شكر نعم الله تعالى وفى مناجاة موسى عليه السلام الهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال أن يعلم أن ذلك منى فكان معرفته بذلك شكره لى

(فصل) واما شكر اللسان فقال الله تعالى فيه واما بنعمة ربك فحدث قيل يعنى النبوة وقيل يعنى القرآن وحكم الآية عام فى جميع النعم وروى النعمان بن بشير أن النبى عليه الصلاة والسلام قال من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال تعالى حكاية عن أهل الجنة انهم قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده قال عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما حفر نهر البصرة الذى يقال له نهر عمر انى حفرت لاهل البصرة نهرا عذب لهم شربه وجادت عينه ولم أرلهم على ذلك شكرا فان اذنت لى قسمت عليهم ما أنفقت عليه فكتب اليه عمر بن عبد العزيز انى لا أحسب أهل البصرة خلوا من رجل قال الحمد لله حين حفرك هذا النهر وان الله قد رضيها شكرا من جنته فارض بها شكرا من نهرك والسلام وحقيقة الشكر فى هذا القسم الثناء على المحسن بذكر احسانه وعلى هذا القول يوصف الرب تعالى بانه شكور حقيقة فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكر احسانه وشكر الله للعبد ثناؤه عليه باحسانه واحسان الرب للعبد انعامه عليه وهذه اللفظة ماخوذة من قولهم دابة شكور اذا اظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف ويقال وجه شكور اذا كان عليه المحاسن ظاهرها وفى الحديث يقول الله تعالى انا والجن والانس فى نبأ عظيم اخلق ويعبد

غيري وارزقني ويشكر غيري وقال بعضهم انما أتي الناس لانهم في موضع صبرهم يحسبون انهم في موضع شكر

(فصل) واما الشكر الذي على الجوارح فقال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور فجعل العمل شكرا وقال عطاء دخلت على عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير فقال لها عبيد يا أم المؤمنين حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأي شانه لم يكن عجبا انه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي قالت قلت اني أحب قربك فأذنت له فقام الى قربة من ماء فتوضأ وأكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال افلا أكون عبدا شكورا فلم لا أفعل وقد أنزل علي ان في خلق السموات والارض فجعل النبي عليه الصلاة والسلام الشكر بالعمل وبين به مراد الكتاب قال الله تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر أو أراد شكورا أي كل واحد منهما يخلف الآخر فمن فاته العمل في أحدهما عمله في الآخر فجعل الاوراد والاعمال بالجوارح شكرا *وروى ان النبي عليه السلام قام حتى انتفخت قدماه فقيل يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال افلا أكون عبدا شكورا *وقال أبو هرون دخلت على أبي حازم فقلت له رحمك الله ما شكر العينين قال اذا رأيت بهما خيرا أذعته وان رأيت بهما شرا سترته قلت له فما شكر الاذنين فقال اذا سمعت بهما خيرا حفظته واذا سمعت بهما شرا سترته قلت فما شكر اليدين قال أن لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حق الله تعالى فيهما قلت فما شكر البطن قال ان يكون أسفله صبرا وأعلاه علما قلت فما شكر الفرج قال كما قال الله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فان أنت فعلت فأنت الشاكر حقا وفي حكمة ادريس عليه السلام لن يستطيع أحد ان يشكر الله تعالى على نعمة بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا الى الخلق مثل ما صنع به الخالق تعالى واذا ثبت ان فعل الطاعات شكر فان فيها ما هو أشد ملازمة من غيره فالطاعة في مواساة الفقراء أشكل بالشكر على الغنى من غيرها لانها من جنس النعمة فاذا أردت أن تحرس دوام نعم الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء والطاعة في رفع ذوي الضعة والخمول والمسكنة بغير معصية أشبه بالشكر على رفع قدرك والتنويه باسمك والطاعة في تمريض الفقراء وتلطف أغذيتهم أشبه بالشكر على العافية من سائر الطاعات والطاعة في الشفاعات عند السلطان وقضاء حوائج الغرباء والاخوان أشبه بذوي الجاه من سائر الطاعات وعلى هذا المثال ينبغي ان يقال سائر نعم الله تعالى على العبد ومن العبارات الجامعة للشكر أن يقال معرفة بالجنان وذكر باللسان وعمل بالجوارح

(فصل) في الكلام على الزيادة قال الله تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم فقال قوم انما خاطب الله تعالى بهذا وبقوله ادعوني استجب لكم قوما دون قوم والدليل عليه انا نرى من يشكر على الغنى ثم يبتلى بالفقر ومن يشكر على العافية ثم يبتلى بالمرض والله تعالى لا يخلف

وعده وقال قوم معناه لازيدنكم نعمة الآخرة فان قيل انما تكون الزيادة من جنس المزيد عليه فاجابوا ان النعم الدنيوية والاخروية وان تفاضلت واختلفت فكلها متجانسة من حيث انها نعمة وقال قوم معناه لازيدنكم خيرا والخير والصلاح قد يكون فى كثير من الاوقات بالمنع والسقم ونحوهما فان من سأل الله تعالى ان يعطيه مالا أو يصح جسمه وهو يعلم انه ان وهبه المال أنفقه فى المعاصى أو وهبه الصحة صرف صحته الى المشى فى الآثام فالمنع ههنا موهبة من الله تعالى جزيلة وعن هذا قال العلماء منع الله تعالى عطاء وقال قوم يمكن تقدير الاستثناء فيها أى لئن شكرتم لازيدنكم الا ان تعصوا فاعاقبكم بالحرمان فأجعل ذلك كفارة لكم وهو أصلح من ان اعاقبكم فى الآخرة والناس لا يسلمون من الذنوب ولو تهيأ ان يسلموا من الذنوب لدرت الزيادات قال الله تعالى ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال قوم الآية خاصة لا محالة اذ لو كانت على عمومها لوجب ان لا يموت من شكر على الحياة * قال الشيخ قلت ان الله تعالى وعد الزيادة وقوله الحق وقد جعل الله العبادة علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا انه لم يشكر فاذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه وماله فى نقصان علمنا انه قد أخل بالشكر الذى أخذ عليه اما ان لا يزكيه أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه فيه من كسوة عريان أو اطعام جائع وشبهه فيدخل فى قول النبى صلى الله عليه وسلم لو صدق السائل ما أفلح من رده قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بترك أدب أو اخلال بحق أو المام بذنب كما قال بعضهم ادنى الشكر ان لا تعصى الله بنعمه فان جوارحك كلها من نعم الله تعالى عليك فلا تعصه بها ويحتمل ان يكون معنى الآية لئن شكرتم لازيدنكم ان شئت ألا ترى انه قال ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وكثير من الخلق يريدون حرث الدنيا ولا يؤتونه فيكون التقدير نؤته منها لمن نشاء بدليل قوله فى الآية الاخرى عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وهكذا قوله تعالى ادعونى استجب لكم ثم ان كثيرا من الناس يدعون فلا يستجيب لهم ولكن معنى الآية استجب لكم ان شئت وان شئت بدليل قوله تعالى فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وهذا من باب حمل المطلق على المقيد * قال الجنيد كنت بين يدى السرى واناابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى يا غلام ما الشكر فقلت أن لا يعصى الله تعالى بنعمه قال يوشك ان يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكى على هذه الكلمة فان قيل ما معنى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وما تحصل من الافعال فى الوجود يمكن احصاؤه قلنا نعم الله تعالى على وجهين دفع ومنع فالدفع يمكن احصاؤه ودفع البلايا نعم لا يمكن احصاؤها وما يدفع الله عنهم مما فى مقدوره من ذلك وما يدفع تعالى عن العبد لا يحصى

(فصل) * ثم عدنا الى أقوال العلماء والحكماء فى الشكر فقال بعض الحكماء موضع الشكر من النعمة موضع القرى من الضيف ان وجده لم يرم وان عدمه لم يقم واجمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا الشكر قيد النعم وقالوا الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقالوا مصيبة يرجى أجرها خير من نعمة لا يؤدى شكرها وقال بعض الحكماء من أعطى

أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب * وكان يقال اذا رعيت النعم بالشكر فهي أطواق واذا رعيت بالكفر فهي أغلال (قال حبيب)

نعم اذا رعيت بشكر لم تزل * نعما فان لم ترع فهي مصائب

(وبعث) الحجاج الى الحسن بعشرين ألف درهم فقال الحمد لله الذي ذكرني (وقال) علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا تكن ممن يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويأمر الناس بما لا يأتي تحب الصالحين ولا تعمل بأعمالهم وتبغض المسيئين وأنت منهم تكره الموت لكثرة ذنوبك ولا تدعها في طول حياتك * وقال المغيرة بن شعبة اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعمة اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت وان الشكر زيادة من النعم وامان من النقم (وكان) الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر اعظم منها عليك فانت لا تنفك بالشكر من نعمة الا الى ما هو أعظم منها * وقال سفيان لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام قال على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الحمد لله الآن تمت النعمة (وروي) ان عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي الى قوم ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يلقاهم فأعتق عثمان رقبة شكرا لله تعالى أن لا يكون جرت على يديه فضيحة رجل مسلم (ويروى) أن الحسن بن علي التزم الركن وقال الهي نعمتني فلم تجدني شاكرا وابتليتني فلم تجدني صابرا فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أنت أدمت النقمة بترك الصبر الهي ما يكون من الكريم الا الكرم ولا من الجافي الا الجفاء * وقال عون بن عبد الله الخير الذي لا شر فيه الشكر مع العافية والصبر عند المصيبة (وروي) ان نملة قالت لسليمان بن داود عليه السلام يا نبي الله أنا على قدري اشكر لله منك وكان راكبا على فرس ذلول فخر عنه ساجدا شكرا لله ثم قال لولا أني أجلك لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني (وقال) صدقة بن يسار بينا داود عليه السلام في محرابه اذ مرت به دودة فتفكر في خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فأنطقها الله تعالى فقالت له يا داود تعجبك نفسك لأنا على قدر ما آتاني الله أذكر لله واشكر له منك فيما آتاك (ولمحمود الوراق)

الهي لك الحمد الذي أنت أهله * على نعمة ما كنت مثلي لها أهلا

متى ازددت تقصيرا تزدني تفضلا * كأني بالتقصير أستوجب الفضلا

(وكان) لبعضهم صديق فحبسه السلطان فارسل اليه فقال له صاحبه اشكر الله تعالى فضرب الرجل فكتب اليه اشكر الله تعالى فجيء بمجوس مجوسي مبطون وقيد فجعل حلقة في رجله وحلقة في رجل المجوسي يقوم بالليل مرات ويحتاج هذا الى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يفرغ فكتب الى صاحبه فقال اشكر الله تعالى فقال الى متى تقول وأي بلاء فوق هذا فقال له صاحبه لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع ولبعضهم

ومن الرزية أن شكري صامت * عما فعلت وأن برك ناطق

أأرى الصنيعة منك ثم أسرها * اني اذا للندى الكريم لسارق

(وقال) رجل لسهل بن عبد الله ان اللص دخل داري وأخذ متاعي فقال اشكر الله تعالى لو دخل

اللص قلبك وهو الشيطان فاخذ التوحيد ماذا كنت تصنع (ولما) بشر ادريس عليه السلام بالمغفرة سأل المغفرة فقيل له فيم فقال لأشكره فانى كنت اعمل قبله للمغفرة فبسط الملك جناحه فرفعه الى السماء * وروى أن نبيا من الانبياء عليهم السلام مر بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فانا أبكي من خوفه فدعا النبي عليه السلام ربه أن يجيره من النار فاوحى الله تعالى اليه انى أجرته من النار فمر النبي عليه السلام ثم عاد فوجد الحجر يتفجر منه مثل ما كان فتعجب فأنطق الله تعالى الحجر فقال له لم تبك فقال ذلك بكاء الحزن والخوف وهذا بكاء الشكر والسرور * وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام ارحم عبادى المبتلى والمعافى فقال الهى ما بال المعافى فقال لقلة شكرهم على عافيتي اياهم وبلا رجل اعرابيا بلاء حسنا فقال لا أبلاك الله بلاء يعجز عنه صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك (وأنشد بعضهم)

سأشكر لا أني اجازيك منعما * بشكرى ولكن كي يرى ذلك الشكر
وأذكر اياما لدى اصطنعتها * وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

(وانشدوا)

أوليتني نعما أبوح بشكرها * وكفيتني كل الامور بأسرها
فلاشكرنك ما حييت وان آمت * فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

(ولبعض الاعراب)

الهى قد أحسنت عودا وبدأة * الى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة * فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

(وكان) مطرف يقول الهى منك تكون النعمة وعليك تمامها وأنت تعين على شكرها وعليك ثوابها وهذا باب عظيم من النعم على العباد وقد أثنى الله على بعض عباده فقال انه كان عبدا شكورا (وقال) تعالى شاكرا لانعمه اجتباه وكذلك سائر ما اثنى الله تعالى به على عباده ثم قال فمن شكر فانما يشكر لنفسه ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ليس للرب تعالى فيها القليل ولا كثير فانه أجل من ان ينال الحظوظ وأجل من ان يلحقه ثناء مثن أو شكر شاكر فأخبر ان العلو والجلال له دونهم وانه يتقدس عن الناس بثناء مثن أو كفر كافر قال الله تعالى يدعوكم ليغفر لكم ذنوبكم فواعجبا أعطى ثم أثنى * وقال على رضى الله عنه كفر النعمة داعية المقت ومن جازاك بالشكر فقد أعطاك اكثر مما أخذ منك وحقيق بمن أسديت اليه نعمة أو قضيت له حاجة ان يكافئ فان لم يقدر فليشكر فان شكرها فقد أدى حقها (قال الشاعر)

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد * لرفعة حال أو علو مكان
لما أمر الرحمن بالشكر خلقه * فقال اشكرونى أيها الثقلان

(وقال البستى)

ائن عجزت عن شكر برك قوتى * وأقوى الورى عن شكر برك عاجز
فان ثنائى واعتقادى وطاعتى * لا فلاك ما أوليتنيه مراكز

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى وقفت علينا امرأة فقالت يا قوم تغير علينا الدهر اذ قل منا الشكر

وفارقنا الغنى وصالحنا .. بفقر فرحم الله امرأ فهم بعقل واعطى من فضل وواسا من كفاف واعان على عفاف (وأنشدوا)

فلو كان للشكر شخص يبين * اذا ما تامله الناظر
لمثلته لك حتى تراه * فتعلم انى امرؤ شاكر
ولكنه ساكن فى الضمير * يحركه الكلام السائر

(وقيل) الكسرى ما الشكر فقال المكافاة على قدر الطاعة قيل فما الكفر قال ترك الجزاء ولو بالثناء قيل وهل يكون أحد ابخل ممن يبخل بالثناء قال نعم من عادى على الصنيعة

(الباب الخامس والثلاثون فى بيان السيرة التى يصلح عليها الامير والمأمور ويستريح اليها الرئيس والمرؤس مستخرجة من القرآن العظيم)

قال الله تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم فاثبت الله تعالى المماثلة بيننا وبين سائر البهائم ومعلوم انهم لا يماثلوننا فى خلقنا واشكالنا وسائر ما تدركه العين منهم ومنا فتبقى المماثلة فى الاخلاق فلا أحد من الخلق الا وفيه خلق من اخلاق البهائم ولهذا تجد اخلاق الخلائق مختلفة فاذا رأيت من الانسان خلقا خارجا عن الاعتدال فابصر ما يماثل ذلك الخلق من خلق سائر الحيوان فالحقه به وعامله كما كنت تعامله تستريح من منازعتهم ويستريحون منك وتدوم الصحبة فاذا رأينا الرجل الجاهل فى خلائقه الغليظ فى طباعه القوى فى بدنه لا يؤمن طغيانه وافراطه فالحقه بعالم النمور والعرب تقول أجهل من نمر وأنت اذا رأيت النمر بعدت عنه ولم تخاصمه ولا تسابه فاسلك بالرجل كذلك واذا رأيت الرجل الغالب على اخلاقه السرقة خفية والنقب لا على وجه الاستهتار قلنا هذا يماثل عالم الجرذ فدع ملاحاته ومخاصمته كما تدع سباب الجرذ اذا أفسد رحلك ثم أحج رحلك بما يصلح له واذا رأيت هجاما على اعراض الناس وثلبهم فقد ماثل عالم الكلاب فان داب الكلب ان يجفو من لا يجفوه ويبتدئ بالاذية من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب اذا نبحك الست تذهب فى شانك ولا تخاصمه ولا تسبه فافعل بمن يهتضم عرضك مثل ذلك واذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت لا قال نعم وان قلت نعم قال لا فالحقه بعالم الحمير فان داب الحمار ان ادنيته بعد وان أبعدته قرب وانت تستمتع بالحمار ولا تسبه ولا تفارقه فاستمتع أيضا بهذا الانسان ولا تسبه ولا تفارقه واذا رأيت رجلا يطلب عثرات الناس وسقطاتهم فمثله فى الآدميين كمثل الذباب فى عالم الطير فان الذباب يقع على الجسد فيتحامى صحيحه ويطلب المواضع النغلة منه وذرات المادة والدم والنجاسة واذا ابليت بسلطان يهجم على الاموال والارواح فالحقه بعالم الاسود وخذ حذرك منه كما تاخذ حذرك من الاسد وليس الا الهرب منه كما قال النابغة * ولا قرار على زار من الاسد * واذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان والمفاخرة فالحقه بعالم الثعالب واذا بليت بمن يمشى بالنمائم ويفرق بين الاحبة فالحقه بعالم الظربان وهى دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة فسا بينهم ظربان فتفرقوا وخاصية هذه الدويبة اذا حصلت وسط جماعة ان يتفرقوا وكان الجماعة اذا أقبلت نحوهم هذه الدابة طردوها ومنعوها الدخول بينهم كذلك ينبغى اخراج النمام من بين الجماعة فان لم يفعلوا يوشك ان يفرق ما بينهم ويفسد قلوب بعضهم على بعض واذا رأيت انسانا

لايسمع العلم والحكمة وينفر من مجالس العلماء والحكماء ويالف سماع اخبار اهل الدنيا وسائر الخرافات ومايجرى فى مجالس العوام فالحقه بعالم الخنافس فانه يحبه أكل العذرات ويألف روائح النجاسات ولاتراه الامكبا على الاخلية والمراحيض وينفر من روائح المسك والورد واذا طرح عليه المسك والورد مات واذا رأيت انسانا اعتاد أيه حفظ الدنيا لايستحى فى الوثوب عليها فالحقه بعالم الاحدية بان تنحى رجالك عنه واذا بليت بالرجل تظهر عليه الديانه والسكينة وقد نصب اشراكه لاقتناص الدنيا وأكل أموال الودائع والامانات والارامل واليتامى فالحقه بعالم الذئاب وهو كما قال فيه القائل

ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع

يدعو وجل دعائه * مالالفريسة لاتقع

عجل بها ياذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع

احترز منه كما تحترز من الذئب واذا بليت بصحبة انسان كذاب فاعلم ان الانسان الكذاب كالميت فى الحكم لانه لايقبل له خبر كالاخبر للميت وكما لاتصحب الموتى لاتصحب الكذاب (وقيل) فى المثل كل شئ شئ وصحبة الكذاب لاشئ ويجوز ان يلحق بعالم النعام فانه يدفن جميع بيضه تحت الرمل ثم يترك واحدة على وجه الرمل وأخرى تحت طاقة من الرمل وسائر بيضه فى قعر الحفرة فاذا رآه الغير يأخذ تلك البيضة وينصرف أو يكشف عن وجه الرمل فيجد الاخرى فيظن انه ليس ثم شئ آخر والخبير بحالة النعام اذا رأى البيضة لايزال يحفر حتى يصل الى حاجته ولايغتر بتلك البيضة كذلك الكذاب اذا سمعت منه خبرا لاتصدقه حتى تبلغ الغاية فى الكشف عنه واذا رأيت الرجل اعتاد أيه ان يصنع نفسه كما تصنع العروس لبعلها يبيض ثيابه ويعدل عمامته ويتقى ان يمسه شئ غيره وينظر فى عطفيه ويطرح القذا عن ثوبه ليس له همة بين الجلساء الا نظره الى نفسه واصلاح ما أتقى من ثيابه فالحقه بعالم الطواويس الذى هذه صنعته فانه يتبختر فى مشيته وينظر الى نفسه ويفرش ذنبه فيتخذه الملوك استحسانا له واذا بليت انسان حقود لاينسى الهفوات ويجازى بعد المدة على السقطات فالحقه بعالم الجمل والعرب تقول فلان أحقد من جمل وتجنب قرب الجمل الحقود فاجتنب صحبة الرجل الحقود واذا بليت بانسان منافق يبطن خلاف مايظهر فالحقه بعالم اليربوع فان اليربوع وهو فار يكون فى البرية يتخذ جحرا تحت الارض يقال له النافقاء وله فوهتان يدخل من احداهما ويخرج من الاخرى ومنه اشتق اسم المنافق فاذا هم احد بأخذه دخل جحره وخرج من الباب الآخر فيعجز الصياد خلفه فلايظفر بشئ كذلك المنافق لايصح منه شئ وعلى هذا النمط كن فى صحبة الناس تستريح منهم وتريحهم منك فلعمر الله ما استقامت لى صحبة الناس وسكنت نفسى واسترحت من مكايدة اخلاقهم الا من حيث سرت معهم بهذه السيرة (وقال) الرياحى يابنى رياح لاتحقروا صغيرا تأخذون عنه فانى أخذت من الثعلب روغانه ومن القرد مكايده ومن السنور ضرعه ومن الكلب نصرته ومن ابن آوى حذره وقد تعلمت من القمر مشى الليل ومن الشمس الظهور فى الحين بعد الحين

(الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطمأنينة النفوس)

اعلم أيها الملك انه متى كملت فيك الخصال المحمودة والاخلاق المشكورة والسيرة المستقيمة وملكت نفسك وقهرت هواك ووضعت الاشياء مواضعها ثم ان الرعية اهتضمت حقك وجهلت قدرك ولم توفك حظك فبلغك منهم ما يسوءك ورأيت منهم مالا يعجبك فاعلم انك لست باله فلا تطمعن ان يصفو لك منهم مالا يصفو منهم للاله وفصل الخطاب فى هذا الباب ان تعلم ان الله تعالى خالق الخلائق أجمعين وأنعم عليهم بانواع النعم فاكمل حواسهم وخلق فيهم الشهوات ثم أفاض عليهم نعمه وكملت لهم اللذات وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق عظمته بل قالوا فيه مالا يليق به ووصفوه بما يستحيل عليه واضافوا اليه ما يتقدس عنه وسلبوه ما يجب له من الاسماء الحسنى والصفات العلى فمنهم من قال هو ثالث ثلاثة ومنهم من قال له زوجة ومنهم من قال له ابن ومنهم قال له البنات ومنهم من يجسمه ومنهم من يشبهه ومنهم من انكره رأسا وقال ما للخلق صانع كما حكاه الخالق عنه فقال نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وهو مع ذلك يحييهم ويبقيهم ويصح أجسامهم وحواسهم ويرزقهم وينشئهم ويقضى مآربهم وأوطارهم ويمتعهم متاعا حسنا ويبلغهم آمالهم فى معظم ما يحتاجون اليه فعاصيهم اليه صاعدة وبركاته عليهم نازلة كل يعمل على شاكلته وينفق مما عنده وكل ذى حال أولى بها (وفى مناجاة) موسى عليه السلام انه قال الهى أسالك ان لا يقال فى ما ليس فى فاوحى الله تعالى اليه ذلك شئ مافعلته لنفسى فكيف أفعله بك وفى هذه السيرة عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن اذكر مع انك ان التمست رضا جميع الناس التمست مالا يدرك وكيف يدرك رضا المختلفين فيا أيها الملك الذى قد كتب الله عليه الفناء والعمر القصير والزمان اليسير والايام المعدودة والانفاس المحصورة كيف أردت ان يصفو لك من الرعية مالم يصف منهم لخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم هيهات هيهات بعدما أملت ومستحيل ماطلبت فلك فى الله اسوة حسنة ان ترضى منهم بما رضى منهم خالقهم وتسير فيهم بسيرة ربهم فيهم ألم تر كيف أحسن اليك فرضى منك باليسير من العمل وأكثر لك من النعم من الاموال والخول فانظر كيف يستر زلاتك ويتغمد سيآتك ولا يفضحك فى خلواتك ففى هذا ما يهذب النفوس ويؤدب ذوى العقول ويهدى الى الصواب ويوضح طرق الرشاد ولله در عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقد كان واعظا الوته عليك فانه روى عنه انه كتب الى عمرو بن العاص كن لرعيتك ما تحب ان يكون لك أميرك

(الباب السابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها ملجأ الملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الامور وتغير الوجوه والاحوال)

أيها الملك اذا اعتلجت الامور فى صدرك واضطربت عليك القواعد ومرجت فى قلبك وجوه الرأى وتنكرت عليك المعارف واكفهر لك وجه الزمان فلا يغلبنك خصلتان أترك للناس دينهم ودنياهم ولك الامان من طوارق الحدثان وما يأتى به الملوان وقد روى ان المأمون قال فى آخر موافقة مع أخيه الامين وقد نفدت بيوت الاموال والحت الاجناد فى طلب أرزاق المأمون بقيت لاخى خصلة لو عملها ملك موضع قدمى هاتين قيل له وماهى فقال والله انى لاضن بها على نفسى فكيف على غيرى فلما خلص له الامر سئل عن تلك الخصلة فقال لو ان الامين نادى فى جميع بلاده انه قد حط الخراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشر

سنين لملك الامر على ولكن الله غالب على أمره وامّا خشى المأمون انتقاض بيعته مع أهل خراسان فى امر فتنته مع أخيه الامين استشار الفضل بن سهل وكان وزيره فقال له الفضل قد قرأت القرآن وحديث الرسول عليه السلام والذى عندى ان تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السيرة وبسط العدل والقعود على اللبود وتواصل النظر فى المظالم وتكرم القواد والملوك وابناء الملوك وتعهد بالمواعيد الكريمة والمراتب السنية والولايات المشاكلة ففعل ذلك وحط عن أهل خراسان ربع الخراج فمالت وجوه الخلائق اليه وكانوا يقولون ابن اختنا وابن عم نبينا عليه السلام وانقاد اليه رافع بن الليث وكان من عظماء الملوك بخراسان ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو ان تصطنع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن الى حملة القرآن والعلم وحفاظ الشرع بعثة وتدنى مجالسهم وتقرب الصالحين والمتزهدين وكل متمسك بعروة الدين وكذلك فليفعل بالاشراف من كل قبيلة والرؤساء المتبوعين من كل نمط فهؤلاء هم أزمة الخلق وبهم يملك من سواهم فمن كمال السياسة والرياسة ان تبقى على كل ذى رياسة رياسته وعلى كل ذى عز عزته وعلى كل ذى منزل منزلته فحينئذ يكون الرؤساء للملك اعوانا ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة فاخلق به أن يدوم سلطانه والعامة والاتباع دون مقدميهم وساداتهم واتباعهم اجساد بلا رؤس واشباح بلا ارواح ولما قامت العامة على السلطان بقرطبة ولبسوا السلاح كان شيخ جالس على كيره يعالج صنعته فقال مابال الناس قالوا قامت العامة على السلطان قال ولهم رأس قالوا لا قال شق الكيرياسى فذهبت مثلا

(الباب الثامن والثلاثون فى بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان)

قال حكيم الفرس ذم الرعية للملك على ثلاثة أوجه اما كريم قصر به عن قدره فاورثه ذلك ضغنا واما لئيم بلغ به فوق قدره فاورثه ذلك بطرا واما رجل منع حظه من الانصاف وفى الامثال احسانك الى الحر يبعثه على المكافأة واحسانك الى اللئيم الخسيس يبعثه على معاودة المسئلة (وقيل) للاسكندران فلانا ينتقصك ويسىء الثناء عليك فقال أنا أعلم انه ليس بشرير فينبغى أن نعلم هل ناله من ناحيتنا أمر دعاه الى ذلك فبحث عن حاله فوجد هارثة فامر له بصلة سنية فبلغه بعد ذلك انه بسط لسانه بالثناء عليه فقال أماترون ان الامر الينا ان يقال فينا خير أو شر وينبغى للسلطان ان لايتخذ الرعية مالا وقنية فيكونوا عليه بلاء وفتنة ولكن يتخذهم أهلا واخوانا فيكونون له جندا واعوانا وقد سبق المثل اصلاح الرعية خير من كثرة الجنود

(الباب التاسع والثلاثون فى مثل السلطان العادل والجائر)

مثل السلطان العادل مثل الياقوتة النفيسة الرفيعة فى وسط العقد ومثل الرعية مثل سائر الشذر فلا تلحظ العيون الا الواسطة وأول مايبصر المقلبون وينقد الناقدون الواسطة وانما يثنى المثنون على الواسطة وكلما حسنت الواسطة عمرت سائر الشذر فلا يكاد يذكر كما قال ابن صعدة لقيت بالحجاز بين مكة والمدينة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فسفرت لى عن وجه ابنتها واذا وجهه كانه قطعة قمر وقد أثقلتها بالجواهر واليواقيت وأنواع الدرر فالتفتت الى وقالت والله ماعلقته عليها الا لتفضحه وكان جمال السلك ان يلى الواسطة الافضل فالافضل

من الشذر وان كان على خلاف ذلك كان بى‌ء النظم كذلك السلطان ينبغى ان يكون الاقرب فالاقرب اليه أهل العلم والعقل والادب والرأى والاصالة والشرف والحصافة وذوى الكمال من كل قبيلة وان كان على خلاف ذلك كان نقصا فى التدبير وكان جمال العقد بواسطته كذلك جمال الرعية بكمال سلطانهم وفضله وبراعته وعدله ومثل السلطان الجائر مثل الشوكة فى الرجل فصاحبها تحت ألم وقلق ويتداعى لها سائر الجسد ولا يزال صاحبها يروم قلعها ويستعين بمافى ميسوره من الآلات والمناقيش والابر على اخراجها لانها فى غير موضعها الطبيعى ويوشك ان تقلع بالاجرة فأين غرز الياقوت من شوك القتاد

(الباب الموفى أربعين فيما يجب على الرعية اذا جار السلطان)

اعلم ارشدك الله ان الزمان وعاء لاهله ورأس الوعاء أطيب من أسفله كما ان رأس الجرة أرق واصفى من أسفلها فلئن قلت ان الملوك اليوم ليسوا كمن مضى من الملوك فالرعية أيضا ليسوا كمن مضى من الرعية ولست بأن تذم أميرك اذا نظرت آثار من مضى منهم باولى من يذم لك أميرك اذا نظر آثار من مضى من الرعية فاذا جار عليك السلطان فعليك الصبر وعليه الوزر (روى) البخارى عن عبادة بن الصامت قال بايعنا النبى عليه السلام فكان فيما أخذ علينا ان بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الامر أهله الا ان تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان ومنه قال ابن عباس من كره من أميره شيأ فليصبر عليه فانه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية ومنه قال ابن مسعود قال لنا النبى عليه السلام انكم سترون بعدى أثرة وأمورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا يارسول الله قال أدوا اليهم حقوقهم واسألوا الله حقكم (وروى) أبو داود فى سننه ان النبى عليه السلام قال سيأتيكم ركب مبغضون يطلبون منكم مالا يجب عليكم فاذا سألوا ذلك فأعطوهم ولا تسبوهم ولتدعوا لهم وهذا حديث عظيم الموقع فى هذا الباب فندفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا تنازعهم فيه ونكف ألسنتنا عن سبهم يا عبد الله لاتجعل سلاحك على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله فلا محنة فوق محنة ابراهيم عليه السلام لما جعلوه فى كفة المنجنيق ليقذف به فى النار قال اللهم انك تعلم ما بى بك وعداوة قومى فيك فانصرنى عليهم واكفنى كيدهم (وقال) مالك ابن دينار وجدت فى بعض الكتب يقول الله تعالى انى أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكن توبوا الى الله أعطفهم عليكم وفى بعض الكتب ابن آدم تدعو على من ظلمك ويدعو عليك من ظلمته فان شئت أجبنا لك وأجبنا عليك وان شئت أخرت الامر الى يوم القيامة فيسعكم العفو (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لا تجعل ملجأك فى الاعداء الا كفاه ولكن الثقة بالله وروى أبو داود فى السنن قال سرقت ملحفة لعائشة رضى الله عنها فجعلت تدعو على من أخذها فسمعها النبى عليه السلام فقال لا تسبخى عنه يعنى لا تخففى عنه فنهاها عن الدعاء على الظالم كما ترى فاذا قال المظلوم فى دعائه اللهم لا توفقه فقد دعا على نفسه وعلى سائر الرعية لانه من قلة توفيقه ظلمك ولو كان موفقا ما ظلمك فان استجيب دعاؤك فيه زاد ظلمه لك ومن الالفاظ المروية عن سلف هذه الامة قولهم لو كانت عندنا دعوة مستجابة ما جعلناها الا فى السلطان (وقال) الفضيل

لو ظفرت بيت المال لاخذت من حلاله وصنعت منه أطيب الطعام ثم دعوت الصالحين وأهل الفضل من الاخيار والابرار فاذا فرغوا قلت لهم تمالوا ندعوا ربنا أن يوفق ملوكنا وسائر من يلي علينا ويجعل اليه أمرنا ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة ابنة عثمان وا أبتاه فقال معاوية يا بنت أخي ان الناس أعطونا طاعة واعطيناهم أمانا وأظهرنا لهم حلما تحت غضب واظهروا لنا طاعة تحتها حقد ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره فان نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ولان تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين (وروى) ان رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فاستعدى عليه الى المنصور فقال له أصلحك الله أذكر حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب لي قبلها مثلا قال أصلحك الله ان الطفل الصغير اذا نابه امر يكرهه فانه يفر الى أمه اذ لا يعرف غيرها وظنا منه انه لا ناصر فوقها فاذا ترعرع واشتد فاوذي كان فراره وشكواه الى أبيه لعلمه بان أباه أقوى من أمه على نصرته فاذا بلغ وصار رجلا وحزبه أمر شكا الى الوالي لعلمه بانه اقوى من أبيه فاذا ازداد عقله واشتدت شكيمته شكا الى السلطان لعلمه بانه أقوى من سواه فان لم ينصفه السلطان شكا الى الله عز وجل وقد نزلت بي نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك فان انصفتني والا رفعت أمرها الى الله في الموسم فاني متوجه الى بيته وحرمه اذ ليس فوقك أحد الا الله تعالى قال بل تنصفك وامر بان يكتب الى واليه برد ضيعته اليه

(الباب الحادي والاربعون في كما تكونوا يولى عليكم)

لم ازل اسمع الناس يقولون اعمالكم عمالكم كما تكونوا يولى عليكم الى ان ظفرت بهذا المعنى في القرآن قال الله تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وكان يقال ما أنكرت من زمانك فانما أفسده عليك عملك وقال عبد الملك بن مروان انصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيروا فينا ولا في انفسكم بسيرتهم نسأل الله أن يعين كلا على كل (وقال) قتادة قالت بنو اسرائيل الهنا أنت في السماء ونحن في الارض فكيف نعرف رضاك من سخطك فاوحى الله تعالى الى بعض أنبيائهم اذا استعملت عليكم خياركم فقد رضيت عنكم واذا استعملت عليكم شراركم فقد سخطت عليكم وقال عبيدة السلماني لعلي رضي الله عنه يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر انطاع الناس لهما والدنيا عليهما أضيق من شبر فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم يطاعوا لكما وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر فقال لان رعية أبي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان ورعيتي انا اليوم مثلك وشبهك (وكتب) أخ لمحمد بن يوسف يشكو اليه جور العمال فكتب اليه محمد بن يوسف بلغني كتابك تذكر ما انتم فيه وليس ينبغي لمن يعمل بالمعصية ان ينكر العقوبة وما ارى ما انتم فيه الا من شوم الذنوب والسلام

(الباب الثاني والاربعون في بيان الخصلة التي تصلح بها الرعية)

اعلم ان ادعى خصال السلطان الى اصلاح الرعية وأقواها أثرا في تمسكهم باديانهم وحفظهم مروآتهم اصلاح السلطان نفسه وتنزهه عن سفساف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترفيعه نفسه عن استصحاب البطالة والمجون واللعب واللهو والاعلان بالفسوق وقد كانت صحبة محمد الامين لذلك الرجل الخليع والماجن الرقيع أبي نواس الشاعر وصمة

عظيمة عليه أوهن بها سلطانه ووضع عند الخاص والعام قدره وأطلق السنة الخلق بالشتم والثناء القبيح على نفسه فخلعه بذلك أخوه المأمون عن الولاية ووجه طاهر بن الحسين لمحاربته ببغداد وحاربه حتى قتله وانفذ برأسه الى المأمون وكان يعمل كتبا تقرأ على المنابر من خراسان ويقف الرجل فيذم أهل العراق فيقول أهل فسوق وخمور وماخور ويعيب الامين بذلك فيقول استصحب أبا نواس شاعرا ماجنا كافرا استخلصه معه لشرب الخمور وارتكاب المآثم ونيل المحارم وهو القائل

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر * ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى * فلا خير في اللذات من دونها ستر

حتى تغيرت عليه نفوس الخلق وتنكرت له وجوه الورى فلما بلغ الامين حبسه ثم أطلقه بعد ان أخذ عليه أن لا يشرب خمرا ولا يقول فيه شعرا فمن أراد السلطان اصلاح رعيته وهو متماد على سيئ أخلاقه كان كمن أراد بقاء الجسد مع فقد رأسه أو أراد استقامة الجسم مع عدم حياته وكمن أراد تقويم الضلع مع اعوجاج الشخص وكيف يحيا النون مع فساد الماء ولقد أصاب الخليل في قوله اصلح نفسك لنفسك تكون الناس تبعا لك وقديما قيل من أصلح نفسه أرغم أنف أعدائه ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه (وسئل) بعض الحكماء بم ينتقم الانسان من عدوه فقال باصلاح نفسه ولابي الفتح البستي

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب

أما ترى الشمس في الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وصحبة الاشرار تورث الشر كالريح اذا مرت على النتن حملت نتنا واذا مرت على الطيب حملت طيبا فمحال استصلاح رعيتك وأنت فاسد وارشادهم وأنت غاو وهدايتهم وأنت ضال وقد سبق المثل ومن العجائب أعمش كحال وتقول العرب يا طبيب طب نفسك وكيف يقدر الاعمى على أن يهدي والفقير على أن يغني والذليل على أن يعز فيعد لك عن تطهير غيرك من العيوب قبل تطهير نفسك كبعد الطبيب عن ابراء غيره من داء به مثله (وقال) بعض حكماء الهند ان يبلغ ألف رجل في اصلاح رجل واحد بحسن القول دون حسن الفعل كما يبلغ رجل واحد في اصلاح ألف رجل بحسن الفعل دون القول وفيه قال القائل

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء من السقام لذي الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم

مازلت تلقح بالرشاد عقولنا * عظة وأنت من الرشاد عديم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى * بالرأي منك وينفع التعليم

لا تنه عن خلق وتاتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

ولكن أقوى الاسباب في صلاحهم عند فوت صلاحه استعماله عليهم الخاصة منهم وذوي الاحلام والمروآت القائمة والاذيال الطاهرة فمن رأس العامة سراتهم فهو الطريق الى حفظ أديانهم ومروآتهم وتماسكهم عن الانهماك في المحظورات وملابسة المحرمات وقال الشاعر

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

(وقال) مردك الفارسي خلتان في السلطان اقرب الى صلاح الرعية مما سواهما ثقة الرأي وشدة الرحمة وما احق السلطان أن يسلك بالرعية كل سبيل يصلحون عليه و يسودون معه فحينئذ يكون رئيس الرؤساء وأميرا على السادة والفضلاء وان أهملهم وركوب شهواتهم وتوسط لذاتهم ذهبت أديانهم وسقطت مروآتهم وبقوا كما جاء المثل في الجماعة المذمومة تقول العرب في القوم لا رؤساء فيهم ولا سروات بينهم هم سواسية كاسنان الحمار وتقول سواسية كاسنان المشط وفيهم يقول الشاعر

سواسية كاسنان الحمار فلا ترى * لذى شيبة منهم على ناشئ فضلا

ولان يكون أميرا على الفضلاء والرؤساء خير من ان يكون أميرا على الاخساء والرمادية والغوغاء والادنياء (وقد قال) عبد الملك بن مروان يوما وقد استقام له الامر من يعذرني من عبد الله بن عمر فانه أبى ان يدخل في سلطاني فقال بعض جلسائه تستحضره وتضرب عنقه وتستريح منه فقال عبد الملك ويلك اذا قتلت ابن عمر على من أكون أميرا ولما صار داود الى الحجاز في الدولة العباسية ليقتل من هنالك من بني أمية قال له عبد الله بن الحسن يا ابن عم اذا اسرعت في قتل اكفائك فمن تباهى بسلطانك اعف يعف الله عنك فعفا (وقال) ارسطاطاليس للاسكندر استصلح الرعية وأذهب شرهم تكون رئيسا الاخيار ممدوحين ولا تكون رئيسا لاشرار مذمومين فتكون كراعي البقر

(الباب الثالث والاربعون فيما يملك السلطان من الرعية)

كتب ارسطاطاليس الى الاسكندر املك الرعية بالاحسان تظفر منهم بالمحبة فان طلب ذلك منهم بالاحسان هو أدوم بقاء منهم بالاعتساف واعلم انك انما تملك الابدان فتخطاها الى القلوب بالمعروف (واعلم) انه اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية واذا جار لم يملك منهم الا الرياء والتصنع وفي . برا المتقدمين قلوب الرعية خزائن ملوكها فما أودعوها من شئ فليعلموا انه فيها (واعلم) ان الرعية اذا قدرت على ان تقول قدرت على ان تفعل فاجتهد ان لا تقول تسلم من ان تفعل وليس هذا خلاف ما روى عن معاوية ان رجلا أغلظ له فحلم عليه فقيل له اتحلم على مثل هذا فقال اني لا أحول بين الناس وألسنتهم مالم يحولوا بيننا و بين سلطاننا وذلك ان تفسير قول فاجتهد ان لا تقول يعني اذا عدلت لم يتكلموا بشئ وهذه السيرة أحسن من سيرة اردشير لما رفع اليه ان جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم فوقع نحن معاشر الملوك انما نملك الاجساد لا النيات ونحكم بالعدل لا بالرضا ونفحص عن الاعمال لا عن السرائر (قلت) وانما تحسن هذه السيرة لمن عجز عن الاولى لان ملك الاجساد قد يكون بالعدل والظلم وملك القلوب لا يكون الا بالعدل واين هذا من قوله وقد رفع اليه انك ركبت أمس في عدة قليلة وتلك حالة لا يؤمن اغتيال الاعداء فيها فوقع من عم احسانه أمن أعداءه وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان يا أهل الشام انما انا لكم كالظليم الرائح على فراخه ينفي عنهم القذر ويباعد عنهم الحجر ويكنهم من المطر ويحميهم من الضباب ويحرسهم من الذئاب يا اهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء وقالت العجم أسوس الملوك من قاد رعيته الى طاعته بقلوبها ولا ينبغي للوالي أن يرغب

فى الكرامة التى ينالها من اعامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الاثر وصواب التدبير وقال عمر بن عبد العزيز انى لاجمع ان أخرج للمسلمين أمرا من العدل فاخاف ان لا تحمله قلوبهم فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا فان نفرت القلوب من هذا سكنت الى هذا وقال معاوية لزياد من أسوس الناس أنا أو أنت فقال يا أمير المؤمنين ما جعل الله رجلا حفظ الناس بسيفه كمن اسمع الناس وأطاعوا له باللين ويروى ان سليما مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية اسكت فما أدرك صاحبك بسيفه أدركت أكثر منه بلسانى

(الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان)

اتفقت حكماء العرب والعجم ووصاياهم على النهى عن صحبة السلطان قال فى كتاب كليلة ودمنة ثلاثة لا يسلم عليها الا القليل صحبة السلطان وائتمان النساء على الاسرار وشرب السم على التجربة وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطرا صحبة السلطان وقال هرمز أحق الامور بالتثبت فيها أمر السلطان فانه من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور وفى حكم الهند أيضا صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر وانما تشبه بالجبل الوعر فيها الثمار الطيبة والسباع العادية والثعابين المهلكة فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد وليس يتكافأ خير السلطان وشره لان خير السلطان لا يعدو مزيد الحال وشر السلطان قد يزيل الحال ويتلف النفس التى لها طلب المزيد ولا خير فى الشئ الذى فى سلامته مال وجاه وفى نكبته الجائحة والتلف ولهذا ما قيل للعتابى لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الادب قال انى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شئ ويردى من السور فى غير شئ ولا أدرى أى الرجلين أكون (وأخبرنى) أبو العباس الحجازى وكان ممن دوخ أرض الهند والصين وانتهى الى صين الصين الى جبل الياقوت بالهند وان فيه ثعابين ليس فى معمور الارض أعظم منها فان الواحد منها يبلع الثور صحيحا فلا يصل أحد الى ذلك الجبل ولا يقربه فاذا كثرت الامطار أحدرت السيول منه الحصى وسائر ما فيه من المنافع الى مستقر المياه على مسير أيام من الجبل فيبحث الناس ذلك الحصى فيوجد فيه الواحدة بعد الواحدة من أحجار الياقوت وقال معاوية لرجل من قريش اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبى ويرضى رضا الصبى ويبطش بطش الاسد وقال المأمون لو كنت رجلا من العامة ما صحبت السلطان وقال الاحنف بن قيس ثلاثة لا أقولهن الا ليعتبر بهن لا أخلف جليسى الا بما أحضر به ولا أدخل فى أمر لا أدخل فيه ولا آتى السلطان الا ان يرسل الى وقال ابن المقفع لابنه ان وجدت من السلطان وصحبته غنى فاغن عن نفسك واعتزله جهدك فانه من يأخذه السلطان بحقه يحل بينه وبين لذة الدنيا ومن لا يأخذه بحقه يكسبه الفضيحة فى الدنيا والوزر فى الآخرة وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعا لا تصحب سلطانا وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وان قرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا (وفى منثور الحكم) كثرة الاشغال مذهلة عن وجود اللذات بكنهها وكم قد رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه فسد هو به فكان كما قال الاول

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد
ومثل من يصحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر
الحائط عليه فأهلكه وفى كتاب كليله ودمنه لايسعد من ابتلى بصحبة الملوك فانه لاعهد لهم
ولاوفاء ولاقريب ولاحميم ولايكرم عليهم احد الا أن يطمعوا فيما عنده فيقربوه عند ذلك
فاذا قضوا حاجتهم تركوه ولاود ولا اخاء الا البلاء يجزى والذنب لايغفر له وقال بزرجمهر لاتصلح
صحبة السلطان الا بالطاعة والبذل ولامؤاخاة الاخوان الا باللين والمواساة (وقال) بعض
حكماء الفرس المال والسلطان مفسدان لكل أحد الا لرجل له عقل كامل وقالت الحكماء
صاحب السلطان كراكب الاسد يخافه الناس وهو لمركبه أخوف وقالوا من لزم باب
السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى وصل الى حاجته كالكرم لايتعلق بأكرم
الشجر لكن بادناها وكانت العرب تقول ان لم تكن من قرباء الملك فكن من بعدائه (وفى) حكم
الهند انما مثل السلطان فى قلة وفائه مع أصحابه وسخاء نفسه عن فقدهم كمثل الصبى
والمكتب كلما ذهب واحد جاء آخر والعرب تقول السلطان ذو غدوات وذو بدوات وذو ندرا
وتريد انه سريع الانصراف كثير البدوات هجام على الامور وأصله من الدرء وهو الدفع

(الباب الخامس والاربعون فى صحبة السلطان)

قال ابن عباس قال لى أبى يا بنى انى أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الاكابر
من أصحاب محمد عليه السلام وانى أوصيك بخلال ثلاث لاتفشين له سرا ولايجربن عليك
كذبا ولاتغتابن عنده أحدا (قال) الشعبى قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف
قال اى والله ومن عشرة آلاف وقالوا صحبة السلطان بالحذر والصديق بالتواضع والعدو
بالجهر والعامة بالبشر ولاتحكم لاحد بحسن رأى الملك الا بحسن أثره (قال) بعض الحكماء
لاتستطلع السلطان ما كتمك ولاتفش ما أطلعك عليه من أدل على السلطان استثقله ومن
امتن عليه عاداه ومن أظهر انه يستغنى به باعده (وقال) بعض الحكماء اذا زادك السلطان تأنيسا
فزده اجلالا واذا جعلك السلطان أخا فاجعله أبا وان زادك احسانا فزده فعل العبد مع سيده
وان ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فاخذوا فى الثناء عليه فعليك بالدعاء له وان نزلت
منه منزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولاتكثر فى الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة
والغربة الا ان تكلمه على رؤس الناس فلا تألوا ما عظمته وذكرته وقال ابن المقفع اتمكن
حاجتك فى سلطانك ثلاث خلال رضا ربك ورضا سلطانك ورضا من تلى عليه ولاعليك ان
تلهو عن المال والذكر فسيأتيك منهما ما يكفى ويطيب (وقال) مسلم بن عمرو لمن خدم السلطان
لاتغتر بالسلطان اذا أدناك ولاتتغير اذا أقصاك وروى ان بعض الملوك استصحب حكيما فقال له
أصحبك على ثلاث خلال قال وما هن قال لاتهتك لى سترا ولاتشتم لى عرضا ولاتقبل فى قول
قائل حتى تستشيرنى قال هذا لك فما لى عندك قال لا أفشى لك سرا ولا أدخر عنك نصيحة
ولا أوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب المستصحب انت وقيل لعبد الله بن جعفر ما الخرق
قال الدالة على السلطان والوثبة قبل الامكان وقال ابن المقفع أولى الناس بالهلكة الفاحشة
المقدم على السلطان بالدالة وقال يحيى بن خالد الدالة تفسد الحرمة القديمة وتضر بالمحبة

المتأكدة وقال بزرجمهر اذا خدمت ملكا من الملوك فلا تدعه فى معصية خالقك فان احسانه اليك فوق احسان الملك وايقاعه بك أغلظ من ايقاعه اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لانهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة فلا تترك الهيبة وان طال انسك بهم فهو حسبهم منك لا تعط السلطان مجهودك فى أول صحبتك له فلا تجد بعد ذلك مزيدا موضعا ولكن دع للمزيد موضعا علم السلطان وكانك تتعلم منه وأشر عليه وكانك تستشيره اذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك فاياك والدخول بينه وبين بطانته فانك لا تدرى متى يتغير لك فيكونون عونا عليك اياك ان تعادى من اذا شاء يطرح ثيابه ويدخل مع الملك فى ثوبه فعل وفى الامثال القديمة أحذر رماة المخدة وفيه قيل

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا * مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

وفى الامثال لا تدل فتمل ولا توجف فتجف وقال الرشيد لاسمعيل ابن صبيح اياك والدالة فانها تفسد الحرمة وقال سليمان بن داود عليهما السلام لا تغش السلطان ولا تتقعد عنه وقال الحكماء شدة الانقباض عن السلطان تورث التهمة وشدة الانبساط تفتح باب الملالة واعلم ان من طلب العز بلاذل كانت ثمرة سعيه الذل أحرز منزلتك عند السلطان بمثل ما اكتسبتها من الجد والمناصحة واحذر ان يحطك التهاون عما رفعك اليه التحفظ ان أشقى الناس بالسلطان صاحبه كما ان أقرب الاشياء الى النار أسرعها احتراقا من لزم باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى وصل الى حاجته (وقال الاحنف بن قيس) لا تنقبضوا عن السلطان ولا تتهالكوا عليه فانه من أشرف على السلطان أرداه ومن تضرع له تخطاه * وقال ابن عباس رضى الله عنه ثلاثة من عاداهم عادت عزته ذلة السلطان والولد والغريم واعلم انه لا يستطيع صحبة السلطان أحد رجلين اما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته واما مغفل مهين لا يحسده أحد فاما من أراد ان يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف فقلما تستقيم له صحبته لانه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد اما الصديق فينافسه فى منزلته فيطعن عليه لنصيحته له فاذا اجتمع عليه هذان الصنفان كان قد تعرض للهلاك * وقال بعض الحكماء من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة لابد لك من السلطان اكرام الاشرار فان ذلك لضرورة اليهم كما يضطر الملك الى الحجام فيشرط قفاه ويخرج دمه (وفى الامثال) لا حلم لمن لا سفيه له * وكان ابن عمر اذا سافر الى مكة استصحب معه رجلا فيه مافيه يستدفع به شر السفهاء وأهل الوغادة والدعارة وقال المعتصم ان للسلطان اسكرات فنها الرضا عمن استوجب السخط والسخط على من استوجب الرضا ومنه قول الحكماء خاطر من لجج فى البحر وأعظم منه خطرا من صحب السلطان وقال ابن المقفع لابنه لا تعدن شتم السلطان شتما ولا اغلاظه اغلاظا فان ريح العزة تبسطه فى غير باس ولاحقد (وقال سامبد) أحد حكماء الفرس أربعة أشياء ينبغى ان تفسر للفهيم كما تفسر للبليد ولا يتكل فيها على ذكاء أحد تأويل الدين واخلاط الادوية وصفة الطريق المخوف والرأى فى السلطان واعلم ان السلطان اذا انقطع منك فى الآخر نسى الاول فارحامهم مقطوعة وحبالهم مصرومة الا من رضوا عنه فى وقتهم وساعتهم واذا رأيت من الوالى خللا لا تنبغى

فلا تكابده على ردها فانها رياضة صعبة لكن أحسن مساعدته على أحسن رايه فاذا استحكمت منه ناحية من الصواب كان ذلك الصواب هو الذى يبصره الخطايا اللطيفة أكثر من تبصيرك واجعل العدل من حكمتك فان العدل يدعو بعضه الى بعض فاذا تمكن اقتلع الخطأ ولا تطلب ما قبل الوالى بالمسئلة ولا تستبطئه وان أبطأ ولكن اطلب ما قبله بالاستحقاق والاستيناء فانك اذا استحققته أتاك من غير طلب واذا لم تستبطه كان أعجل له وقال يحيى بن خالد اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة القبيحة للزوج الاحمق المبغض وقال يحيى بن خالد لبعض اخوانه تنكر لى هرون الرشيد فقال له ارض بقليله من كثيره واياك ان تسخط فيكون اسخط منك

(الباب السادس والاربعون فى سيرة السلطان مع الجند)

اعلم ان الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة والدافعون عن العورة وهم جنن الثغور وحراس الابواب والعدة للحوادث وامداد المسلمين والحد الذى يلقى العدو والسهم الذى يرمى به والسلاح المدفوع فى نحره فبهم يذب عن الحريم وتؤمن السبل وتسد الثغور وهم عز الارض وحماة الثغور والذادة عن الحرم والشوكة على العدو وعلى الجند الجد عند اللقاء والصبر عند البلاء فان كانت لهم الغلبة فليمعنوا فى الطلب وان تمكن عليهم فليكسروا الاعنة وليجمعوا الاسنة وليذكروا أخبار غد وينبغى للملك ان يتفقد جنده كتفقد صاحب البستان بستانه فيقلع العشب الذى لا ينفعه فمن العشب ما لا ينفع ومع ذلك يضر بالنبات النافع فهو بالقلع اجدر ولا يستصلح الجند الا بادرار أرزاقهم وسد حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر عنائهم وبلائهم وجنود الملوك وعددها وقف على سعود الائمة ونحوسها وقال أبرويز لابنه شيرويه لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تضيق عليهم فيضجروا منك واعطهم عطاء قصدا وامنعهم منعا جميلا ووسع عليهم فى الرجاء ولا توسع عليهم فى العطاء* ولما أفضى الامر الى أبى جعفر المنصور انفذ جيشا وقال لقواده سيروا بمثل هذه السيرة ثم قال صدق الاعرابى اجع كلبك يتبعك فقام أبو العباس الطوسى فقال يا أمير المؤمنين أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك (وروى) ان كسرى صنع طعاما فى سماط فلما فرغوا ورفعت الآلات وقعت عينه على رجل من أصحابه قد أخذ جاما له قيمة كثيرة فسكت عنه وجعل الخدم يرفعون الآلات فلم يجدوا الجام فسمعهم كسرى يتكلمون فقال ما لكم فقالوا فقدنا جاما من الجامات فقال لا عليكم آخذه من لا يرده ورآه من لا يفضحه فلما كان بعد أيام دخل الرجل على كسرى وعليه حلية جميلة وحال مستجدة فقال له كسرى هذا من ذاك قال نعم ولم يقل له شيأ (وسئل عمرو بن معاذ) وكان على العواصم قدرت على جيوش الصائفة وكان يغزو فى كل سنة ويجر الجيوش الى بلاد الروم فقال بسمانة الظهر والقديد وكثرة الكعك (وروى) ان بعض أمراء العرب كان ظالما لرعيته شديد الاذى لهم فى أموالهم فعوتب فى ذلك فقال اجع كلبك يتبعك فوثبوا عليه فقتلوه فمر به بعض الحكماء فقال ربما أكل الكلب صاحبه اذا لم يشبعه

(الباب السابع والاربعون فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج)

أيها الملك من طال عدوانه زال سلطانه واعلم ان المال قوة السلطان وعمارة المملكة ولقاحه

الامن ونتاجه العدل وهو حصن السلطان ومادة الملك والمال أقوى العدد على العدو وهو ذخيرة الملك وعمارة المملكة وحياة الارض ومن حقه ان يؤخذ من حقه ويوضع فى حقه ويمنع من سرف ولا يؤخذ من الرعية الا فاضل عن معاشها ومصالحها ثم ينفق ذلك فى الوجوه التى يعود عليها نفعها فيا أيها الملك احرص كل الحرص على عمارة الارضين والسلام أيها الملك مع جباة الاموال بالرفق ومجانبة الخرق فان العلقة تنال من الدم بغير أذى ولا سماع صوت ما لا تناله البعوضة بلسعتها وهول صوتها (ولما عزل عثمان) عمرو بن العاص عن مصر استعمل عليها ابن أبى السرح فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمرو فقال عثمان يا عمرو أشعرت ان اللقاح درت بعدك فقال عمرو ذلك لانكم أعجفتم أولادها * وقال زياد احسنوا الى المزارعين فانكم لم تزالوا سمانا ما سمنوا * وفى منثور الحكمة من جاوز فى الحلب حلب الدم (وفى الامثال) اذا استقصى العجل فى مص امه رفصته * وقال جعفر بن يحيى الخراج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل ولا استنزر بمثل الظلم وأسرع الامور فى خراب البلاد تعطيل الارضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج بالجور والتحامل ومثل السلطان اذا حمل على أهل الخراج حتى ضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو وان قوى من ناحية فقد ضعف من ناحية وما أدخل على نفسه من الوجع والضعف أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية من الخراج فوق طاقتها كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته ومن يدمن حز العمود يوشك ان يضعف فتقع الخيمة واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيتركونها فتخرب الارض ويهرب الزراع فتضعف العمارة فيضعف الخراج وينتج ذلك ضعف الاجناد واذا ضعف الجند طمع الاعداء فى السلطان أيها الملك لكن بما يبقى فى يد رعيتك أفرح منك بما تأخذ منها الا يقل مع الصلاح شئ ولا يبقى مع الفساد شئ وصيانة القليل أولى من تربية الجليل فلا مال لاخرق ولا عيلة لمصلح (وروى) ان المأمون أرق ليلة فاستدعى سميرا فحدثه بحديث فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل الى بومة البصرة بنتها لابنها فقالت بومة البصرة لا أنكحك ابنتى الا ان تجعلى فى صداقها مائة ضيعة خراب فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها الآن ولكن ان دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة وفيت لك ذلك قال فاستيقظ المأمون وجلس للمظالم وانصف الناس بعضهم من بعض وتفقد امر الولاة (وسمعت) بعض شيوخ الاندلس من الاجناد وغيرهم يقولون مازال أهل الاسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو فى ضعف وانتقاص لما كانت الارض مقطعة فى أيدى الاجناد فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربى التاجر تجارته وكانت الارض عامرة والاموال وافرة والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه الى ان كان الامر فى آخر أيام ابن أبى عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على النطع وقدم على الارض جباة يجبونها فاكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان وضعفت الاجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العدو فى ظهور الى ان دخلها الملثمون فردوا الاقطاعات كما كانت فى الزمان القديم ولا

أدرى ما يكون وراء ذلك

(الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال)

وهذا باب سلكت فيه ملوك الطوائف والهند والصين والسند وبعض ملوك الروم خلاف سيرة الانبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين فكانت الملوك تدخر الاموال وتحجبها دون الرعية وتعدها ليوم كريهة على ما بيناه فى الباب قبله وكانت الرسل والخلفاء بعدهم تبذل الاموال ولا تدخرها وتصطنع الرعية وتوسع عليها فكانت الرعية هم الاجناد والحماة وهذه سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد علمتم ان جوعه كان أكثر من شبعه وانه مات ودرعه مرهونة فى صاع شعير عند يهودى وكذلك الخلفاء الراشدون بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وابنه الحسن وعمر بن عبد العزيز وان النبى عليه السلام لما فتح الله عليه اليمن كان تجبى له الاموال فيفرقها ليومها وقد توضع فى المسجد وتفرش الانطاع ويفرقها من الغد ولم يكن له بيت مال (وروى) أبو داود فى السنن أن النبى عليه السلام صلى العشاء الآخرة ثم دخل حجرته وخرج مسرعا وفى يديه خريقة فيها ذهب فقسمه ثم قال ما ظن آل محمد لو ادركه الموت وهذا عنده ولم يكن للنبى عليه السلام بيت مال ولا للخلفاء الراشدين بعده وانما كانت الخلفاء تقسم الاموال التى جبيت من حلها بين المسلمين وربما يفضل منها فضلات فيجعل فى بيت فمن حضر من غائب أو احتاج من حاضر قسم له حظه ثم يفرق حتى لا يبقى فى البيت منه درهم كما روى ان امير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه اشرف على بيت المال وفيه مال فقال يا صفراء ويا بيضاء احمرى واصفرى وغرى غيرى ثم أمر فقسم جميع ما فيه على المسلمين وأمر قنبرا أن يكنسه ويرشه ثم دخل فصلى فيه ثم كثير من الملوك ساروا فى الاموال على نحو هذه السيرة من ملوك الاسلام وملوك الروم ومعظم ما أهلك بلاد الاندلس وسلط عليها الروم ان الروم التى كانت تجاورنا لم تكن لهم بيوت أموال وكانوا يأخذون الجزية من سلاطين الاندلس ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس ويأخذ مثل ما يأخذون وقد لا يأخذ شيأ منها وانما كانوا يصطنعون بها الرجال وكانت سلاطيننا تحجب الاموال وتضيع الرجال فكان للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال فبهذه الحيلة قهرونا وظهروا علينا وكان من يذهب هذا المذهب ولا يدخر الاموال تضرب فيه الامثال ويقال عدو الملك بيت المال وصديقه جنده فاذا ضعف أحدهما قوى الآخر واذا ضعف بيت المال ببذله للعماة قوى الناصر واشتد بأس الجند وقوى الملك واذا قوى بيت المال وامتلأ بالاموال قل الناصر وضعفت الحماة فضعف الملك فوثبت عليه الاعداء وقد شاهدنا ذلك فى بلاد الاندلس مشاهدة واذا كان الدفاع فى الرجال لا فى الاموال وانما يدفع بالاموال بواسطة الرجال فلا شك ان بيت رجال خير من بيت مال وقد قال بعض الملوك لابنه يا بنى لا تجمع الاموال لتتقوى بها على الاعداء فان فى جمعها تقوية الاعداء يعنى اذا جمعت الاموال أضعفت الرجال فيطمع فيك الصديق ويثب عليك العدو وانما مثل الملك فى مملكته مثل رجل له بستان فيها عين معينة فان هو قام على البستان فاحسن تدبيرها فهندس أرضها وغرس أشجارها وحظر على جوانبها ثم أرسل عليها الماء اخضر عودها فقويت اشجارها

وأينعت ثمارها وزكت بركاتها فكانوا جميعا فى أمان من الضيعة ولا يخافون فقرا ولا شتاتا وان هو رغب فى غلتها وجناها ولم ينفق فيها ما يكفيها ولا ساق اليها من الماء ما يرويها رغبة فى الغلة وضنة بالمال ضعفت عمارتها ودقت اشجارها وقلت ثمارها وذهبت غلتها ومحق الدهر ما جنى من غلتها فافتقر القوم وهلكوا وتشتتوا ومثال الملك فى جمع المال ليتقوى به على عدوه مثل طائر ينتف ريشه ويمص أصولها ويأكل ما نعم منها فاذاقه طيبها وأعجبه خصب جسمه على ذلك وقوته على عدوه فلم يزل كذلك حتى خف ريشه فسقط الى الارض فأكلته الهوام والحشرات (ورأيت) فى أخبار بعض الملوك ان وزيره اشار عليه بجمع الاموال واقتناء الكنوز وقال ان الرجال وان تفرقوا عنك اليوم فمتى احتجتهم عرضت عليهم الاموال فتهافتوا عليك فقال له الملك هل لهذا من شاهد قال نعم هل بحضرتنا الساعة ذباب قال لا قال فأمر باحضار جفنة فيها عسل فحضرت فتساقط عليها الذباب لوقتها فاستشار السلطان بعض أصحابه فى ذلك فنهاه عن ذلك وقال لا تغير قلوب الرجال فليس فى كل وقت أردتهم حضروا فسأل هل لذلك من دليل قال نعم اذا أمسينا سأخبرك فلما أظلم الليل قال للملك هات الجفنة فحضرت ولم تحضر ذبابة واحدة (وقد روينا) عن سيرة بعض السلاطين فى أرض مصر وكان قد ملكها وكان اسمه بادقور انه كان يجمع الاموال ولا يحفل بالرجال فقال له أصحابه ان أمير الجيوش بالشام وهو يتواعدك وكأنه قد قدم عليك فاستعد الرجال وانفق فيهم الاموال فأومأ الى صناديق موضوعة عنده وقال الرجال فى الصناديق فغزا أمير الجيوش ذلك الملك فى مصر وقتله وتسلم الصناديق والملك فكان رأيه رأيا فاسدا لان رجالا يقيمهم لوقته ويصطنعهم لحاجته انما يكونون أجنادا مجتمعين وشرذمة ملفقين ليس فيهم غناء ولا عندهم دفاع ولا ممارسة للحروب (ومن السير) المروية فى هذا الباب انه لما فتحت العراق جىء بالمال الى عمر فقال صاحب بيت المال أدخله بيت المال فقال لا ورب الكعبة لا يؤوى تحت سقف بيت حتى نقسمه فغطى فى المسجد بالانطاع وحرسه رجال من المهاجرين والانصار فلما أصبح نظر الى الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والدر يتلألأ فبكى فقال له العباس أو عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين والله ما هذا يوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال انى والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما كثر هذا فى قوم الا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه وقال اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فانى أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم قال أين سراقة بن جعشم فأتى به أشعر الذراعين دقيقهما فأعطاه سوارى كسرى وقال البسهما ففعل فقال قل الله أكبر قال الله أكبر قال قل الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن جعشم اعرابيا من بنى مدلج ثم قبلهما وقال ان الذى أدى هذا لأمين فقال له رجل أنا أخبرك أنت أمين الله تعالى وهم يؤدون اليك ما أديت لله تعالى فاذا رتعت رتعوا قال صدقت وانما ألبسهما سراقة لان النبى صلى الله عليه وسلم قال لسراقة ونظر الى ذراعيه كأنى بك قد لبست سوارى كسرى ولم يجعل له الا السوارين (ولما ولى أبو بكر الصديق) رضى الله عنه جاءه مال من العمال فصب فى المسجد وأمر فنادى من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليحضر فقال أبو أيوب الانصارى فحثته

فقلت يا خليفة رسول الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لي لو قد جاءني مال أعطيتك هكذا وهكذا وأشار بكفيه فسكت أبو بكر فانصرفت ثم عاودته فسكت عني ثم انصرفت وعاودته فقلت اما أن تعطيني واما أن تبخل عني فقال ما أبخل عنك اذهب فخذ فخفنت حفنة قال عدها فعددتها فوجدت فيها خمسمائة دينار وأبو أيوب من أغنياء الانصار وهو نزيل النبي صلى الله عليه وسلم دل الحديث على ان بيت المال للغني والفقير ودل أيضا انه لا يجب أن يساوى فيه جميع المسلمين بل ذلك موكول الى اجتهاد الامام

(فصـــل) قال الحسن بن علي الاسدي أخبرني أبي قال وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف من أموال مصر بحق الخراج مما يؤخذ من وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للمعاملين وتقوية لحالهم من العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف دينار من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد لحفر الخليج والانفاق على الجسور وسد الترع واصلاح المنشآت ثم تقوية من يحتاج الى تقويته من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البذار وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحل البذار وسائر نفقات تطبيق الارضين ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف في ارزاق الاولياء الموسومين بالسلاح ومن في جملتهم من الشاذية والغلمان وأشياعهم وعدة جميعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى أتباعهم من الخزان ومن يجرى مجراهم مائة ألف واحدى عشر ألف دينار وثمانية ألف ألف درهم ولما ينصرف للارامل والايتام يرضون به من بيت المال وان كانوا غير محتاجين حتى لا يخلوا أمثالهم من بر فرعون اربعمائة ألف دينار ولما ينصرف في كهنة برابيهم وسائر بيوت صلواتهم مائتا الف دينار ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا وينادى برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر فيحضر لذلك من يحضر ولا يرد أحد والامناء جلوس فاذا رأوا انسانا لم يجر رسمه بان يأخذ افردوه بعد قبضه ما قبضه حتى اذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدد دخل أمناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة المال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والسلامة وأنهى اليه حال تلك الطائفة فيأمر بتغيير شعثها بالحمام واللباس ثم يمد السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستعلم من كل واحد سبب فاقته فان كان ذلك من آفة الزمان رد عليه مثل ما كان له وان كان سوء رأى وتدبير غير مستقيم ضمه الى من يشرف عليه ويأخذه بالادب والمعرفة التي لا يصلح الا بها مائتا ألف دينار ولما ينصرف من نفقات فرعون الراتبة لسنته مائتا ألف دينار تكون النفقات على ما تقدم تفصيلها تسعة آلاف ألف وثمانمائة الف دينار ويحصل بعد ذلك ما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام ويحصله لفرعون في بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار (وقال أبو رهم) كانت ارض مصر أرضا مدبرة حتى ان الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسوه كيف شاؤا ويرسلوه كيف شاؤا وذلك قول فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون وكان ملك مصر عظيما لم يكن في الارض أعظم من ملك مصر وكانت الجنات بحافتي النيل متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء والزرع كذلك من اسوان الى رشيد وكانت أرض مصر كلها

تروى من ستة عشر ذراعا المادبر وافى جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها الى آخرها وذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين والمقام الكريم المنابر وكان بها ألف منبر (وقال عبد الله بن عمرو) استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فاخذ فى حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه ان يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطوه مالا وكان يذهب به من قرية الى قرية من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى القبلة ويسوقه كيف أراد فليس فى مصر خليج أكثر عطوفا منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة فحملها الى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون انه ينبغى للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بايديهم رد على أهل القرى ما أخذت منهم فرد عليهم أموالهم فهذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف يجب ان تكون سيرة من يقول لا اله الا الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب (وقال ابن عباس) رضى الله عنهما فى قوله تعالى اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم قال هى خزائن مصر وكانت أربعين فرسخا فى مثلها ولم يطع يوسف فرعون ويحالفه وينوب عنه الا بعد أن دعاه الى الاسلام فاسلم فحينئذ قال اجعلنى على خزائن الارض (ولما استوثق) أمر يوسف الصديق عليه السلام وكمل وصارت الاشياء اليه وأراد ربك أن يعوضه على صبره المالم يركب محارمه وحلت سنوا الغلاء والجوع مات العزيز وذهبت الذخائر وافتقرت زليخا وعمى بصرها وجعلت تتكفف الناس فقيل لها لو تعرضت للملك لعله يرحمك ويغنيك فطالما حفظتيه وأكرمتيه ثم قيل لها لا تفعلى لانه ربما يتذكر ما كان منك اليه من المراودة والحبس فيسيء اليك ويكافئك فيما سبق منك اليه فقالت أنا أعلم بحلمه وكرمه وجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه وكان يركب فى زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت وقالت سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف ومن أنت قالت أنا التى كنت اخدمك على صدور قدمى وأرجل جمتك بيدى وأكرم مثواك بجهدى وكان منى ما كان وذقت وبال أمرى وذهبت قوتى وتلف مالى وعمى بصرى وصرت أسال الناس فمنهم من يرحمنى ومنهم من لا يرحمنى بعد ما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم هذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا وقال لها هل بقى فى قلبك من حبك اياى شئ فقالت والذى اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة اليك أحب الى من ملء الارض ذهبا وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها ان كنت ايما تزوجناك وان كنت ذات بعل أغنيناك فقالت للرسول الملك أعرف بالله من أن يستهزئ بى هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة فامر بها يوسف عليه السلام فجهزت فتزوجها وأدخلت عليه فصف قدميه وجعل يصلى ودعا الله باسمه الاعظم فرد الله تعالى عليها شبابها وجمالها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها فاذا هى بكر فولدت له افرائيم بن يوسف وميشا بن يوسف وطاب فى الاسلام عيشهما حتى فرق الدهر بينهما فيجب للقوى أن لا ينسى الضعيف وللغنى أن لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ومرغوب اليه يصير راغبا ومسؤل يصير

سائلا وراحم يصير مرحوما (فهذا يوسف) الصديق عليه السلام انظر الى ضعفه فى يد اخوته يوم الجب ثم ضعفهم بين يديه يوم الصاع (وهذه زليخا) ملكة مصر وسيدة أهلها عادت تتكفف الناس فى الطرقات قال الله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها فكان يوسف عليه السلام بعد هذا يجوع ويأكل خبز الشعير ولا يشبع فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض قال أخاف أن أشبع فانسى الجائعين (وقد رأيت) أن ألحقه بمنقبة فى مثلها يتنافس العقلاء ويرغب فيها الملوك والوزراء وذلك انى لما كنت بالعراق وكان الوزير نظام الملك والغالب على ألقابه خواجا بزرك رحمه الله تعالى قد وزر لأبى الفتح ملك الترك ابن الب ارسلان وكان قد وزر لأبيه من قبله فقام بدولتهما أحسن قيام فشد أركانها وشيد بنيانها واستمال الاعداء ووالى الاولياء واستعمل الكفاة وعم احسانه العدو والصديق والبغيض والحبيب والبعيد والقريب حتى ألقى الملك بجرانه وذل الخلق لسلطانه وكان الذى مهد له ذلك باذن الله تعالى وتوفيقه انه أقبل بكليته على مراعاة جمال الدين فبنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ثم أجرى لهم الجرايات والكساوى والنفقات وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافا الى ارزاقهم وعم بذلك سائر أقطار مملكته فلم يكن من أوائل الشام وهى بيت المقدس الى سائر الشام الاعلى وديار بكر والعراقين وخراسان باقطارها الى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد فى زاويته الاوكرامته شاملة له وسابغة عليه وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الابواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة فوشى به الوشاة الى أبى الفتح الملك وأوغروا صدره عليه وقالوا ان هذا المال المخرج من بيوت الاموال يقيم به جيشا يركز رايته فى سور قسطنطينية فخامر ذلك قلب أبى الفتح الملك فلما دخل عليه قال يا أبت بلغنى انك تخرج من بيوت الاموال كل سنة ستمائة ألف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا فبكى نظام الملك وقال يا بنى أنا شيخ أعجمى لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير وأنت غلام تركى لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا وأنت مشتغل بلذاتك منهمك فى شهواتك وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهى مدى مرماه ثلثمائة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والمزمار والطنبور وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدى ربهم فارسلوا دموعهم وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فانت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون تخرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع فبكى ابو الفتح الملك بكاء شديدا ثم قال شاباش يا أبت شاباش أكثر لى من هذا الجيش (ومن مناقب) هذا الرجل وفضائله ان رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفى فقال له يا خواجا أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون فى معمور الارض مثلها يخلد بها ذكرك الى أن تقوم الساعة

قال

قال افعل وكتب الى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الاموال فابتاع بقعة على شاطئ دجلة وخط المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها وابتاع ضياعا وخانات وحمامات وأوقفت عليها فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسودد وذكر جميل طبق الارض خبره وعم المشارق والمغارب أثره وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة ثم رفع حساب النفقات الى نظام الملك فبلغ ما يقارب ستين ألف دينار ثم نمى الخبر الى نظام الملك من الكتاب وأهل الحساب أن جميع ما أنفق فيها نحو من تسعة عشر ألف دينار وان سائر الاموال احتجنها لنفسه وخان فيها فدعاه نظام الملك الى اصبهان للحساب فلما أحس أبو سعيد بذلك أرسل الى الخليفة أبى العباس يقول هل لك فى أن أطبق الارض بذكرك وأنشر لك فخرا لا يمحوه الايام قال وما هو قال يمحو اسم نظام الملك عن هذه المدرسة ويكتب عليها اسمك وتزن له ستين ألف دينار فأرسل اليه الخليفة يقول له أنفذ من يقبض المال فلما استوثق منه مضى الى أصبهان فقال له نظام الملك انك قد رفعت الينا نحوا من ستين ألف دينار نفقة وأحب اخراج الحساب فقال له ابو سعيد لا تطل الخطاب ان رضيت والا محوت اسمك المكتوب عليها وكتبت عليها اسم غيرك وأرسل من يقبض المال فلما أحس نظام الملك بذلك قال يا شيخ قد سوغناك جميع ذلك كله ولا تمح اسمنا ثم ان أبا سعيد بنى بتلك الاموال الرباطات للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور ووقف جميع ذلك على الصوفية فالصوفية الى يومنا هذا فى رباط أبى سعيد الصوفى وأوقافه يتقلبون ببغداد ففى هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فانما لم نجد شيأ يبقى على الدهر الا الذكر حسنا كان أو قبيحا وقال الشاعر

ولا شئ يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا تذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر لنفسك فى الآخرة كما ادخروا واعلم ان المال كول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو فاختر أى الثلاث شئت والسلام (وكان) ابن أبى دواد الوزير واسع النفس مبسوط اليدين يعطى الجزيل ويستقل الكثير ولا يرد سؤالا ويبتدئ بالنوال فقال له الواثق أمير المؤمنين يوما قد بلغنى بسط يدك بالاعطاء وهذا يتلف بيوت الاموال فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال يا أمير المؤمنين ذخائر أجرها راجع اليك ومفاتيح شكرها موصولة بك وانما لى من ذلك تعشقى فى ايصال الثناء اليك فقال الواثق لله أنت جد بالعطاء وأكثر بالشكر والثناء

(الباب التاسع والاربعون فى سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال وسيرة العمال)

اعلم ان يوسف الصديق عليه السلام لما ملك خزائن الارض كان يجوع ويأكل الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين (وروى) البيهقى باسناده قال لما استخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه غدا الى السوق فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه أين تريد قال السوق قال قد جاءك ما يشغلك عن السوق قال سبحان الله يشغلنى

عن عيالى قال نفرض لك بالمعروف قال فأنفق فى سنتين وبعض أخرى ثمانية آلاف درهم
ووصى أن ترد من ماله فى بيت المال (وروى) هذه القصة الحسن البصرى قال لما حضرت
أبا بكر الوفاة قال انظروا كم أنفقت من مال الله فوجدوا قد أنفق فى سنتين ونصف ثمانية آلاف
درهم قال اقضوها عنى فقضوها عنه ثم قال يا معشر المسلمين انه قد حضر من قضاء الله ما ترون
ولابد لكم من رجل يلى أمركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم فان شئتم اجتمعتم وائتمرت لكم
وان شئتم اجتهدت لكم فو الذى لا اله الا هو ما آلوكم ونفسى خيرا فبكوا وقالوا أنت خيرنا
وأعلمنا فاختر لنا فقال قد اخترت لكم عمر (وروى) مالك هذه القصة على غير هذا الوجه قال
بلغنى ان أبا بكر لما ولى لم ينفق من مال الله شيأ وغدا يوما من بنى عمرو بن عوف وكانت له هنالك
امرأة من الانصار فى جمال له يريد أن يبيعها فلقيه بعض المسلمين فقالوا له ما تصنع هذا يشغلك عن
الناس وعن النظر فى أمرهم قال فكيف أصنع قالوا تفرغ للنظر فى أمورهم وتستنفق من
هذا المال فباع تلك الابل وغيرها من ماله الا الارض ثم طرحه فى بيت المال فكان ينفق من
المال على نفسه وعلى عياله * ثم كان عمر على مثل ذلك * ثم وليه عمر بن عبد العزيز فلم ينفق منه
فقيل له قد صنع أبو بكر وعمر ما قد علمت قال أجل ولكنى أخذت من هذا المال فان يكن لى
فيه حق فقد استوفيت وزدت ولولا ذلك لفعلت (قال) ابن القاسم قلت لمالك فاين قولهم عن
عمر انه رد ثمانين ألفا قال كذبوا انما يقول هذا أعداء الله ولم يجز لولده سلف أبى موسى اياه
حين أخذ منه نصفه فكيف يأخذ من مال الله ثمانين ألفا * فلما توفى أبو بكر استرجع على رضى
الله عنه وجاء مسرعا باكيا وقال رحمك الله أبا بكر لقد كنت والله أول القوم اسلاما وأكملهم
ايمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله تعالى وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأشبههم به هديا وخلقا وسمتا وفضلا وأكرمهم عليه وأرفعهم عنده فجزاك الله عن
الاسلام خيرا صدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله فى كتابه صديقا فقال تعالى
والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وآسيته حين تخلفوا وقمت معه حين قعدوا
وصحبته فى الشدة حين تفرقوا أكرم الصحبة ثانى اثنين وصاحبه فى الغار ورفيقه
فى الهجرة والمنزل عليه السكينة وخلفته فى أمته أحسن الخلافة فقويت حين ضعف
أصحابك وبرزت حين استكانوا وقمت بالامر حين فشلوا ومضيت بقوة اذ وقفوا كنت
أطولهم صمتا وأبلغهم قولا وأشجعهم قلبا وأشدهم يقينا وأحسنهم عملا كنت كما قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا فى بدنك قويا فى أمر دينك متواضعا فى نفسك عظيما
محبوبا الى أهل السموات والارض فجزاك الله عنا وعن الاسلام خيرا (وقال) عمر رحم الله
أبا بكر لقد أتعب من بعده تعبا شديدا (وروى) البيهقى عن عمر رضى الله عنه انه قال انى أنزلت
نفسى من مال الله تعالى بمنزلة ولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف
(وفى رواية أخرى) ان احتجت أخذت منه فاذا أيسرت رددته (وفى رواية أخرى) أخبركم
بما أستحل من مال الله تعالى وما قال يحل لى أستحل منه حلتين حلة للشتاء وحلة للقيظ وما
أحج عليه وأعتمر وقوتى وقوت عيالى كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم
ثم انا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم (وقال) أنس بن مالك غلا الطعام على عهد عمر

رضى الله عنه فأكل خبز الشعير وكان قبل ذلك لا يأكله فاستنكره بطنه فصوت فضربه بيده وقال هو والله ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين (وقال) أبو عثمان النهدى رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف بالبيت وعليه جبة صوف فيها اثنتا عشرة رقعة احداها بادم أحمر (وقال) عطاء بن السائب استعمل عمر بن الخطاب السائب بن الاقرع على المدائن فدخل ايوانا من ايوان كسرى فاذا صنم يشير باصبعه الى الارض قد عقد أربعين فقال والله ما يشير هذا الى الارض الا وثم شئ فاحتفروا فاستخرجوا منه سفطا فيه جوهر فكتب الى عمر بن الخطاب أما بعد فانى دخلت ايوانا من ايوان كسرى فرأيت كذا وكذا فاحتفرت فأخرجت سفطا فيه جوهر فلم أجد أحق به منك يا أمير المؤمنين لم يكن من فئ المسلمين فاقسمه بينهم انما أصبناه تحت الارض فلما قدم السفط على عمر وعليه خاتم السائب فرأى عمر فيما يرى النائم كأن نارا أججت وهو يراد يلقى فيها فكتب الى السائب أن اقدم على قال فقدمت عليه وهو يطوف فى ابل الصدقة فطفت معه الى نصف النهار ثم دعا بماء فاغتسل ودعا لى بماء فاغتسلت ثم ذهب الى منزله فأتى بلحم غليظ وخبز متمحش فقال انظر من على الباب فاذا اسودان من الصوفية فاذن لهم فجعل يأكل معهم فاذا اللحم غليظ لا أستطيع أن أسيغه وقد كنت تعودت درمك أصبهان اذا وضعته فى فى دخل بطنى ثم دعا بالسفط وقال أتعرف خاتمك قلت نعم فقال كنت ترفق لى تزعم انى أحق به من أين أصبته فأخبرته قال اذهب فاجعله فى بيت مال المسلمين حتى أقسمه بينهم (وقال) قتادة قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله فقال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير قال خالد بن الوليد لهم الجنة فاغرورقت عينا عمر وقال لئن كان حظنا فى هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدا (وقال) عبد الله بن عمر العمرى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قدم الشام قال لابى عبيدة اذهب بنا الى منزلك قال ما تريد الى ان تعصر عينك على قال فدخل منزله فلم ير شيأ فقال عمر أين متاعك لا أرى الا لبدا أو شنا وصحفة وأنت أمير أعندك طعام فقام أبو عبيدة الى جونة فأخرج منها كسرات فبكى عمر فقال أبو عبيدة قد قلت لك انك تعصر عينك على يا أمير المؤمنين يكفيك من الدنيا ما بلغك المقيل فقال عمر غرتنا الدنيا بعدك يا أبا عبيدة (وقال) النخعى بعث عمر بن الخطاب مصدقين فأبطؤا عليه وبالناس حاجة شديدة فجاؤا بالصدقات فقام فيها متزرا بعباءة يختلف فى أولها وآخرها يقول هذه لآل فلان وهذه لآل فلان حتى انتصف النهار وجاع ودخل بيته حتى اذا أمكن أكله أكله ثم قال من أدخله بطنه أبعده الله (وقال) طاوس اجدب الناس على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فما أكل سمنا ولا سمينا حتى أكل الناس (وقال) سعيد بن جبير ان علياً رضى الله عنه قدم الكوفة وهو خليفة وعليه ازاران قطريان قد رقع ازاره بخرقة ليست بقطرية من ورائه فجاءه اعرابى فنظر الى تلك الخرقة فقال يا أمير المؤمنين كل من هذا الطعام والبس واركب فانك ميت أو مقتول قال ان هذا خير لى فى صلاتى وأصلح لقلبى وأشبه بشبه الصالحين قبلى وأجدر أن يقتدى بى من أتى من بعدى (وقال) الحسن ان عمر بن الخطاب بينما هو يعس فى المدينة بالليل أتى على امرأة من الانصار تحمل قربة فسألها فذكرت ان لها عيالا وأنها ليس لها خادم وأنها تخرج فى الليل فتسقيهم

الماء وتكره أن تخرج بالنهار فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها وقال اغدى على عمر غدوة يخدمك خادما قالت لا أصل اليه قال انك ستجديه ان شاء الله تعالى فغدت عليه فاذا هي به فعرفت أنه الذي حمل قربتها فذهبت تولى فأرسل في اثرها وأمر لها بخادم ونفقة * ولما حج عمر رضي الله عنه قال كم بلغت نفقتنا يا يرفا قال ثمانية عشر دينارا يا أمير المؤمنين قال ويحك أجحفنا بيت مال المسلمين (وقال) شهر بن حوشب لما قدم عمر الشام طاف بكورها حتى نزل حمص فقال اكتبوا الى فقراءهم فرفعوا اليه الرقعة واذا فيها سعيد بن عامر فقال من سعيد بن عامر قالوا أميرنا فعجب عمر وقال كيف يكون أميركم فقيرا فقالوا انه لا يملك شيأ فبكى عمر وبعث اليه بألف دينار يستعين بها في حاجته فجعل يسترجع فقالت له امرأته مالك أصابك امير المؤمنين بشئ قال أعظم من ذلك أتتنى الدنيا دخلت علىّ الدنيا واني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائها باربعين عاما فوالله ما يسرني أني حبست عن الرعيل الاول وان لي به ما طلعت عليه الشمس قالت فاصنع فيه ما شئت قال هل عندك معونة قالت نعم فأتته بخمارها فصرّ الدنانير فيها صررا ثم جعلها في مخلاة وبات يصلى ويبكى حتى أصبح فأعرض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها فقالت امرأته رحمك الله لو حبست منها شيأ نستعين به فقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لو اطلعت امرأة من نساء اهل الجنة الى الارض لملأت الارض من ريح المسك واني والله ما اختارك عليهن فسكتت (وروى) ان عمر رضى الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب اليه ان يقدم عليه فلم يشعر به عمر الا أن قدم ماشيا حافيا معه عكازته وادواته ومزودته وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال يا عمير أخبتنا أم البلاد بلاد سوء فقال يا امير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وماترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا أجرّها بقرابها فقال وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوّا ان لقيته ومزودي احمل فيه طعامي واداوتي هذه احمل فيها ماء لشربي وصلاتي وقصعتي هذه أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي فوالله يا امير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبع لما معي قال فقام عمر من مجلسه الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فبكى ثم قال اللهم ألحقني بصاحبيّ غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد الى مجلسه ثم قال ما صنعت في عملك يا عمير قال أخذت الرقة من اهل الرقة والابل من أهل الابل وأخذت الجزية من أهل الذمة عن يدوهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي منها شئ عندي أتيتك به فقال عمر عد الى عملك فقال عمير انشدك الله ان لا تردني الى عملي فاني لم أسلم منه حتى قلت لذمي اخزاك الله ولقد خشيت أن يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول أنا حجيج المظلوم فما حاججته حججته ولكن ائذن لي الى أهلي فأذن له فاتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له خبيب بمائة دينار وقال ائت عميرا فانزل عليه ثلاثا فان يك خائنا لم يخف عليك في عيشه وحال أهل بيته وان لم يك خائنا لم يخف عليك فادفع اليه المائة فاتاه خبيب فنزل به ثلاثا فلم يرله عيشا الا الشعير والزيت فلما مضت ثلاث قال يا خبيب ان رأيت أن تحول الى جيراننا فافعل ان يكونوا أوسع عيشا منا أما نحن فوالله لو كان

قوله فما حاججته هكذا في النسخة التي بايدينا ولعله فن أو استعمل ما فيمن يعقل اه

عند ناغيرهـذا الأثر نالك به (قال) فدفع اليه المائة وقال بعث بها اليك أمير المؤمنين فدعا بشرو خلق لامرأته فصرها الخمسة والستة والسبعة فقسمها فقدم حبيب على عمر فقال يا أمير المؤمنين جئتك من عند أزهد الناس وماعنده من الدنيا الاقليل ولا كثير فبعث اليه عمر وقال ماصنعت فى المائة ياعمير قال لاتسألنى عنها قال لتخبرنى (قال) قسمتها بينى وبين اخوانى المهاجرين والانصار قال فأمر له بوسق طعام وثوبين قال يا أمير المؤمنين (أما الثوبان) فأقبل (وأما الوسقان) فلاحاجة لى بهما عند أهلى صاع من برهو كافيهم حتى ارجع اليهم (وروى) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صرار بعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها الى عبيدة بن الجراح ثم تلكأ ساعة فى البيت حتى ترى مايصنع فذهب بها الغلام اليه وقال يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك قال وصله الله ورحمه (ثم قال) تعالى ياجارية اذهبى بهذه السبعة الى فلان وبهذه الخمسة الى فلان حتى أنفدها ورجع الغلام الى عمر فاخبره (ووجده) قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له اذهب بهذه الى معاذ بن جبل وتلكأ فى البيت ساعة حتى تنظر مايصنع فيها فذهب بها اليه وقال ان أمير المؤمنين يقول لك اجعل هذه فى بعض حاجتك فقال رحمه الله ووصله (ثم قال) ياجارية اذهبى الى فلان بكذا والى فلان بكذا فقالت امرأة معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق فى الخرقة الا ديناران فرمى بهما اليها فرجع الغلام فاخبر بذلك عمر فقال عمر انهم اخوة بعضهم من بعض

(الباب الموفى خمسين فى سيرة السلطان فى تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال)

(اعلم) أرشدك الله تعالى ان اول من اتخذ الدواوين واجرى الاعطية على ماروى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان يفضل أهل السابقة ثم الذين يلونهم حتى اجرى على العامة شيأ واحدا ثلثمائة واربعمائة وفرض للعيال مائة درهم فى كل سنة (وكان) أبو بكر رضى الله عنه يساوى بين الناس فى العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول انما عملوا لله فأجورهم على الله وانما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس عوضا لاعمالهم (وكان) عمر يقول لااجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ولم يقدر عمر الارزاق الا فى ولاية عمار فاجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلى معه فى كل شهر لما بعثه وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان) عطاؤه خمسة آلاف درهم وأجرى على عبدالله ابن مسعود مائة درهم فى كل شهر وربع شاة فى كل يوم وأجرى على شريح القاضى مائة درهم فى كل شهر وعشرة اجربة (وانما) فضل عمارا عليهم لانه كان على الصلاة (قال) مالك وكان عمر لايفرض لصغير رضيع فاذا فطم فرض له فرمن الليل وصبى يبكى يبغى الرضاع وامه لاترضعه فقال لها عمر أرضعيه قالت اذا لايفرض له عمر قال بلى هو يفرض له ثم فرض عمر بعد ذلك للمولود مائة درهم فى كل سنة (قال ابن) جبلة وفرض عمر للعيالات لكل عيل من ذكر وأنثى جريبين من بر فى كل شهر وقسطين من زيت وقسطا من خل ومائة درهم فى كل

سنة (قال) والجريب قفيز بالقرطي والقسط قدر ثمن ربع الزيت بالقرطي (قال) الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثلاثين ألف من الناس (وكان) يخطب الناس في عباءة يلبس نصفها ويفترش نصفها فاذا خرج عطاؤه أمضاه وكان يسف الخوص ويأكل من سفيف يده (وقال) الحسن قدم على عمر بن الخطاب وفد من البصرة مع أبي موسى الاشعري قال فكنا ندخل عليه وله كل يوم خبز ثلاث (فربما) وافقناها مأدومة بسمن واحيانا بزيت واحيانا باللبن وربما وافقنا القديد اليابس قد دق ثم أغلى عليه بماء وربما وافقنا اللحم الغريض وهو قليل فقال لهم يوما انى أرى والله تقذير كم وكراهتكم لطعامى فانى لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وارفهكم عيشا اما والله ما اجهل كراكر واسنمة وأعرف صلاء وصنابا وصلائق (قال) والصلاء الشواء والصناب الخردل والصلائق الخبز الرقاق ولكنى سمعت الله تعالى عير أقواما بأمر فعلوه فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فكلمنا أبو موسى فقال لو كلمتم أمير المؤمنين لفرض لكم من بيت المال طعاما فأكلتموه فكلمناه فقال يا معشر الامراء هل ترضون لانفسكم ما أرضاه لنفسي فقلنا يا أمير المؤمنين ان المدينة ارض العيش بها شديد ولا نرى طعامك يغنينا ولا يؤكل طعامك وانا بأرض ذات ريف وان أميرنا يغنينا وان طعامه يؤكل قال فنظر ساعة ثم رفع رأسه فقال قد فرضت لكم من بيت المال شاتين وجريبين فاذا كان بالغداة فضع احدى الشاتين على احدى الجريبين وكل أنت وأصحابك ثم ادع بشراب ثم اسق الذى عن يمينك ثم اسق الذى عن شمالك ثم قم لحاجتك واذا كان العشاء فضع الشاة الغابرة على الجريب الآخر فكل أنت وأصحابك الا واسعوا الناس في بيوتهم وأطعموا عيالهم والله ما أظن رستاقا يؤخذ منه كل يوم شاتان وجريبان الا يسرع ان في خرابه (وكان عمر) قد أطعم جريبين بالخل والزيت لثلاثين رجلا فكفاهم فأجراه على كل رجل في كل شهر ممن كان في الديوان مكان ما كانت فارس تجريه على خيولهم وأساورهم (وقال) سعيد بن المسيب وأبو سلمة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا العيال يسلم على أبوابهن ويقول ألكن حاجة وأيتكن تريد ان تشترى شيأ فيرسلن معه بحوائجهن ومن ليس عندها شئ اشترى لها من عنده واذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعهن بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول ازواجكن في سبيل الله وانتن في بلاد رسول الله ان كان عندكن من يقرأ والا فاقربن من الابواب حتى أقرأ لكن ثم يقول الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول هذه دواة وقرطاس فادنين من الابواب حتى أكتب لكن ويمر الى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها الى ازواجهن (وقال) الربيع بن زياد الحارثي كنت عاملا لابي موسى الاشعري على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وان يستخلفوا جميعا فلما قدمت المدينة اتيت يرفا فقلت يا يرفا مسترشد وابن سبيل أي الهيآت احب الى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ الى الخشونة فاتخذت خفين مطارقين ولبست جبة صوف ولثت عمامتي على رأسي فدخلنا على عمر فصففنا بين يديه فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيرى فدعاني فقال من انت قلت الربيع ابن زياد الحارثي (قال) وما تتولى من أعمالنا قلت البحرين قال وكم ترزق قلت الفا قال كثير فما

تصنع بها قلت اتقوت منها شيأ واعود على أقارب لى فأفضل عنهم فعلى فقراء المسلمين قال فلا بأس ارجع الى موضعك فرجعت الى موضعى من الصف فصعد فينا وصوب فلم تدمع عينه الا على فدعانى فقال كم سنك قلت خمس وأربعون سنة قال الآن حين استكملت (ثم دعا) بالطعام وأصحابى حديثو عهد بلين العيش وقد تجوعنا له فاتى بخبز وأعضاء بعير فجعل أصحابى يعافون ذلك وجعلت آكل وجعلت أنظر اليه يلحظنى من بينهم ثم سبقت منى كلمة تمنيت انى سخت فى الارض ولم أقلها فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى سلامتك فلو عمدت الى طعام الين من هذا فزجرنى ثم قال كيف قلت قلت فقلت يا أمير المؤمنين لو تنظر الى قوتك من الطحين ان يخبز لك قبل ارادتك اياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذا فتؤتى بالخبز لينا وباللحم غريضا فسكن غيظه ثم قال ها هنا رعت قلت نعم (قال) يا ربيع انا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسنايك يعنى خبز الحوارى ولكنى رأيت الله تعالى عاب على قوم شهواتهم فقال اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ثم امر أبا موسى باقرارى على عملى وان يستبدل بأصحابى (وقال) قبيصة بن ذؤيب دعا عمر بن الخطاب عبيد الله بن سعد وكان على أهل حمص فقال علام يحبك أهل الشام قال انى أحبهم فاحبونى قال مالك قلت عبدى وفرسى وبغلى وخادمى (قال) فماذا تلبس فى الشتاء قلت عمامة اشد بها رأسى وجبة وكساء قال فما تلبس فى الصيف قلت قميصا وريطة فاعطانى عمر ألف دينار (وقال) خذها واستنفق منها فأعط منها قلت لا ارب لى فيها ستجد من هو أحوج اليها منى قال خذها فان النبى عليه السلام دفع الى مالا وهو دون الذى أعطيتك فقلت له كما قلت لى فقال يا عمر ما آتاك الله من هذا المال عطاء من غير ان تعرض له أو تشرف له نفسك فاقبله فاخذته فانطلق به الى امرأته فقال أترين رجلا له هذا من فقراء المهاجرين هو ام من الاغنياء فقالت له من الاغنياء فقسمها حتى بقيت منها صرة أظن فيها ثلاثين أو نحو ذلك فقالت له امرأته اليس لى أنا حق فاعطاها اياه (وقال) زياد بن حيوة بينما نحن بخناصرة اذا بامرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فارشدناها الى الدار فرأت دارا متهشمة فقالت لخياط هناك استأذن لى على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز قال فادخلى وصوتى بها فانها تأذن لك فدخلت فلما أبصرت ماهنالك قالت جئت ارم فقرى من بيت الفقراء واذا رجل يعمل فى الطين فسألتها عن أمير المؤمنين فقالت هو ذلك يعمل فى الطين فقالت له يا أمير المؤمنين مات زوجى وترك ثمان بنات فبكى عمر بكاء شديدا ثم قال لها ما تريدين قالت تفرض لهن قال نفرض للكبرى ما اسمها قالت فلانة فكتبها فقالت الحمد لله قال ما اسم الثانية قالت فلانة فكتبها فقالت الحمد لله حتى كتب السابعة فقالت جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين فطرح القلم من يده وقال لها أما انك لو وليت الحمد أهله لاتممناهن لك فمرى السبع فلتواسين هذه الثامنة

﴿الباب الحادى والخمسون فى أحكام أهل الذمة﴾

(روى) عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لانحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة

راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراده وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيأ من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وان نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم (فلما أتيت) عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه ولا نضرب احدا من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا مايحل من أهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضي الله عنه ان أمض ماسألوه وألحق فيه حرفين اشترطتهما عليهم مع ماشرطوا على أنفسهم ان لا يشتروا شيأ من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده (وروى) نافع عن سالم مولى عمر بن الخطاب ان عمر كتب الى أهل الشام في النصارى أن يقطع ركبهم وان يركبوا على الاكف وان يركبوا في شق وان يلبسوا خلاف زي المسلمين ليعرفوا (وروى) ان بني تغلب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فقالوا ياأمير المؤمنين انا قوم من العرب افرض لنا قال نصارى قالوا نصارى قال ادعوا الي حجاما ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزما يحتزمونها وأمرهم ان لا يركبوا السروج ويركبوا الاكف من شق واحد (وروى) ان أمير المؤمنين المتوكل اقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم واذلهم وأقصاهم وخالف بين زيهم وزي المسلمين وجعل على أبوابهم مثالا للشياطين لانهم أهل ذلك وقرب منه أهل الحق وباعد عنه أهل الباطل والاهواء فاحيا الله به الحق وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه مادامت الدنيا (وكان) عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم أهل رشا في دينهم ولا تحل في دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب أباموسى الاشعري من البصرة وكان عاملا عليها للحساب دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال له عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ألا اتخذت حنيفا فقال ياأمير المؤمنين لي كتابته وله دينه فقال لا أكرمهم اذ أهانهم الله ولا أعزهم اذ أذلهم الله ولا أدنيهم اذ اقصاهم الله وكتب بعض العمال الى عمر بن الخطاب ان العدد قد كثر

وان الجزية قد كثرت فنستعين بالاعاجم فكتب اليه عمرانهم اعداء الله وانهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله ولا تردوا اليهم شيئا وقال عمران بن أسد أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز الى محمد بن المنتشر أما بعد فانه بلغنى ان فى عملك رجلا يقال له حسان بن يزدى على غير دين الاسلام والله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين واذا أتاك كتابى هذا فادع حسان الى الاسلام فان أسلم فهو منا ونحن منه وان أبى فلا تستعن به ولا تأخذ من غير أهل الاسلام على شئ من أعمال المسلمين فقرأ الكتاب عليه فاسلم (ولما) خرج النبي عليه السلام الى بدر تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة فقال انى أريد أن أتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة ففرح به أصحاب النبي عليه السلام وكانت له قوة وجلد فقال جئتك لاتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه على ظهر البيداء فقال له مثل ذلك قال تؤمن بالله ورسوله قال نعم فخرج به وهذا أصل عظيم فى ان لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدى النبي عليه السلام ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عماله ان لا تولوا على أعمالنا الا أهل القرآن فكتبوا اليه انا وجدنا فيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن فى أهل القرآن خير فأجدر أن لا يكون فى غيرهم خير

* (فصل) * ومتى نقض الذمى العهد بمخالفته لشئ من الشروط المأخوذة عليهم لم يرد الى مأمنه والامام فيه بالخيار بين القتل والاسترقاق وقال أصحاب الشافعى ويلزمهم ان يتميزوا عن المسلمين فى اللباس وان لبسوا قلانس ميزوها عن قلانس المسلمين بالخرق ويشدون الزنانير فى أوساطهم ويكون فى رقابهم خاتم من رصاص أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام وليس لهم ان يلبسوا العمائم والطيلسان واما المرأة فتشد الزنار تحت الازار وقيل فوق الازار وهو الاولى ويكون فى عنقها خاتم يدخل معها الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ويركبون البغال والحمير بالاكف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدؤن بالسلام ويلجؤن الى أضيق الطريق ويمنعون ان يعلوا على المسلمين فى البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز بل يمنعون وان تملكوا دارا عالية أقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام فى الحجاز وهى مكة والمدينة واليمامة ويجعل الامام على كل طائفة منهم رجلا يكتب أسماءهم وحلاهم ويستوفى جميع ما يؤخذون به من جميع الشروط وان امتنعوا من اداء الجزية والتزام أحكام الملة انتقض عهدهم وان زنى أحدهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينا للكفار أو دل على عورة للمسلمين أو فتن مسلما عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق أو ذكر الله ورسوله بما لا يجوز قيل ينتقض وان فعل ما يمنع منه مما لا ضرر فيه كترك الغيار واظهار الخمر وما أشبهه ما عزر عليه ومتى فعل ما يوجب نقض العهد رد الى مأمنه فى أحد القولين وقتل فى الحين فى القول الآخر .

(فصل) في تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فقيل انها مقدرة الاقل والاكثر على ما كتب به عمر الى عثمان بن حنيف بالكوفة فوقع على الغني ثمانية وأربعون درهما وعلى من دونه أربعة وعشرون درهما وعلى من دونه اثنا عشر درهما وهذا مذهب أبي حنيفة وابن حنبل واحد قولي الشافعي وجعلوه كأنه حكم امام فلا ينقض وقيل انها مردودة الى الامام في الزيادة والنقصان وهو الاقيس وقيل انها مقدرة الاقل دون الاكثر فيجوز للامام ان يزيد على ماقدره عمر ولا يجوز ان ينقص عنه وقال بعضهم يجوز ان يساوي بينهم من كل واحد دينار وقال مالك يؤخذ من الموسر اربعون درهما ومن الفقير دينار وعشرة دراهم ويتخرج على مذهب مالك في وجوب تقدير طرفيها قولان بناء على العشر المأخوذ منهم هل هو تقدير شرعي لا تجوز فيه الزيادة والنقصان وعن مالك فيه روايتان ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد بن عبد الرحمن سلام عليك أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور العمال وسنن سيئة سنها عليهم عمال السوء فاحرز عليهم أرضهم ولا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ولا تأخذ من الخراب الا ما يطيقون ولا من العامر الا وظيفة الخراج الاوزن سبعة ليس لها أس ولا اجور الضرابين ولا اداة الفضة ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الارض والواجب أن يؤخذ ما أمر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من كل جريب كرم عشرة دراهم ومن كل جريب نخل ثمانية دراهم ومن كل جريب حنطة أربعة دراهم ومن كل جريب شعير درهمان

(فصل) وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع أن تحدث كنيسة وأمر ان لا تظهر علية خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر ان لا يترك في دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة وهكذا قال الحسن البصري قال من السنة ان تهدم الكنائس التي في الامصار القديمة والحديثة ويمنع أهل الذمة من بناء ما خرب قال الاصطخري ان طينوا ظاهر الحائط منعوا وان طينوا داخله الذي يليهم لم يمنعوا ويمنعون ان يعلوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز

قوله ان الخ كذا بالاصل

(الباب الثاني والخمسون في بيان الصفات المعتبرة في الولاة)

اعلم أرشدك الله تعالى ان منزلة العمال من الوالي منزلة السلاح من المقاتل فاجتهد جهدك في ابتغاء صالح العمال واذا فقد الوالي عمال الصدق كان كفقد المقاتل السلاح يوم الحرب ويحتاج الى طبقات الرجال كما يحتاج الحرب الى اصناف العدة فمنها الدرق للاستجنان والسيف للمناجزة والرمح للمطاعنة والسهم للمباعدة والدرع للتحصن ولكل منها موضع ليس للآخر والرجال للملك كالاداة للصانع لا يسد بعضها مسد بعض كذلك طبقات الرجال للملك منهم للرأي والمشورة ومنهم لادارة الحرب ومنهم لمباشرة الحرب ومنهم لجمع الاموال ومنهم لحفظها ومنهم للحماية ومنهم للكتابة ومنهم للجمال والفخر ومنهم للمباهاة والذكر

ومنهم للدعاء والوقار ومنهم للعلم والفتيا وحفظ أساس الملة فلا يكمل للملك ملك مالم يجمع هذه الطبقات وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما مات كسرى بلغ موته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من استخلفوا قالوا ابنته بوران قال لن يفلح قوم اسندوا أمرهم الى امرأة وقال ابن عباس لما كانت فتنة الحرة قيل من استعمل القوم قالوا عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة الراهب على الانصار قال أميران هلك والله القوم وليس يشترط الا في الامامة العظمى دون سائر الولايات (ولما) استحضر هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وكان من الخطباء قال له هشام بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة قال زيد فقد كان اسمعيل بن ابراهيم بن أمة واسحق بن حرة ومحمد عليه السلام من ولد اسمعيل ثم اتهمه في أمر فقال له زيد أنا أحلف لك قال هشام ومن يصدقك قال زيد انه ليس أحد فوق ان يأمر بتقوى الله ولا أحد دون ان يؤمر بتقوى الله وقال بعض الخلفاء دلوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني قالوا وكيف تريده قال اذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم واذا كان في القوم وهو اميرهم كان كأنه رجل منهم قالوا ما نعلمه الا الربيع بن زياد الحارثي قال صدقتم هو لها ويروى ان عمر بن عبد العزيز استشار في قوم يستعملهم فقال له بعض أصحابه عليك باهل العدل قال ومن هم قال الذين ان عدلوا فهو ما رجوت وان قصروا قال الناس اجتهد عمر (ولما) قدم البريد من بشر بن مروان على عبد الملك بن مروان سأله عن بشر قال يا أمير المؤمنين هو الشديد في غير عنف اللين في غير ضعف فقال عبد الملك ذاك الاعسم الاجود الذي كان يأمن عنده البريء ويخاف لديه السقيم ويعاقب على قدر الذنب ويعرف موضع العفو الشديد في غير عنف اللين في غير ضعف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال الحكيم اعتبر الرجال بأفعالهم لا بعظم اجسامهم فان النسر مع عظمه لا يأكل الا ميتا وطير الماء مع ضعفه يتحامى ميت السمك ويأكل الحي منها (وفي) حكم الهند السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه واطرحه مخافة ضره كالملسوع يقطع اصبعه لئلا ينتشر السم في جسمه وربما أبغض الرجل فاكره نفسه على توليته وتقريبه لغناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه الا ان للاسلام شروطا فلا تستقيم هذه السيرة عليها الا ترى ان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لما افضت الخلافة اليه كان معاوية واليا على الشام من قبل عمر ثم عثمان فاستشار في أمره فقال له بعضهم اقره على امرته وأرسل اليه بعهده فاذا دخل في بيعتك فاعزله فقال له رحمك الله أتأمرني أن أطلب العدل بالجور ثم عزله فكان سبب عصيانه وهكذا أشاروا عليه فقالوا يا أمير المؤمنين لو فضلت هؤلاء الاشراف ومن تخوف منهم وانما الناس أصحاب دنيا حتى اذا استوثق الامر عدت الى التسوية فقال أتأمروني أن أطلب العدل بالجور فيمن وليت عليه والله لو كان مالي لسويت بينهم ولم أفضل بعضهم على بعض فكيف والمال لهم واعطاء المال في غير حقه تبذير وسرف وهو يرفع ذكر صاحبه في الدنيا ويضعه عند الله في الآخرة ولن يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله الا حرمه الله تعالى شكرهم ويصير لغيره ودهم فان بقي معه منهم من يظهر له الود والشكر فذلك ملق وخديعة لينال منه فان زلت به النعل يوما فاحتاج الى معونته ومكافأته ماسلف من مبرته فشر خليل

والاملخدين واياك أيها الوالي وحب المدح فان من أحب المدح عد كمن مدح نفسه واذا علم ذلك منك جعل الناس سلما القضاء حوائجهم منك فحينئذ يكون قضاء الحوائج انفسك لالهم وقال النبي عليه السلام احثوا في وجوه المداحين التراب وسمع المقداد رجلا يمدح عثمان ابن عفان فأخذ كفا من تراب فالقاه في وجهه وسمع النبي عليه السلام رجلا يمدح رجلا فقال قطعت ظهر أخيك لو سمعها ما أفلح بعدها ووصف اعرابي أميرا فقال كان اذا ولي لم يطابق بين جفونه وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم شاهد معهم فالمحسن راج والمسيء خائف وقال عبد الله بن الزبير يوما لا يعدمن ابن هند ان كانت فيه لمخارج ما نجدها في أحد بعده أبدا والله ان كنا لنعرفه وما الليث الحرب على براثنه باجرأ منه فيتفارق لنا وان كنا لنخدعه وما ابن ليلة من الارض بأدهى منه والله لوددت أنا متعنا به ما دام في هذا حجر وأشار الى أبي قبيس لا يتخون له عقل ولا ينتقص له قوة وقال الصابي كتب عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة كتابا في مثل اذن الفارة أما بعد فانه لا يقيم امر الله في الناس الا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على الجرة ولا يخاف في الله لومة لائم (وقال) مالك جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله ان يكتب له كتابا في أمر فقال اذهب الى منزلنا فاتني بدواة وقرطاس فذهب فلم يجد فقال اطلب عندهم شيئا فذهب فلم يجد عندهم الا اذن مزود فكتب له في تلك الاذن (ولما) ولي المأمون يحيي بن أكثم قضاء البصرة بعد ان استحعن عقله وعلمه وامتحنه بمسائل فوجده فوق ما يريد فتلقاه وجوه البصرة فرأوا شابا صبيا ما بقلت لحيته فتعجبوا ونظر بعضهم الى بعض يقلبون الاكف ويغمزون الحواجب فقال له بعضهم كم سن القاضي أصلحه الله قال مثل سن عتاب ابن أسيد لما ولاه النبي عليه السلام مكة فهابوه لحدة جوابه وعرفوا فضله وكان لعتاب بن اسيد احدى وعشرون سنة لما ولي مكة وكان عمر يقول لا يصلح ان يلي أمور الناس الا حصيف العقل وافر العلم قليل الغرة بعيد الهمة شديد في غير عنف لين في غير ضعف جواد في غير سرف لا يخاف في الله لومة لائم وقال أيضا ينبغي ان يكون في الوالي من الشدة ما يكون ضرب الرقاب عنده في الحق كقتل عصفور ويكون فيه من الرقة والحنو والرأفة والرحمة ما يجزع من قتل عصفور بغير حق (ويروى) ان الرشيد أحضر رجلا ليوليه القضاء فقال له اني لا أحسن القضاء ولا انا فقيه فقال له الرشيد فيك ثلاث خلال لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ولك حلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه وأنت رجل تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه وأما الفقه فنضم اليك من تتفقه به فولي فما وجدوا فيه مطعنا وقال اياس بن معاوية استحضرني عمر بن هبيرة فحضرت فسا كتني فسكت فلما أطلت قال ايه قلت سل عما بدا لك قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فهل تفرض الفرائض قلت نعم قال فهل تعرف من أيام العرب شيأ قلت أنا بها أعلم قال فهل تعرف من أيام العجم شيأ قلت انا بها أعلم قال اني أريد أن أستعين بك قلت ان في ثلاثا لا أصلح معهن للعمل قال ماهن قلت أنا دميم كما ترى وأنا حديد وأنا عي قال أما الدمامة فاني لا أريد ان أحاسن بك وأما العي فاني أراك تعرب عن نفسك وأما سوء الخلق فيقومك السوط فولاني وأعطاني ألف درهم فهو اول مال تموله وقال سليمان بن داود

عليهما السلام ومامه لا قافة ابوة سلمت أشبالها باصعب من لقا جاهل راض عن نفسه

(الباب الثالث والخمسون في بيان الشروط والعهود التي تؤخذ على العمال)

اعلم أرشدك الله انه يجب أن يولى على الاعمال اهل الحزم والكفاية والصدق والامانه وتكون التولية للعناء لا للهوى وملاك الولايات وأساسها أن لا يولى الاعمال طالبها ولا راغب فيها * روى البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الاشعرى قال اتيت النبى صلى الله عليه وسلم ومعى رجل فلما سلمنا عليه قال صاحبى يارسول الله استعملنى فقال عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من أراده فقلت يارسول الله والذى بعثك بالحق ماعرفت الذى فى نفسه (وقد روى) عن بزرجمهر وقد قيل له مابال ملك آل ساسان صار أمره الى ماصار اليه قال لانهم قلدوا كبار الاعمال صغار الرجال ولله در عمرو بن العاصى حيث قال موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة * وقال العلاء بن أيوب غضب المأمون على بعض أصحابه غضبا شديدا ثم قال له لا أماتك الله أو يبلغك دولة السفل وقال رجل من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجل قد آذاه ادركتك امرة الصبيان وقال المستوغر الاكبر وكان قد عمر فى الجاهلية ثلثمائة سنة

وماسقطت يوما من الدهر أمة * الى الذل الا أن يسود ذميمها
اذا ساد فينا اوغد ذل لئيمنا * تصدى لنا ذل وقد أديمها
وما قادها للغير الا مجرب * عليم باقبال الامور كريمها
وما كل ذى اب يعاش بفضله * ولكن لتدبير الامور حكيمها

واعلموا ان معظم مايدخل على الدول من الفساد من تقليد الاعمال أهل الحرص عليها لانه لا يخطبها الا لص فى ثوب ناسك وذئب فى مسلاخ عابد حريص على جمع الدنيا نابذ لدينه وصونه دليل على الخيانة يتخذون عباد الله خولا وأموالهم دولا واذا اقتضمت حقوق المسلمين وأكلت أموالهم فسدت نياتهم وقلت طاعاتهم فانتقضت الامور ودب الفساد الى الممالك وقد ذكرنا فى أول الكتاب الآثار فى كراهية الولايات (وقال المأمون) مافتق على قط فتق فى مملكتى الا وجدت سببه جور العمال (فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام للملك اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم (قلنا) يوسف كان نبيا من أنبياء الله تعالى واثنى من نفسه بالكفاية والامانة بين يدى من لا يتحقق بواطن أسراره ولا يعلم خصائصه وفضائله ورأى الامور والاعمال والولايات فى أيدى من ليسوا أهلا لها ويجوز مثل هذا اليوم لمن حصل بين يدى جبار لا يعلم منزلته ولا ماعنده من الخصال والفضائل أن يذكر بعض مايعلم من نفسه ليعلم قدره فيسلم بذلك من شره وعن هذا قال بعض أصحاب الشافعى اذا كان القضاء فى يد من لا يصلح له وجب أن يخطبه من يصلح له وكان ذلك فرضا عليه وفقهاء الامصار على خلاف هذا الرأى ويحتمل أن يكون يوسف عليه السلام قد أوحى اليه بما يصير أمره اليه من الملك والعدل ونشر كلمة الاسلام فلهذا نبه على نفسه * ومن عجيب مايروى فى هذا الباب ان لقمان الحكيم كان عبدا أسود حبشيا غليظ الشفتين مصفح القدمين لامرأة من بنى الحسحاس وكان جليسا لداود عليه السلام فأتاه جبريل عليه السلام بالنبوة من عند الله الذى يهب النبوة لمن يشاء فقال لقمان

ياجبريل ان امرني ربي فسمع وطاعة وان خيرني اخترت الحكمة فرضي الله تعالى قوله فأعطاه الحكمة وصرف عنه الرسالة الى داود عليه السلام فكان داود يقول طوبى لك يالقمان أوتيت الحكمة وأوتي داود البلية * وروى أنه جالس داود عليه السلام وداود يعمل الدروع فأقام حولا يبصر صنعة الدرع ولا يعلم ما يصلح له ولا يسأله عن ذلك فلما تم حول لبس داود الدرع وقال درع حصينة ليوم حرب فقال لقمان الصمت حكمة وقليل فاعله * وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا بعث عاملا اشترط عليه أن لا يركب البراذين ولا يلبس الرقيق ولا يأكل النقي ولا يتخذ حاجبا ولا يغلق بابا عن حوائج الناس وما يصلحهم ويقول له اني لا أستعملك على أبشارهم ولا أعراضهم ولا أعمالهم وانما استعملتك لتصلي بهم وتقضي بينهم بالعدل (وروى) عباية بن رفاعة قال بلغ عمر بن الخطاب ان سعد بن أبي وقاص اتخذ قصرا وجعل عليه بابا وقال انقطع الصويت فأرسل عمر محمد بن مسلمة وكان عمر اذا أحب أن يؤتى بالامر كما هو عليه بعثه فقال له ائت سعدا فأحرق عليه بابه فقدم الكوفة فلما أتى الباب اخرج زنده واستورى نارا ثم احرق الباب فأتى سعدا الخبر ووصف له بصفته فعرفه فخرج اليه سعد فقال له محمد انه قد بلغ أمير المؤمنين انك قلت انقطع الصويت فحلف سعد بالله ما قال ذلك فقال له محمد نفعل الذي أمرنا به ونؤدي عنك ما تقول ثم ركب راحلته فلما كان بطن البرية أصابه من الخمص والجوع ما الله به أعلم فابصر غنما فأرسل غلامه بعمامته فقال اذهب فابتع منهم شاة فجاء الغلام بالشاة وهو يصلي فاراد ذبحها فاشار اليه أن كف فلما قضى صلاته قال انظر فان كانت مملوكة مسلم فارددها الشاة وخذ العمامة وان كانت حرة فاذبح الشاة فذهب فاذا هي مملوكة فرد الشاة وأخذ العمامة فاخذ بخطام ناقته فجعل لا يعرض له الا خطفها حتى آواه الليل الى قوم فأتوه بخبز ولبن وقالوا لو كان عندنا شئ غير هذا أتيناك به فقال بسم الله كل حلال أذهب السغب خير من مأكل السوء حتى قدم المدينة فنزل باهله فابترد من الماء ثم راح فلما أبصره عمر رضي الله عنه قال له لولا حسن الظن بك ما رأينا أنك أديت وذكروا أنه أسرع السير فقال قد فعلت وهو يعتذر ويحلف بالله ما قال فقال عمر هل آمرك بشئ قال ما رأيت مكانا أن تامر لي فقال عمر ان أرض العراق أرض رفيقة وان أهل المدينة يموتون حولي من الجوع فخشيت أن آمر لك بشئ يكون لك بارده ولي الحار * وروى زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الحمى فقال اهني اضمم جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فان دعوة المظلوم مستجابة وأدخل رب الصريمة والغنيمة واياك ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان فانهما ان تهلك ماشيتهما يرجعان الى زرع ونخل وان رب الصريمة والغنيمة ان تهلك ماشيتهما يأتيني بنيه فيقول يا أمير المؤمنين افتاركهم انا لا أبالك فالماء والكلأ أيسر على من الذهب والورق وايم الله انهم ليرون اني قد ظلمتهم انها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الاسلام والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا (ومر) يوما ببناء يبنى بحجارة وجص فقال لمن هذا فذكروا له أنه لعامل من عماله على البحرين فقال أبت الدراهم أن لا تخرج اعناقها وقاسمه ماله (وكان) يقول لي على كل خائن أمينان الماء والطين * وكان أنوشروان يكتب على عهد العمال سس خيار الناس بالمحبة

وامزج للعامة الرغبة بالرهبة وسس سفلة الناس بالاخافة (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام كما يصلح المهماز للفرس والرسن للحمار كذلك يصلح القضيب اظهر الجهال * وفى الامثال من لم يصلح باللين أصلح بالتليين * وقال هلال بن يساف استعمل النبى صلى الله عليه وسلم المقداد على سرية فلما رجع قال له النبى صلى الله عليه وسلم كيف رأيت الامارة أبا معبد قال خرجت يارسول الله وما أرى ان لى فضلا على أحد من القوم فما رجعت الا وكأنهم عبيد لى قال وكذلك الامارة أبا معبد الا من وقاه الله شرها قال والذى بعثك بالحق لا أعمل على عمل أبدا (وقيل) لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يمنعك ان تفشى العمل فى الافاضل من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال هم أجل من أن أدنسهم بالعمل * وقال ابرهيم النخعى كان عمر اذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض فان قالوا نعم حمد الله تعالى وان قالوا لا كتب اليه ان أقبل * ومثل السلطان اذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعى غنمه الذئاب ومثل من ربط الكلب العقور ببابه وان العامة لتشتم الحجاج بن يوسف والخاصة تلوم عبد الملك بن مروان لانه الذى استرعاه الرعية وقد قيل

ومن ربط الكلب العقور ببابه * فعقر جميع الناس من رابط الكلب

وكان العلاء بن أيوب لما ولى فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه على من يحضره من أهل ذلك العمل ويقول أنتم حسيبون عليه فاستوفوه منه ومن تظلم الى منه فعلى انصافه ونفقته جائيا وراجعا ويأمر العمال ان يقرؤا عهده على أهل عمله فى كل جمعة ويقول لهم هل استوفيتم

(الباب الرابع والخمسون فى هدايا العمال والرشا على الشفاعات)

روى أبو داود فى السنن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من شفع لاخيه شفاعة فاهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا والسر فيه أنك اذا قدرت على قضاء حاجة من عند السلطان الظالم أو اليد القاهرة صار ذلك واجبا عليك * وروى البخارى فى صحيحه ان النبى صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا يقال له ابن اللتبية فلما جاء قال يارسول الله هذا لكم وهذا لى قال فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال ما بال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا لى أفلا قعد فى بيت أبيه وامه فينظر هل يهدى له * قال مالك وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشاطر العمال فيأخذ نصف اموالهم وشاطر اباهريرة وقال له من اين لك هذا المال فقال ابو هريرة دواب تناتجت وتجارات تداولت فقال انما الشطر وانما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم * وروى مالك عن ابن عمر انه اشترى هو وعبيد الله أخوه ابلا فبعثاها الى الحمى فرعت فقال عمر رعيتما فى الحمى فشاطرهما وشاطر سعد بن ابى وقاص حين قدم من الكوفة كانه رأى أن ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فلا يستحق ذلك لان له بالامرة قوة على أن ينال من الحلال مالا ينال غيره فجعله كالمضارب للمسلمين ولما دفع ابو موسى الاشعرى مالا من بيت المال لعبد الله وعبيد الله ابنى عمر بن الخطاب بالبصرة

اشترى بامنه بضاعة فربحت بالمدينة فأراد عمر ان يأخذ جميع الربح فراجعه عبد الله فحكم بينهم بنصف الربح فأخذ الجميع انصف الربح واخذ عمر النصف لبيت المال (وكتب) عمر بن عبد العزيز الى عماله أما بعد فانما هلك من كان قبلكم بمنعهم الحق حتى يشترى و بسطهم الباطل حتى يفتدى الملك بالدين يقوى والدين بالملك يبقى (وكان) عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر اذا قدم عليه العمال ان يدخلوا نهارا ولا يدخلوا ليلا كى لا يحجبوا شيأ من الاموال * وقال عتاب بن اسيد والله ما أصبت فى عملى الذى ولانى النبى صلى الله عليه وسلم الاثوبين معقدين كسوتهما مولاى كيسان * وروى ان عليا رضى الله عنه استعمل أبا مسعود الانصارى على السواد فرجع الى داره وقد امتلأت فقال ما هؤلاء قالوا كذلك يصنعون بالرجل اذا استعمل قال كل هؤلاء يريدون أن يأكلوا فى أمانتى و يروى فى امارتى فرجع الى على وقال لا حاجة لى فى العمل وقد ذكرنا ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة ليستعمله فقال يارسول الله اختر لى قال اقعد فى بيتك * وفى الامثال ان الهدية تعمى و تصم وقال بعض الحكماء الرشوة رشاء الحاجة وأنشد بعضهم

اذا أتت الهدية دار قوم * تطايرت الامانة من كواها

(ولبعضهم)

ان الهدية حلوة * كالسحر تجتلب القلوبا
تدنى البعيد من الهوى * حتى تصيره قريبا
وترد مضطغن العدا * وة بعد جفوته حبيبا

(ومما قلته فى الرشوة)

وأكرم من يدق الباب شخص * ثقيل الحمل مشغول اليدين
ينوء اذا مشى نفسا وفخذا * وينطح بابه بالركبتين
وأكرم شافع يمشى عليها * ابو المنقوش فوق الصفحتين

(وقلت ايضا)

اذا كنت فى حاجة مرسلا * وأنت بانجازها مغرم
فأرسل بأكمه خلابة * به صمم أغطش ابكم
ودع عنك كل رسول سوى * رسول يقال له الدرهم

(وكتب) عبد الملك بن مروان الى قاضيه الحرث بن عاصم وقد ارتشى بكرمه

اذا رشوة من باب بيت تقحمت * لتسكن فيه والامانة فيه
سعت هربا منه وولت كأنها * حليم تولى عن جواب سفيه

(الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق)

اعلموا ارشدكم الله تعالى ان هذا الباب مما غلط الخلق فيه وقلبوا القوس ركوة فعمدوا الى اخلاق العامة واخلاق الغوغاء والادنياء وما يجرى بينهم اذا تلاقوا وتعاشروا من الافراط فى مدح بعضهم بعضا وتعاطيهم الكذب والتصنع والملق والمرآة والمعاريض

عن الامور المكنونة التي يسوء اظهارها والانخراط في سلك المزاح والمهازرة فهذا وما اشبهه عندهم من حسن الخلق وهو عندنا نقيض ما نص الله عليه ورسوله من حسن الخلق فأول ذلك ان تعلم أنه لم تحتوِ الارض على بشر أحسن خلقا من محمد صلى الله عليه وسلم فكل من تخلق باخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قاربها أو بعضها كان أحسن الناس خلقا وكل خلق ليس بعد من اخلاقه صلى الله عليه وسلم فليس من حسن الخلق وهذا فصل الخطاب في هذا الباب لمن عقل وانما أوتي الناس في هذا الباب لانهم استحسنوا الاخلاق العامية واستحسنوا الاخلاق النبوية لجهلهم باخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم وها انا أتلو عليك من اخلاق الانبياء والمرسلين والاولياء والاصفياء والعلماء والصالحين ما نرجوان ينفعنا الله واياك به قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم فخص الله نبيه من كريم الطباع ومحاسن الاخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال وانك لعلى خلق عظيم وعن هذا قال الشيوخ ان الله سبحانه دعا الخلق الى حسن الخلق ودعا نبيه عليه السلام من حسن الخلق (قال عبيد الله بن عمير) قلت لعائشة أم المؤمنين صفي لي خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لي أما تقرأ القرآن كان خلقه القرآن وحسبك بهذا القول منقبة للرسول صلى الله عليه وسلم وتعريفا لك بحسن الخلق فاذا كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن فالقرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها وينهى عن كل نقيصة ورذيلة ويوضحها ويبينها ولذلك لما أنزل الله تعالى خذ العفو وأمر بالمعرف واعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا يا جبريل قال ان الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك فهذا من حسن الخلق كما ترى فانظر اين اخلاق العامة من هذا النمط وان أحدهم يقطع من وصله ويحرم من اعطاه ويظلم من سالمه ويغضب على من اتهمه وانما اقتصر على هذه الكلمات لانها أصول الفضائل وينبوع المناقب لان في اخذ العفو صلة القاطع والصفح عن الظالم واعطاء المانع وفي الامر بالمعروف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان وغض الطرف عن المحرمات وفي تقوى الله يدخل جميع آداب الشرع فرضها ونفلها وفي الاعراض عن الجاهلين الصفح والحلم وفتوة النفس عن مماراة السفيه ومجاراة اللجوج فهذه الاصول الثلاث تتضمن محاسن الشرع نصا وتنبيها وضمنا واعتبارا (وروى) أنس قيل يا رسول الله اي المؤمنين افضل قال احسنهم خلقا (وروى) ابو داود في السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق اقتضى الحديثان كل نبي مبعوث الى امة انما بعث ليعلم الخلق حسن الخلق وان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بعث ليتمم مكارم الاخلاق فاذن حسن الخلق امتثال الشرائع باسرها (وروى) البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا قال وان من أحبكم الي احسنكم أخلاقا وكان النبي صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فجبذه اعرابي جبذة شديدة حتى أثرت حاشية الرداء في عنقه وقال يا محمد مر لي من مال الله الذي آتاك فلست تأمر لي به من مالك ولا مال أبيك فالتفت اليه النبي صلى الله

عليه وسلم وقال مرواله ولم يكلمه بشيء (وروى) معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له حسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل * واعلموا أن الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه يظهر جواهر الرجال والانسان مستور بخلقه مشهور بخلقه ألا ترى ان الله تعالى خص نبيه صلى الله عليه وسلم بما خصه به من الفضائل ثم لم يثن عليه بشيء من خصاله بمثل ما اثنى عليه بخلقه * وقال بعض المفسرين في قوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم قال لا تخاصم ولا تخاصم من شدة معرفتك بالله تعالى وقيل لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد معرفتك بالحق وقال المحاسبي كظم الغيظ واظهار الطلاقة والبشر الا للمبتدع أو فاجر الا أن يكون فاجرا اذا انبسطت استحيا والعفو عن الزالين الا بادب أو اقامة حد وكف الاذى عن كل مسلم ومعاهد الا لتغيير منكر أو أخذ مظلمة لمظلوم فهذا حسن الخلق وقيل حسن الخلق ان لا تتغير ممن يقف في الصف بجنبك (وقيل) للاحنف ممن تعلمت حسن الخلق قال من قيس بن عاصم المنقري قال بينما هو ذات يوم جالس في داره اذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له فمات فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى * وكان ابن عمر اذا رأى واحدا من عبيده يحسن الصلاة يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مراآة له فكان يعتقهم فقيل له في ذلك فقال من خدعنا في الله انخدعنا له * وقال الفضيل لو ان امرأ أحسن الاحسان كله وكانت له دجاجة واساء اليها لم يكن من المحسنين (وكان المحاسبي) يقول فقدنا ثلاثة أشياء حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الامانة وحسن الاخاء مع الوفاء وقال الحسن بن علي رضوان الله عليه عنوان الشرف حسن الخلق * وكان عبد الله بن محمد الرازي يقول حسن الخلق استصغار ما منك واستعظام ما اليك (وقال سهل) حسن الخلق ان لا تطمع فيما ليس لك وليس بهذه الصفة أحد الا الله تعالى * وقيل حسن الخلق تحمل اثقال الخلق * وقال شاه الكرماني علامة حسن الخلق كف الاذى واحتمال المؤن وقيل حسن الخلق أن تكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقيل حسن الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر * ولا قلق وقيل الخلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة (وقالت امرأة) لمالك بن دينار يا مرائي فقال يا هذه وجدت اسمي الذي أضله اهل البصرة * وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان تسعوا الناس باموالكم ولكن سعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (وروى) ان ابا عثمان اجتاز بسكة وقت الهاجرة فالقي عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وبسطوا السنتهم في الملقي فقال ابو عثمان لا تقولوا شيأ من استحق ان يصب عليه النار فصولح على الرماد لم يجز ان يغضب * وقيل لابراهيم بن ادهم هل فرحت في الدنيا قط قال نعم مرتين احداهما كنت قاعدا ذات يوم فجاء انسان فبال علي والثانية كنت جالسا فجاء انسان فصفعني (وكان أويس القرني) اذا راه الصبيان رموه بالحجارة وكان يقول ان كان لابد فارموني بالحجارة الصغار كي لا تدموا علي ساقي فتمنعوني الصلاة (وروى) أن عليا رضي الله عنه دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال اما تسمع يا غلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابي قال امنت عقوبتك فتكاسلت قال امض فأنت حر لوجه الله وهذا كما ترى قوة الهيبة يفرغها الله على المصطفين من عباده واهل الصفوة

من

من أوليائه ألا ترى الى قوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فجرده عن حقائق البشرية وألبسه من نعوت الربوبية حتى قواه على صحبتهم وصبره على تبليغ الرسالة اليهم مع الذى كان يقاسيه من أخلاقهم مع كونه مستغرقا باستيلاء الحق تعالى عليه يختص برحمته من يشاء * وقال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن الف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وانما سمى بالآدمى لانه تألف من الجواهر والالوان (وقال عليه السلام) لرجلين متباغضين آدم الله بينكما أى ألف بينكما ومنه سمى الادم المأكول لانه يؤلف الطعام ويحسنه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم لرجل أراد أن يتزوج امرأة انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما أى يؤلف بينكما وروى أن معروفا الكرخى نزل الدجلة يتوضأ ووضع مصحفه وملحفته فجاءت امرأة فاخذتهما فتبعها معروف وقال يا أختى أنا معروف لا بأس عليك ألك ابن يقرأ قالت لا قال فزوج قالت لا قال فهات المصحف وخذى الثوب (وروى) أن أبا ذر كان على حوض يسقى ابله فاسرع بعض الناس اليه فانكسر الحوض فجلس ثم اضطجع فقيل له فى ذلك فقال ان النبى صلى الله عليه وسلم أمرنا اذا غضب الرجل أن يجلس فان ذهب عنه والا فليضطجع (وقال على بن ابى طالب) رضى الله عنه انا لنصافح اكفا نرى قطعها * وقال ابو ذر انا لنكشر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال الحرث بن قيس يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعمله فلا أكثر الله فى المسلمين مثله * وقال عروة ابن الزبير مكتوب فى الحكمة بنى لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك طلقا ولتكن احب الى الناس ممن يعطيهم العطاء ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحبا صالحا يغنم (وروى) ان ابراهيم بن ادهم خرج الى بعض البرارى فاستقبله جندى فقال له اين العمران فاشار الى المقبرة فضرب رأسه فاوضحه فلما جاوزه قيل له هذا ابراهيم بن ادهم زاهد خراسان فجاء يعتذر اليه فقال انك لما ضربتنى سألت الله لك الجنة فقال لم فقال قد علمت انى أؤجر على ذلك فلم اردان يكون نصيبى منك الخير ونصيبك منى الشر (وحكى) ان اباعثمان الحيرى دعاه انسان الى ضيافة فلما وافى باب الدار قال يا استاذ ليس لى وجه فى دخولك وقد ندمت فانصرف رحمك الله فرجع ابو عثمان فلما وافى منزله عاد اليه الرجل وقال يا استاذ ندمت واخذ يعتذر وقال احضر الساعة فقام ابو عثمان ومضى معه فلما وافى داره قال مثل ما قال فى الاولى واخذ يعتذر ثم كذلك فى الثالثة والرابعة وابو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال يا استاذ انما اردت اختبارك والوقوف على اخلاقك وجعل يعتذر اليه ويمدحه فقال ابو عثمان لا تمدحنى على خلق تجد مثله مع الكلاب فالكلب اذا دعى حضر واذا زجر انزجر (وروى) ان بعض الفقراء نزل على جعفر بن حنظلة وكان جعفر يخدمه والفقير يقول نعم الرجل انت لولم تكن يهوديا فقال له جعفر عقيدتى لا تقدح فيما تحتاج اليه من الخدمة فسل لنفسك الشفاء ولى الهداية (وروى) ان ابا جعفر القمودى المتعبد لقيه بعض الاجناد ومعه كلب للصيد فقال له خذ هذا الكلب وقده خلفى فابى فضرب رأسه بالسوط حتى أوجعه فقال له بعض المارين ويحك هذا أبو جعفر القمودى العابد فنزل عن فرسه وجعل يقبل يديه ويعتذر اليه فقال أنت فى حل قال ابراهيم بن الحسن سمعت ابراهيم القمودى ليالى عديدة

فقال انما ادعو بعافية لمريض قد علم الله ذلك من نيتى اما قولى أبقاك الله وتولاك فاريد أن يبقيه الله لغرم الجزية ويتولاه بالعذاب وأما قولى أقر الله عينك فاريد أن تقر حركتها بستر يعرض لها فلا تتحرك جفونها وأما قولى يسرنى والله مايسرك فان العافية تسرنى كما تسره وأما قولى جعل الله يومى قبل يومك فاريد أن يجعل الله تعالى اليوم الذى ادخل فيه الجنة برحمته قبل اليوم الذى يدخل فيه النار بكفره

(الباب السادس والخمسون فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته)

قال الله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون وقال تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون وقال تعالى ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون فكل من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله كملت فيه هذه الاوصاف الثلاثة الكفر والظلم والفسق وقال سبحانه وتعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون (وقال) أحمد بن خضرويه لو اذن لى فى الشفاعة مابدأت الا بالظالمين لانى تثبت لتعزية الله تعالى فى قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قال ولا أغتنم سفرا لا يكون فيه من لا يؤذينى و يظلمنى شوقا منى لتعزية الله تعالى للمظلومين وقال ميمون ابن مهران كفى بهذه الآية وعيدا للظالم وتعزية للمظلوم وقال كعب لابى هريرة فى التوراة من يظلم يخرب بيته فقال أبو هريرة وذلك فى كتاب الله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا فالظلم ادعى شئ الى سلب النعم وحلول النقم (وروى) مسلم فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه قال ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ياعبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى أهدكم ياعبادى كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ياعبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى أكسكم ياعبادى انكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ياعبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ياعبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيأ ياعبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيأ ياعبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فاعطيت كل انسان مسئلته مانقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا ادخل فى البحر ياعبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه يرويه أبو ادريس الخولانى عن أبى ذر ومسندا الى النبى صلى الله عليه وسلم وكان أبو ادريس اذا حدثه جثى على ركبتيه وروى عبد الله بن عمر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الظلم ظلمات يوم القيامة وروى ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت لاخيه عنده مظلمة من عرض أو شئ فليتحلله منه قبل أن لا يكون درهم ولا دينار ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيآت صاحبه فحمل عليه وروى سعيد بن زيد قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول من ظلم من الارض شبرا طوقه من سبع أرضين قال أبو جعفر الطحاوى معناه انه يقلب شجاعا أقرع فيطوقه كما قال النبى

صلى الله عليه وسلم في مانع الزكاة يجيء ماله يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه ويقول أنا مالك أنا كنزك فكان هذا داخلا في قوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وروى أبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال مطل الغني ظلم وروى أبو موسى الاشعري قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وقرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه اليم شديد وروى أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انصر أخاك ظالما او مظلوما قالوا يا رسول الله كيف هذا انصره مظلوما فكيف انصره ظالما قال تأخذ فوق يده وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال صنفان من أهل النار لم أرهما ناس معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤسهن مثل اسنمة البخت لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها وقال الله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وفي الآية تاويلان أحدهما امرناهم بالطاعة ففسقوا أي خرجوا عن الطاعة والثاني على قراءة المدني أي كثرنا عددهم واسبغنا النعم عليهم فعصوا وتباغوا ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم خير المال سكة مابورة ومهرة مأمورة أي كثيرة النتاج (واعلموا) أن حشرات الارض وهوامها تلعن العصاة وقال مجاهد اذا أشعثت الارض تقول البهائم هذا من اجل عصاة بني آدم فذلك قوله تعالى اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحسل لتموت بذنب ابن آدم يعني ان بذنوب الخلق يمنع القطر فلا تنبت الارض فتهلك الدواب والحشرات وسمع ابو هريرة رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله ان الحبارى لتموت هزلا في وكرها بظلم الظالم وقال ابن مسعود خطيئة بني آدم قتلت الحسل (وروى) مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اقتطع حق امرء مسلم بيمينه فقد اوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال الرجل وان كان شيأ يسيرا يا رسول الله قال وان كان قضيبا من اراك وقال ابن عباس ما ظهر الغلول في قوم قط الا فشا فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان الا انقطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير حق الا فشا فيهم الدم ولا ختر قوم بالعهد الا سلط عليهم العدو وقال بعض الحكماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبنك رحب الذراعين بسفك الدماء فان له قاتلا لا يموت (وروى) ان بعض الملوك رقم على بساطه

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا * فالظلم مصدره يفضي الى الندم
تنام عينك والمظلوم منتصب * يدعو عليك وعين الله لم تنم

انشدنا قاضي القضاة ابو عبد الله الدامغاني رحمه الله ببغداد

اذا ما هممت بظلم العباد * فكن ذاكرا هول يوم المعاد
فان المظالم يوم القصاص * لمن قد تزودها شر زاد

وقال سحنون بن سعيد كان يزيد بن حاتم الحكيم يقول ما هبت شيأ قط هيبتي رجلا ظلمته وانا اعلم ان لا ناصر له الا الله فيقول لي حسبك الله الله بيني وبينك وقال بلال بن سعيد اتقوا الله فيمن لا ناصر له الا الله وقال أبو سليمان الداراني لما دخل اخوة يوسف عليه السلام عرفهم ولم يعرفوه وكان على وجهه برقع خلابكبيرهم وكان ابن خالته فقال له بم اوصاك ابوك قال بأربع قال

قال وماهن قال يابنى لا تتبع هواك فتفارق ايمانك فان الايمان يدعو الى الجنة والهوى يدعو الى النار ولا تكثر منطقك بما لا يعنيك فتسقط من عينه ولا تسىء بربك الظن فلا يستجيب لك ولا تكن ظالما فان الجنة لم تخلق للظالمين (وبكى) على ابن الفضيل يوما فقيل له ما يبكيك فقال ابكى على من ظلمنى اذا وقف غدا بين يدى الله تعالى ولم يكن له حجة ولمحمود الوراق

انى وهبت لظالمى ظلمى * وتركت ذاك له على علمى
ورأيته اسدى الى يدا * لما ابان بجهله حلمى
رجعت اساءته عليه واحسانى فآب مضاعف الجرم
وغدوت ذا اجر ومحمدة * وغدا بكسب الذم والاثم
مازال يظلمنى وارحمه * حتى رثيت له من الظلم
وكأنما الاحسان كان له * وانا المسىء اليه فى الحكم

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد ناصرا غيرى (وقال) ابن مسعود لما كشف الله العذاب عن قوم يونس ترادوا المظالم حتى ان كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده الى صاحبه وقال ثور بن زيد الحجر فى البنيان من غير حله عربون على خرابه وقال غيره لو أن الجنة وهى دار البقاء أسست على حجر من الظلم لاوشك أن تخرب وقال الحكيم العدل حرمة والظلم ظلمة فالعدل يجر اليك الحوائج والجور يهجم عليك الجوائح فاحذر من لا جنة له الا الثقة بنزول الغير ولا سلاح له الا الابتهال الى مقلب الدول قال مالك بن دينار قرأت فى بعض الكتب يامعشر الظلمة لا تجالسوا أهل الذكر فانهم اذا ذكرونى ذكرتهم برحمتى واذا ذكرتمونى ذكرتكم بلعنتى وقال أبو امامة يجىء الظالم يوم القيمة حتى اذا كان على جسر جهنم لقيه المظلوم وعرف ما ظلمه به فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بايديهم من الحسنات فان لم يجدوا حسنات حمل عليهم من سيآتهم مثل ما ظلموا حتى يردوا الدرك الاسفل من النار ومن صحيح مسلم ان هشام بن حكيم مر بالشام على اناس وقد اقيموا فى الشمس وصب على رؤسهم الزيت قال ماهذا قال يعذبون فى الخراج قال أما انى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا وأخبرنى رجل ممن كان يقرأ العلم بالاسكندرية قال كان ههنا شيخ يكون عينا للمكاسين يدورحوالهم فرأيته فى النوم بعد وفاته فقلت له من أين تجىء فقال لى لا تسأل فاعدت عليه فقال لا تسأل فسألته فقال من الجحيم فقلت له فالى أين تذهب قال الى مثل الدار التى خرجت منها قلت فكيف لقيت قال وماذا لقيت كان لحمى قد جعل فى هاون ودق حتى صار مثل المخ (وأخبرنى) رجل من أهل العلم والدين قال رأيت فلانا البياع فى النوم بعد وفاته فقلت ما فعل الله بك قال أنا محبوس عن الجنة قلت فيماذا قال كنت أبيع فى الدكان فيزدحم الناس على فآخذ دراهمهم فاضعها فى فى وكلما تفرغت وزنتها وأعطيت كل انسان حقه فاختلطت فى فى الفضلات فجاء اثنان فدفعت لاحدهما بفضة الآخر وكانت أنقص من فضته بحبة ثم حوسبت فبقى على حبة فقلت فادفع له الحبة وتخلص فجعل يقلب كفيه ويقول من أين ادفع له من أين أدفع له فكرر ها مرات

(وروى) أن يونس عليه السلام لما نبذ بالعراء وأنبت الله عليه شجرة من يقطين كان يأوى الى ظلها فيبست فبكى عليها فأوحى الله تعالى اليه تبكى على شجرة فقدتها ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت ان اهلكهم * وقيل لابن السماك الاسدى أيام معاوية كيف تركت الناس قال بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى * وقال بعض الحكماء أفقر الناس أكثرهم كسبا من حرام لانه استدان بالظلم ما لابد له من رده * وقال رجل كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فذكر الحجاج فسببته و وقعت فيه فقال عمر ان الرجل ليظلم بالمظلمة فلا يزال المظلوم يشتم الظالم و يسبه حتى يستوفى حقه فيكون للظالم حق عليه * وقال عمرو بن دينار نادى رجل فى بنى اسرائيل من رآنى فلا يظلمن أحدا واذا رجل قد ذهب ذراعه من عضده وهو يبكى و يقول من رآنى فلا يظلمن أحدا فسئل عن حاله فقال بينما أنا أسير على شاطئ البحر فى بعض سواحل الشام اذ مررت بنبطى قدامه طاد تسعة أنوان فاخذت منه نونا وهو كاره بعد ان ضربت رأسه فعض النون ابهامى عضة يسيرة ثم أكلناه فوقعت الاكلة فى ابهامى فاتفقت الاطباء على قطعه فقطعته فوقعت فى كفى ثم ساعدى ثم عضدى فمن رآنى فلا يظلمن أحدا فخرجت أسيح فى البلاد وأريد قطع عضدى اذ رفعت لى شجرة فاويت الى ظلها فنعست فقيل لى فى المنام لاى شئ تقطع أعضاءك رد الحق الى أهله فجئت الصياد فقلت يا عبد الله أنا مملوكك فاعتقنى فقال ما أعرفك فاخبرته فبكى وتضرع وقال أنت فى حل فلما قالها تناثر الدود من عضدى وسكن الوجع فقلت له بماذا دعوت على قال لما ضربت رأسى وأخذت السمكة نظرت الى السماء و بكيت فقلت يارب أشهد أنك عدل تحب العدل وهذا منك عدل وانك الحق تحب الحق وخلقتنى وخلقته وجعلته قويا وجعلتنى ضعيفا فاسألك يا من خلقتنى وخلقته أن تجعله عبرة لخلقك (وقال معاوية) ان أولى الناس بالعفو أقدرهم على الانتقام وان أنقص الناس عقلا من ظلم من دونه * وقال بعض الحكماء الظلم على ثلاثة أوجه ظلم لا يغفره الله وظلم لا يتركه الله وظلم لا يعبأ الله به شيأ فاما الظلم الذى لا يغفره الله فهو الشرك بالله وأما الظلم الذى لا يتركه الله فظالم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم الذى لا يعبأ الله به فظلم العبد ما بينه و بين الله تعالى * وقال ميمون بن مهران من ظلم رجلا مظلمة ففاته ان يخرج منها فاستغفر الله دبر كل صلاة رجوت أن يخرج من مظلمته (وقال يوسف بن اسباط) توفى رجل من الحواريين فوجدوا عليه وجدا شديدا وشكوا ذلك الى المسيح صلى الله عليه وسلم فوقف على قبره ودعا فاحياه الله تعالى وفى رجليه نعلان من نار فسأل عيسى عن ذلك فقال والله ما عصيت قط الا انى مررت بمظلوم فلم أنصره فتنعلت هاتين النعلين وأما أنا واوصيك اذا فعلت باحد مكروها فادع الله تعالى له واستغفر له كما فعل موسى عليه السلام لما آذى هرون وأخذ بلحيته ورأسه ثم تبين له براءته وأن بنى اسرائيل غلبوه عليه وعلى عبادة العجل فقال رب اغفر لى ولاخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين (وروى) ان قوم لوط كانت فيهم عشرة خصال فاهلكهم الله بها كانوا يتغوطون فى الطرقات وتحت الاشجار المثمرة وفى المياه الجارية وفى شطوط الانهار وكانوا يحذفون الناس بالحصى فيدمونهم واذا اجتمعوا فى المجالس أظهروا المنكر باخراج الريح منهم واللطم على رقابهم وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا و يأتون بالطامة الكبرى

وهي اللواطة قال الله تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر والنادي المجلس ويلعبون بالحمام ويرمون بالجلاهق وضرب الدف وشرب الخمور وقص اللحية وتطويل الشارب والتصفيق ولبس الحمرة وتزيد عليهم هذه الامة باتيان النساء بعضهن بعضا وابتداؤهم على اتيان الرجال انهم كانت لهم ثمار كثيرة في منازلهم وحوائطهم فاصابهم قحط وقلة من الثمار فقالوا بأي شيء نمنع ثمارنا حتى لا يطرقها أحد من الناس فاصطلحوا على أن من وجدوه فيها نكحوه وغرموه أربعة دراهم ففعلوا وما سبقهم بها أحد من العالمين قال ابن عباس فكان بدء الفاحشة فيهم انهم هموا بذلك فجاءهم ابليس في هيئة صبي أجمل شيء رآه الناس فنكحوه وتجرؤا على ذلك وقال أبو العتاهية

أما والله ان الظلم لؤم * ولكن المسيء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضي * وعند الله تجتمع الخصوم
سل الايام عن امم تقضت * فتخبرك المعالم والرسوم

(وروي) ان أنوشروان كان له معلم حسن التأديب فعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فأوجعه فحقد أنوشروان عليه فلما ولي الملك قال له ما حملك على ما صنعت من ضربي يوم كذا وكذا ظلما قال لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت ان أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان زه

(الباب السابع والخمسون)
في تحريم السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤول اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة

قال الله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم فذكر الله تعالى في القرآن أصناف أهل الكفر والالحاد والتثليث وأهل الدهر والظلم والفسوق وأشباههم ولم يسب الله سبحانه أحدا منهم الا النمام في هذه الآية وحسبك بها خسة ورذيلة وسقوطا وضعة وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة في أصح الاقوال والهماز المغتاب الذي يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصري هو الذي يغمز بأخيه في المجلس وهو الهمزة اللمزة والعتل في اللغة الغليظ وأصله من العتل وهو الدفع بالقوة والعنف وقال علي رضي الله عنه والحسن البصري العتل الفاحش السيئ الخلق وقال ابن عباس العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الاكول الشروب القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة وقال يمان هو الجافي القاسي اللئيم العسر وقال مقاتل العتل الضخم وقال الكلبي الشديد في كفره عند العرب عتل وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذي لا يعرف من أبوه قال حسان بن ثابت

وأنت زنيم نيط في آل هاشم * كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(وقال غيره)

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغي الام ذو حسب لئيم

وقال أكثر النقلة هذا رجل انما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة وعن هذا قال القدماء لا يكون

نماما الا وفى نسبه شئ * وسعى رجل الى بلال بن أبى بردة برجل وكان أميرا بالبصرة فقال له انصرف حتى اكشف عنك فكشف عنه فاذا هو لغير رشدة يعنى ولد زنا وقال أبو موسى الاشعرى لا يسعى على الناس الا ولد بغى وقيل الزنيم الذى له زنمة فى عنقه يعرف بها كما تعرف الشاة قال ابن عباس لما وصفه الله تعالى بتلك الخلال المذمومة لم يعرف حتى قيل زنيم فعرف لانه كانت له زنمة يعرف بها كما تعرف الشاة بزنمتها (ومن ذلك) قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى المصطلق بعد الوقعة وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية فخرجوا يتلقونه تعظيما لامر النبى صلى الله عليه وسلم ففزع ورجع الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال منعونى صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب النبى صلى الله عليه وسلم عليهم ثم كشف أمرهم فوجد ما قاله كذبا فنزلت هذه الآية وسماه الله تعالى فاسقا (ومن ذلك) قول الله سبحانه سماعون للكذب أكالون للسحت فشرك الله تعالى بين السامع والقائل فى القبح وساوى بينهم فى الذم فكان فيه تنبيه على ان السامع نمام فى الحكم (وأما ما روى فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم) فروى مسلم فى الصحيح قال همام كنا مع حذيفة فقيل له ان رجلا يرفع الحديث الى عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال حذيفة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة قتات وفى لفظ آخر نمام * وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب * وروى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل سفار ملعون كل قتات ملعون كل منان فالسفار المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام والمنان الذى يعمل الخير ويمن به * وروى ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير اما احدهما فكان لا يستبرئ من البول واما الآخر فكان يمشى بالنميمة فاخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين فغرز فى كل قبر واحدة فقالوا يا رسول الله لم فعلت هذا قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا وذلك لبركة يده صلى الله عليه وسلم * (واما السعاية) * الى السلطان والى كل ذى قدرة ومكنة فهى المهلكة والحالقة تجمع الى الخصال المذمومة الغيبة ولؤم النميمة والتغرير بالنفوس والاموال والقدح فى المنازل والاحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المكين عن مكانته والسيد عن مرتبته فكم من دم أراقه سعى ساع وكم حريم استبيح بنميمة باغ وكم من صفيين تقاطعا ومن متواصلين تباعدا ومن محبين تباغضا ومن الفين تهاجرا ومن زوجين افترقا فليتق الله ربه رجل ساعدته الايام وتراخت عنه الاقدار ان يصيخ لساع أو يسمع لنمام * وروى ابن قتيبة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع فالديوث الذى يجمع بين النساء والرجال سمى بذلك لانه يدث بينهم والقلاع الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء لانه يقصد الرجل المتمكن عند السلطان فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه (وقال كعب) أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى صلى الله عليه وسلم فخرج موسى يستسقى ببنى اسرائيل فلم يسقوا ثم خرج ثانية فلم يسقوا ثم خرج الثالثة فاوحى الله تعالى اليه انى لا استجيب لك ولا لمن معك فان فيكم نماما فقال يارب من هو حتى

فخرج من بيننا فاوحى الله تعالى اليه يا موسى انها كم عن النميمة وآتيها فتابوا فارسل الله سبحانه عليهم الغيث * ولما لقي اسقف نجران عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له يا أمير المؤمنين احذر قاتل الثلاثة قال ومن قاتل الثلاثة قال الرجل يأتي الامام بالحديث الكذب فيقتله الامام فيكون قد قتل نفسه وصاحبه وامامه فقال عمر ما أراك أبعدت * ووجدنا في حكم القدماء أبغض الناس الى الله المثلث قال الاصمعي هو الرجل يسعى بالنميمة باخيه الى الامام فيهلك نفسه وأخاه وامامه (وذكرت السعاية) عند المأمون فقال لو لم يكن من عيبهم الا انهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكون عند الله تعالى * وقال حكيم الفرس الصدق زين كل أحد الا السعاية فان الساعي اذم وآثم ما يكون اذا صدق (وروى) أن رجلا سعى بجار له عند الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد أما أنت فتخبرنا انك جار سوء ان شئت أرسلنا معك فان كنت صادقا أبغضناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت تاركناك قال تاركني يا أمير المؤمنين قال قد تاركناك * ولله در الاسكندر حين وشى اليه واش برجل فقال له الاسكندر ان شئت قبلنا على صاحبك بشرط ان نقبله عليك وان شئت أقلناك قال أقلني قال قد أقلناك كف عن الشر يكف عنك الشر (ومن العجب) الذي لا عجب بعده ان الرجل يشهد عندك في باقة بقل فلا تقبله حتى تسأل الناس عنه هل هو من أهل الثقة والعدالة والامانة والصيانة ثم ينم عندك بحديث فيه الهلاك وفساد الاحوال فتقبله * وقال يحيى بن زيد قلت للحسن بن على رضى الله عنهما الساقى السم أخبرني من سقاك فدمعت عيناه وقال أنا في آخر قدم من الدنيا وأول قدم من الآخرة تأمرني ان أغمز * قال رجل للمهدى عندى نصيحة يا أمير المؤمنين قال لمن نصيحتك هذه ألنا ام لعامة المسلمين أم لنفسك قال لك يا أمير المؤمنين قال المهدى ليس الساعى باعظم عورة ولا أقبح حالا من قبل سعايته ولا تخلو من ان تكون حاسد نعمة فلا نشفى لك غيظا أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك ثم أقبل على الناس وقال أيها الناس لا ينصح لنا ناصح الا بما لله فيه رضا وللمسلمين فيه صلاح (وروى) ان ساعيا سعى برجل الى الفضل بن سهل فوقع على ظهر كتابه نحن نرى قبول السعاية أشر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شئ كمن قبل وأجاز لان من فعل أشر ممن قال (ويروى) ان رجلا رفع الى المنصور نصيحة فوقع على ظهرها هذه نصيحة لم يرد بها وجه الله تعالى ولا جواب عندنا لمن آثرنا على الله تعالى (وروى) ان رجلا قال للمأمون يا أمير المؤمنين الله الله في أصحاب الاخبار فانهم قوم ان أعطوا كذبوا وان حرموا كذبوا فان أعطوا مدحوا وهم كاذبون وان حرموا ذموا وهم كاذبون فقال المأمون لله درها من كلمة ما أقصدها وأبين فضلها وأمر ان نثبت في أمور أصحاب الاخبار (وقال مروان بن زنباع العبسى يا بني عبس احفظوا عني ثلاثا من نقل اليكم نقل عنكم واياكم والتزوج في البيوتات السوء واستكثروا من الصديق ما استطعتم واستقلوا من العدو ما استطعتم فان استكثاره ممكن * وقال بعض الحكماء احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون اذا سرق اللصوص المتاع سرقوا المودات * وقال حكيم العرب اياك والسعاة فانهم اعداء عقلك ولصوص عدلك فيفرقون بين قولك وفعلك (وفي المثل السائر) من اطاع الواشي ضيع الصديق وقد يقطع الشجر فينبت ويقطع اللحم بالسيف فيندمل

والسان

واللسان لا يندمل جرحه وأحق الناس برعاية مارسمته من هذه الخلال ونقلته من هذه الحكم واستودعته من هذه السير من آتاه الله سلطانا ومكن له فى الارض قدما فذو القدرة اذا أطاع الواشى هلك العالم (وكان) بعض الحكماء يقول من أراد ان يسلم من الاثم ويبقى له الاخوان فيجعل نفسه بينه وبينهم قاضيا عدلا ويحكم بالعدل ولا يقبل أحدا فى أحد ولا فى نفسه الابشهود وتعديل فانا قد أحببنا بقول أقوام وابغضنا بقول آخرين فاصبحنا نادمين * ومن لطيف حكمة الله تعالى فى النميمة لما علم من شؤمها واستطار شرورها وعموم مضرتها فى الورى حكم بفسق النمام حتى لا يقبل له قول فيستريح الخلق من شره (وقال) ابن عمر وفد الله الحاج ووفد الشيطان قوم يرسلهم السلطان الى الناس ويسالهم عن حالهم فيخبرونه ان الناس راضون وليسوا براضين واعلموا ان الله تعالى خلق الانسان على انحاء شتى لسنا نذكرها الآن لكثرتها وطول تتبعها فخلق الله الحواس الشريفة والاعضاء النافعة المنفيسة فمن أفضل ماركب فيه اللسان الذى هو آلة النطق والبيان وبه فصل بينه وبين البهائم ثم فضله على سائر الحيوان وامتن عليه فى أول سورة الرحمن فقال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وخلق فيه أعضاء تذال وتستهان وجعلها مجرى لفضول الطعام والشراب فمن يتبع سقطات الكلام ويروى عثرات الانام التى هى كالعورات الواجب سترها ودفنها كان قد استعمل أشرف الآلات فى أخس المستعملات فصار كمن لحس بلسانه سوأة أخيه وجعل أكرم جوارحه لاخس أجناس المستعرضين ورضى ان يقع من الناس موقع الذباب من الطير يتتبع نغل الجسد ويتحامى صحيحه وقد كان له فى نشر المحاسن شغل ولكن أهل كل ذى حال أولى بها وفى هذا سبق المثل ان لم تكن ملحا تصلح فلا تكن ذبابا تفسد ومن لم يقدر على جميع الفضائل فلتكن همته ترك الرذائل واذا تتبع الامام عورات الناس أفسدهم (وروى) ان النبى صلى الله عليه وسلم هم بالخروج يوما فسمع قوما من أصحابه يضحكون فامتنع من الخروج اليهم حذر ان لا يفسد قلبه عليهم ولو علم الذى يسمع أخبار الناس ما جنى على نفسه لعلم ان الصمم كان أهنا لعيشه وأنعم لباله من سماع الاخبار يا واحد ماذا عمل نقلة الاخبار حملوا اليك الصدق أو الكذب فتكون فى سماع الكذب ممن قال الله تعالى فيه سماعون للكذب أكالون للسحت ويكون فى سماع الصدق حالا اللهم حرج الصدق على الخلق معاديا لهم متتبعا لعثرات الخلق وخزانا لسقطاتهم قد وعيت منهم ما يجب ستره وحفظت ما يجب نسيانه ثم لا تستطيع النصف ممن قال لانك ان كنت ذا قدرة أهلكت الرعية ثم لا تستطيع ان تهلك جميع الرعية وان كنت سوقة لم يشف غيظك ثم أفسدت اخوانك وأبغضت من يجب ان تحبه وأحببت من يجب ان تبغضه ثم لا تزال تتحمل الحسائف وتزيد الاحقاد والضغائن وترصد لكل قائل يوما يشفى صدرك فيه فما أغنى العاقل عن هذه البلية ولله در عمرو بن العاص روى انه لاحاه رجل يوما فقال له الرجل اما والله ان عشت لاتفرغن لك فقال له عمرو بن العاص الآن وقعت فى الشغل يا ابن أخى

(الباب الثامن والخمسون فى القصاص وحكمته)

قال الله تعالى ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب يعنى اذا علم القاتل والقاطع انه

يقتص منه احجم ولم يقدم على الفعل فيكون فى ذلك حياته وحياة الذى هم به (روى) ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اول ما يقضى بين الناس فى الدماء روى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من كانت عنده لاخيه مظلمة فليتحلله منها فانه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل ان يؤخذ لاخيه من حسناته فان لم يكن له حسنات اخذ من سيآت اخيه فطرحت عليه وهذا حديث صحيح رواه البخارى فان قيل يعارضه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى فكيف يؤخذ الظالم بذنب ركبه المظلوم قلنا معنى الآية لا يعاقب احد بذنب أحد ابتداء واما فى مسئلتنا فظلمة بقيت عنده وليس له وفاء بها فهو الذى اكتسب هذا الوزر وهو المعنى بقوله تعالى وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وروى ابو سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة فو الذى نفسى بيده لاحدهم اهدى لمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال قبل موته من كانت له عندى مظلمة فليات حتى اقصه من نفسى فقام سوار بن غزية فقال يارسول الله انك ضربتنى على بطنى ليلة العقبة فاوجعتنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم دونك فاقتص فقال يارسول الله انك ضربتنى وانا مكشوف البطن فكشف النبى صلى الله عليه وسلم بطنه فاذا هو كالقباطى يعنى ثياب مصر فأكب عليه يقبله فقال يا سوار ما حملك على هذا فقال يارسول الله دنا لقاء هؤلاء المشركين ولا ندرى فاردت ان يكون آخر العهد بك أن اقبل بطنك فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر لعلمه ان الله تعالى لا يدع القصاص فى المظالم بين العباد لان الله تعالى اعدل من ان يدع مظلمة لاحد عند نبى ولا غيره وفى الحديث يقول الله تعالى يوم القيامة انا الظالم ان فاتنى ظلم ظالم ويروى ان داود عليه السلام يقدمه خصمه الى الله يوم القيامة فيقضى له عليه فيدفعه الى اوريا سلما ثم يستوهبه الله تعالى من أوريا ثم يعوض اوريا على ذلك الجنة وقال حبيب دخل عثمان ابن عفان رضى الله عنه فوجد غلامه يعلف ناقة له واذا فى علفها شئ فأخذ باذنه فعركها ثم ندم فقال لغلامه قم فاقتص منى فابى الغلام فلم يزل به حتى قام فاخذ باذنه ثم قال يعرك وهو يقول شدد حتى عرف عثمان انه قد بلغ منه ثم قال واها القصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة (روى) عون بن عبد الله ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا خادما له فلم يجبه أو كان نائما فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا القصاص لاوجعتك ضربا وروى ابن وهب فى موطئه عن ابن شهاب قال وقد أقاد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء من أنفسهم ليستن بهم ولم يتعمدوا حيفا وكانوا اسلاطين ومن صحيح مسلم روى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال ان المفلس من أمتى ياتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويانى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فاذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار قال مالك وبلغنى ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما ولى الخلافة ضرب رجلا ثم ندم وقال مالى ولهذا الا رددتها عليهم فسمعته عائشة فارسلت الى

عمر فجاءه عمر فقال له انى قد ضربت رجلا وقد كنت معافى من هذا ان أضرب فقال عمر كذلك الامام فقال فالمخرج قال ان تاتى الرجل فتسأله ان يجعلك فى حل فاتياه فاستحلاه دلت الآثار على ان الامير والمامور فى القصاص سواء اذا جنى أحدهما على الآخر وان الامير اذا ظلم المامور زال تامره عليه فى ذلك المعنى وكان الامير فى ذلك المعنى كبعض المؤمر عليهم حتى يتحاكموا الى السلطان الاعظم وكان عمر يقول انما بعثت أمرائى ليعلموا الناس دينهم ويقسمون بينهم فيئهم ويعدلون فيهم ولم أبعثهم ليضربوا أبشارهم ويحلقوا أشعارهم فمن ظلمه أمير فلا امرة عليه دونى حتى آخذ له بحقه قال عمرو بن العاص الله الله يا أمير المؤمنين ان أدب رجل رجلا من رعيته انك لتقصه منه فقال عمر كيف لا اقصه منه وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه (فاما القصاص بين البهائم) فاختلف الناس فى حشرها وفى جريان القصاص بينها فكان ابن عباس يقول حشرها موتها قال وحشر كل شئ الموت الا الجن والانس فانهما يوافيان يوم القيامة وقال معظم المفسرين انها تحشر ويقتص منها قال ابن حبيب تحشر البهائم وقال قتادة يحشر كل شئ حتى الذباب وقال أبو الحسن الاشعرى لا نقطع باعادة البهائم والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة ويجوز ان يعادوا ويدخلوا الجنة ويجوز ان لا يعادوا والدليل على ثبوت الاعادة فى الجملة قوله تعالى واذا الوحوش حشرت وقال تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم الى ان قال ثم الى ربهم يحشرون (وروى) مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء وقال ابو ذر انتطحت شاتان عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أتدرون فيما انتطحتا قلت لا أدرى قال لكن الله يدرى وسيقضى بينهما قال أبو ذر لقد تركنا النبى صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه فى السماء الا ذكر لنا منه علما وقال أبو ذر ان الحجر ليسئل عن نكبه اصبع الرجل وفى الحديث الصحيح فى مسلم والبخارى وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا ياتينى أحدكم على رقبته بعير له رغاء على رقبته بقرة لها خوار على رقبته شاة تيعر ثم بسط لها بقاع قرقر فتطؤه باظلافها وتنطحه بقرونها كلما مرت عليه أولاها عادت أخراها والحديث وارد فى مانع الزكاة وقال ابو الحسن لا يجوز المقاصة بين البهائم لانها غير مكلفة ولا يجرى عليها القلم قال وما ورد فى ذلك من الاخبار نحو قوله صلى الله عليه وسلم يقتص للجماء من القرناء ويسئل العود لم خدش العود فعلى سبيل المثل والاخبار عن شدة التقصى فى الحساب وانه لا بد ان يقتص للمظلوم من الظالم وابى ذلك الاستاذ ابو اسحق الاسفراينى قال فى الجامع الجلى يجرى القصاص بينها قال ويحتمل انها كانت تعقل هذا القدر فى دار الدنيا فلهذا اجرى فيه القصاص وكلام الاستاذ له وجه فى الصحة لان البهيمة تعرف النفع والضر فتنفر من العصا وتقبل الى العلف وينزجر الكلب اذا زجر ويستاسد اذا اشلى والطير والوحش يفر من الجوارح استدفاعا لشرها ثم ان لم يجر عليها القتل فى الدنيا فانما رفع القتل عنها فى الاحكام فان قيل القصاص انتقام وهو جزاء على جناية وقعت من مخالفة الامر والبهائم ليست بمكلفة ولا لها عقول ولا جاءها رسول والعقول عندكم لا يجب بها شئ على العقلاء فضلا عن البهائم وفى هذا انفصال عن قول الاستاذ انها

كانت تعقل هذا القدر اذ لا يجب بالعقل شئ ويشهد له قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فالجواب انها ليست مكلفة لان من ضرورة التكليف ان يعلم الرسول والمرسل وذلك من خصائص العقلاء وهم الثقلان واذا لم تكن مكلفة كانت فى المشيئة يفعل الله بها ما اراد كما سلط عليها فى الدنيا الاستسخار والذبح فلا اعتراض عليه ولله تعالى ان يفعل فى ملكه ما اراد من تنعيم وتعذيب واذا جاز ان يؤلم البهيمة ابتداء جاز ان يؤلمها بعد حياتها والآية محمولة على من يعلم الرسول والمرسل ثم ان لم يجر عليهم القلم فى الدنيا فانما رفع القلم عنها فى الاحكام ولكن فيما بينها التؤاخذ وقد روى البخارى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اقتلوا الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم عليه السلام فهذه عجماء عوقبت على سوء صنيع جنسها وفيه دليل على ان الله تعالى ان يعذب بعلمه لا بالمعصية وقد ضرب موسى عليه السلام الحجر الذى هرب بثوبه وبنو اسرائيل ينظرون عورته رواه البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فضربه بعصاه والحجر يفر وموسى يقول ثوبى حجر ثوبى حجر قال ابو هريرة فوالذى نفسى بيده انه لندب بالحجر ستة اوسبعة وروى فى تفسير قوله تعالى وقودها الناس والحجارة انها الحجارة التى تكسر الناس فى الدنيا وروى ان المسيح عليه السلام مر بجبل فسمع انينه فسأله عن ذلك فقال سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فلا ادرى اكون من تلك الحجارة ام لا وقد تاول بعضهم قول ابن عباس حشرها موتها بالحشر لضرب من القصاص بينها ثم تصير ترابا قلت وتأويل ابن عباس بعيد لان الحشر الجمع وليس فى موتها جمعها بل فيه تفرقتها وتفرقة اجزائها ثم قد قال والى ربهم يحشرون وانما يكون الحشر الى الرب تعالى باعادة الحياة اليها وجمعها الى ربها

(الباب التاسع والخمسون فى الفرج بعد الشدة)

قال الله تعالى وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وقال سبحانه امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء وقال تعالى ان مع العسر يسرا وقال الحسن لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم أبشروا فقد جاءكم اليسران يغلب عسر يسرين وقال ابن مسعود والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسران يغلب عسر يسرين ومعنى هذا أنه عرف العسر ونكر اليسر ومن عادة العرب اذا ذكرت اسما معرفا ثم أعادته كذلك فهو هو فاذا نكرته ثم كررته كذلك فهما اثنان وقال بعضهم

ان يكن نالك الزمان ببلوى * عظمت عندها الخطوب وجلت
وتلتها قوارع ناكيات * سئمت دونها الحياة وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ مداها * فالرزايا اذا توالت تولت
واذا أوهنت قواك وجلت * كشفت عنك جملة فتجلت

وقال ابن عباس أول ما اتخذ النساء النطق من قبل ام اسمعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وابنها اسمعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفا ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت

له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل البيت بوجهه ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال رب انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى هل ترى أحدا فلم تر أحدا ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف فقال النبى صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف لكانت عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله (ومنها قصة الثلاثة الذين خلفوا) وذلك ان كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية تخلفوا عن غزوة تبوك ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كلام الثلاثة قال كعب فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لنا الارض بما رحبت فما هى التى أعرف وكنت أطوف فى الاسواق وأشهد الصلاة مع المسلمين ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام ام لا حتى اذا طال ذلك على من جفوة الناس تسورت جدار حائط ابى قتادة وهو ابن عمى واحب الناس الى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فلما تمت خمسون ليلة من يوم نهى رسول الله عن كلامنا صليت صلاة الفجر وانا على ظهر بيت من بيوتنا فبينما انا جالس على الحالة التى ذكرها الله تعالى قد ضاقت على نفسى وضاقت على الارض بما رحبت وما كان من شئ أهم على من ان أموت فلا يصلى على النبى او يموت النبى صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس فى تلك المنزلة لا يكلمنى أحد ولا يصلى على فانزل الله توبتنا فسمعت صوت صارخ من اعلى الجبل يا كعب بن مالك ابشر فخررت ساجدا لله تعالى وعرفت ان قد جاء الفرج فجعلت ثوبى على الصارخ بشراه ووالله ما املك غيرهما ثم أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وهو يبرق وجهه من السرور فقال ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فقلت يا رسول الله ان من توبتى ان أنخلع من مالى صدقة الى الله تعالى والى رسوله فقال النبى صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك (وروى) ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما شب ودرج فى موضع ربى فيه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا يقال انه رأى الزهرة فقال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل بعد طلوع الفجر قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما أصبح ورأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برئ مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله

وقد هدان يعني الى الاسلام ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيأ وسع ربي كل شيء علما
افلا تتذكرون قالوا يا ابراهيم أما تخاف من آلهتنا أن تصيبك بسوء ان أنت سببتها أو عبتها قال
وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين
أحق بالامن ان كنتم تعلمون وكان آزر يصنع أصناما يعبدها قومه ثم يعطيها ابراهيم يبيعها
فيكسرها ويذهب بها الى نهر لهم فيصبها فيه على رؤسها ويقول لها اشربي استهزاء بها واظهارا
لقومه فساد ما هم عليه ففشا ذلك عندهم من غير أن يبلغ ذلك نمروذ فأول ما بدأ قومه ان نظر
نظرة في النجوم فقال اني سقيم يعني من الغيظ عليهم وعلى أصنامهم فظنوا انه مطعون وكانوا
يفرون من الطاعون اذا سمعوا به فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فدخل عليها وهم قد
وضعوا لها طعاما وشرابا فقال الا تأكلون ما لكم لا تنطقون فاقبل عليهم ضربا باليمين وكسرها
وقطع أيديها وأرجلها حتى جعلها جذاذا وأراق طعامها وشرابها وعمد الى الفأس فعلقه
بيد الههم العظيم ثم خرج عنها وتركها فلما رجع قومه من عيدهم دخلوا بيت أصنامهم فلما
رأوا ما صنع بها راعهم ذلك واعظموه وقالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فقال
بعضهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم سمعناه يسبها ويستهزئ بها فقال نمروذ فأتوا به على
أعين الناس لعلهم يشهدون فلما أتى بابراهيم صلى الله عليه وسلم قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا
يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا
انكم أنتم الظالمون قالوا انا قد ظلمناه بما نسبنا اليه ثم قالوا وقد عرفوا انها لا تضر ولا تنفع
لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم
ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فقال له نمروذ حين سمع ذلك منه صف لنا الهك الذي
تعبد وتدعو الى عبادته قال ابراهيم ان ربي الذي يحيي ويميت قال نمروذ وانا أحيي وأميت قال
كيف ذلك قال آخذ رجلين قد استوجبا القتل في حكمي فاقتل أحدهما فأكون قد أمته
واعفو عن الآخر فأكون قد أحييته فقال ابراهيم ان كنت صادقا فأحي الذي قتلت بزعمك
وأخرج روحا من جسد من غير ان تقتله ان كنت صادقا وان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت
بها من المغرب فبهت عند ذلك نمروذ ولم يرد الى ابراهيم شيأ وأمر به الى السجن فلبث فيه سبع
سنين وجعل يدعو أهل السجن الى الله تعالى والى الاسلام حتى ظهر أمره وفشا واتبعه
قوم كثير على دينه فلما ارادوا ان يحرقوا ابراهيم واجتمع أمرهم على ذلك بنوا حيزا طول
جداره ستون ذراعا ووضعوه الى سفح جبل منيف لا يرام ولا يرقا وبلطوا الجدار فلا يمشي
فيه أحد الا زلق عنه وأذن مؤذن نمروذ أيها الناس احتطبوا النار ابراهيم ولا يتخلفن عنها
ذكر ولا أنثى ولا حر ولا عبد ولا شريف ولا وضيع ومن تخلف عن ذلك ألقي في تلك النار
فعملوا في ذلك أربعين ليلة حتى ان المرأة منهم تنذر ذلك على نفسها التي رجع غائبها أو أفاق
عليلها حتى اذا كمل ذلك قذفوا فيه النار حتى انه كان يسمع وهج النار على المسافة البعيدة فلما
بلغ ذلك وضع ابراهيم في كفة المنجنيق قال وهب بن منبه فبلغني ان السماء والارض والبحار
وما فيها اضجوا الى الله تعالى ضجة واحدة قالوا يا رب ابليس في أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا
في نصرته فأوحى الله تعالى اليهم ان استغاث بشيء منكم فانصروه وأغيثوه وان دعاني فانا

ولبه

واسمه وناصره فلما وضعوه في كفة المنجنيق وقذفوه قال حسبي الله ونعم الوكيل اللهم انك تعلم اياني بك وعداوة قومي فيك فانصرني عليهم ونجني من النار فاوحى الله تعالى الى النار ان كوني بردا وسلاما على ابراهيم فاطاعت النار ربها ولو لم يقل سلاما لماتت من شدة البرد ولبث ابراهيم في النار سبعة أيام وظن قومه انه قد احترق ثم قال نمروذ انظروا ماذا فعل ابراهيم فاني رأيت الليلة في نومي ان جدار هذا الحيز قد تهدم وخرج ابراهيم يمشي قال وذاب النحاس الذي سد به باب الحيز واحترق الجدار فصار رمادا فاطلعوا على ابراهيم فرأوه صحيحا سليما وخرج الى الناس ينظرون اليه على تلك الحال فلما رآهم خرج يمشي حتى قعد الى أمه وهي في الجمع وأقبلت سارة وكانت أول من آمن به حتى جلست اليه فقالت يا ابراهيم اني آمنت بالذي جعل النار بردا وسلاما قالت لها أم ابراهيم احذري القتل على نفسك فقالت اليك عني فاني لا أخاف شيأ وقد آمنت باله ابراهيم وحول ابراهيم جمع من الناس لا يحصى عددهم يأتمرون ليجددوا العذاب فارسل الله تعالى ريحا عاصفا فنسفت رماد تلك النار في وجوههم وعيونهم ففروا عنه وقام ابراهيم داعيا الى الله تعالى ومذكرا به وقال مجاهد وقتادة وغيرهما ان نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام انطلق الى الحمام ومعه جني يقال له صخر ولم يكن سليمان عليه السلام يدخل الخلاء بالخاتم فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فالقاه في البحر فالتقمته سمكة ونزع ملك سليمان منه وألقى على الشيطان شبه سليمان فجاء فجلس على كرسيه وسلط على جميع ملك سليمان غير نسائه فجعل يقضي بين الناس والناس ينكرون قضاياه حتى قالوا لقد فتن نبي الله سليمان ومكث على ذلك أربعين يوما ثم أقبل في حالته تلك وهو جائع نائع حتى انتهى الى صيادين في البحر فاستطعم أحدهم من صيده وقال له انا سليمان فقام اليه بعضهم فضربه بعصا فشج وجهه فجعل يغسل دمه على شاطئ البحر فلام الصيادون صاحبهم على ضربه اياه ثم اعطوا سليمان سمكتين مما قد تغير عندهم ونتن ولم يشغله ما كان فيه من الضرب عن أن يقوم الى شاطئ البحر فشق بطونهما وغسلهما فوجد خاتمه في بطن أحدهما فاخذه فلبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه وجاءت الطير فحامت عليه فعرف القوم انه سليمان فجاؤا يعتذرون اليه (وروى) وهب بن منبه ان الله تعالى وهب لابراهيم اسحق فلما كان ابن سبع سنين أوحى الله تعالى الى ابراهيم ان يذبحه وان يجعله قربانا فكتم ابراهيم ذلك عن اسحق وأمه وجميع الناس وأسره الى خليل له يقال له العازر وكان أول من آمن به من قومه يوم أحرق فقال له ان الله سبحانه رفع اسمك في الملا الاعلى على جميع أهل البلاء حتى كنت أرفعهم بلية ليرفعك الله بقدر ذلك في المنازل والفضائل وقد علمت أن الله تعالى لم يبتلك بذلك لينتنك ولا ليضلك فلا بسوأن بالله ظنك وأعوذ بالله ان يكون ذلك حتما مني على الله تعالى أو سخطا بحكمه الذي حكم على عباده ولكن هذا حسن الظن بالله فان عزم ربك على ذلك فكن عند احسن علمك ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فتعزى ابراهيم عليه السلام بقوله واستند لرأيه وبصيرته وانطلق باسحق فلما صعد الجبل ومعه السكين والحبل وأداة القربان فقال له اسحق يا أبت أرى معك أداة القربان ولا أرى قربانا قال ابراهيم يا بني القربان بعين ربك ينظر اليه وان شاء رحم أباك فلم يفطن اسحق فلما وافى رأس الجبل قال ابراهيم يا بني ان الله تعالى أمرني ان اذبحك وأجعلك

قربانا يرفعك اليه ويتقبلك فانظر ماذا ترى فتم ال اسحق واستبشر فقال له والده لجمعتك يا بنى بامر ما فجع به والد ولده وانى لارى من سرورك بذلك وشكرك لربك امرا ارجو به العافية والفرج فقال يا أبت لم يكن شئ من الدنيا أحب الى من البر بك وبامى وقد حرمنيه ربى فاذا أردت ذبحى فاشدد وثاقى فانى اخاف حين يفارقنى عقلى واجد الم الحديد ان يتحرك منى عضو فيؤذيك وأنا أكره أن أختم بذلك عملى فاذا فرغت من أمرى فاقرئ أمى السلام وقل لها لا تجزعى فقد أكرم الله لك ابنك فى جناته فلما فرغ من وصيته عمد ابراهيم صلى الله عليه وسلم اليه فعصبه بعمامته ما بين منكبيه الى الكعبين ثم كبه لوجهه وكره ان يستقبل وجهه كى لا تدركه رحمة اذا هو تشحط فادخل يده من تحت حلقه فلما أراد أن يحز انقلب السكين فاوجس ابراهيم فى نفسه ثم عاد الثانية فلما أراد ان يحز انقلب السكين ونودى يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم هذا فداء ابنك قد فداه الله لك به فنظر ابراهيم خلفه فاذا بكبش قد لوى قرنه الايمن على ساق شجرة فوجهه ابراهيم الى القبلة وقبالته يومئذ مكة فذبحه ابراهيم وتصبه اسحق فلما فرغا منه وضعاه قربانا فرفعه الله اليه وتقبله (قال أبو هريرة) ولما صار يوسف عليه السلام الى مصر واسترق بعد الحرية جزع جزعا شديدا وجعل يبكى الليل والنهار على أبويه واخوته ووطنه وما ابتلى به من الرق فاحيا ليلة من الليالى يدعو ربه تعالى وكان من دعائه ان قال يا رب اخرجتنى من أحب البلاد الى وفرقت بينى وبين اخوتى وأبوى ووطنى فاجعل لى فى ذلك خيرا وفرجا ومخرجا من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب وحبب الى البلاد التى انا فيها وحببها الى كل من يدخلها وحببنى الى أهلها وحببهم الى ولا تمتنى حتى تجمع بينى وبين أبوى واخوتى فى يسر منك ونعمة وسرور تجمع لنا به خير الدنيا والآخرة انك سميع الدعاء فاتى يوسف فى نومه فقيل له ان الله تعالى قد استجاب لك دعاءك وأعطاك مناك وورثك هذه البلاد وسلطانها وجمع اليك أبويك واخوتك وأهل بيتك فطب نفسا واعلم ان الله تعالى لن يخلف وعده وبدعاء يوسف صارت مصر محبوبة يحبها من دخلها فلا يكاد يخرج منها قال قتادة ما سكنها نبى قبله ولما جمع الله شمله وتكاملت النعمة عليه اشتاق الى لقاء ربه فقال رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ❊ ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد الى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الاموال ضيق على يزيد بن أبى مسلم فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبى مسلم افريقية فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبى مسلم فاتى به فى شهر رمضان عند المغرب وفى يد ابن أبى مسلم عنقود عنب فقال له يزيد حين دنا منه محمد قال نعم قال اما والله لطالما سألت الله تعالى ان يمكننى منك بغير عهد ولا عقد فقال محمد وانا والله فطالما سألت الله ان يجيرنى منك ويعيذنى فقال يزيد فوالله ما أجارك ولا أعاذك وان سابقنى ملك الموت الى قبض روحك لسبقته والله لا آكل هذه الحبة حتى أقتلك فأقام المؤذن الصلاة فوضع يزيد العنقود وتقدم ليصلى وكان أهل افريقية قد اجتمعوا على قتله فلما ركع ضربه رجل على رأسه بعمود فقتله وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الامير وأحيا الاسير سنة الله التى قد خلت فى عباده طلوع الحياة من شفار

الموت وحضور الموت من معدن الحياة (وروى) ان سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم فارسل الى قائد البحر وقال انفذ الآن مركبا الى افريقية يأتوني باخبارها فعمر القائد المركب وأرسله حينه فلما أصبحوا اذا بالمركب في موضعه لم يبرح فقال له الملك أليس قد فعلت ما أمرتك به قال نعم قد امتثلت أمرك وأنفذت المركب فرجع بعد ساعة وسيصدقك مقدم المركب فجاء ومعه رجل فقال الملك ما منعك ان تذهب حيث أمرتك قال ذهبت بالمركب فبينا انا في جوف الليل والبحارون يقذفون اذا أنا بصوت يقول يا الله يا الله يا غياث المستغيثين يكررها مرارا فلما استقر صوته في اسماعنا ناديناه مرارا لبيك لبيك وهو ينادي يا الله يا غياث المستغيثين ونحن نجيبه لبيك لبيك وقذفنا المركب نحو الصوت فالفيناه هذا الرجل غريقا في آخر رمق من الحياة فأخذناه من البحر وسألناه عن حاله فقال كنا مقلعين من افريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام ومازلت أسبح حتى وجدت الموت فلم أشعر الا بالغوث من ناحيتكم فسبحان من أسهر سلطانا وأرق جبارا في قصره لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحشة لا اله الا أنت سبحانك (وأخبرني) رجل كان امام المسجد الجامع بالاسكندرية قال كنت بصقلية أيام فتن العدو فزحف الينا في البحر سفن تقارب ثلثمائة سفينة وأرست في الساحل فرأينا أمرا مهولا وفينا الشيخ الصالح العابد ابن المستطاري فلجأ الناس اليه واجتمعوا حوله يتبركون به وينتظرون الفرج على يديه قال فنظر الى السماء حينا وجعل وعفر خديه بالارض يقلبهما يمينا وشمالا قال فوالله ماذهبنا حتى هبت ريح مزقتها كل ممزق فلم يجتمع منها اثنان (وأخبرني) أبو القاسم بن فاتك رحمه الله قال كنت في طريق الحجاز فعطش الناس في مفازة تبوك ففقد الماء ولم يوجد الا عند صاحب لي جمال فجعل يبيعه بالدنانير بارفع الاثمان فجاء رجل كان موسوما بالصلاح عليه مقطعة يحمل ركوة ومعه شئ من دقيق فتشفع بي الى الجمال ليبيعه الماء بذلك الدقيق فكلمته فأبى علي ثم عاودته فأبى قال فبسط الرجل النطع في الارض ونثر عليه الدقيق ثم رمق السماء وقال الهي انا عبدك وهذا دقيقك ولا أملك غيره وقد أبى ان يقبله ثم ضرب بيده في النطع وقال وعزتك لابرحت حتى أشرب فوالله ماتفرقنا حتى نشأ السحاب فامطر للعين فشرب الماء ولم يبرح فكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذي طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لابره (وأخبرني) شيخ مسن ممن كان يصحب العلماء بالقيروان يقال له حريز قال أخبرني عبد الكافي الديباجي قال رأيت بالقيروان آية عظيمة وذلك ان رجلا جاء بصبي له وقد أسكت فلا يتكلم فدخل به الى الفقيه أبي بكر بن عبد الرحمن وقال له ان ابني هذا قد أسكت منذ أيام فلا يتكلم فادع الله ان يفرج مانزل به قال فدعا الشيخ ساعة ثم مسح وجه الصبي فاستفاق الصبي فقال له قل لا اله الا الله فقال الصبي أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ثم التفت الى الرجل وقال اكفنيها علي الى الموت ثم التفت الى جاريته فقال اكفني علي هذا الى الموت وأنت حرة فلما كان يوم توفي الشيخ أبو بكر واجتمع الناس لجنازته وتكاثرت الامم قام الرجل فاستنصت الناس فسكتوا فقال يا أهل القيروان اسمعوا قصتي مع هذا الشيخ وذكر الحديث كما سقناه (وحدثني) هذا الشيخ قال نزل عندنا بالقيروان قصة لم يسمع في السالفين مثلها وذلك ان بعض الجزارين اضجع كبشا ليذبحه فتخبط بين يديه فافلت منه وذهب فقام الجزار يطلبه

وجعل يمشي الى أن دخل خربة فاذا فيها رجل مذبوح يتخبط في دمه ففزع وخرج هاربا واذا صاحب الشرطة والرجالة عندهم خبر القتيل وجعلوا يطلبون خبر القاتل والمقتول فأصابوا بيده السكين وهو ملوث بالدم والرجل مقتول بالخربة فقبضوه وحملوه الى السلطان فقال له أنت قتلت الرجل قال نعم قال فما زالوا يستنطقونه وهو يعترف اعترافا لا اشكال فيه فأمر به السلطان بقتل فاخرج للقتل واجتمع الامم ليبصروا قتله فلما هموا بقتله اندفع رجل من الحلقة المجتمعين فقال لهم لا تقتلوه انا قاتل القتيل فقبض وحمل الى السلطان فاعترف وقال انا قتلته فقال له السلطان قد كنت معافى من هذا فما حملك على الاعتراف قال رأيت هذا الرجل يقتل ظلما فكرهت ان ألقى الله تعالى بدم رجلين فأمر به السلطان فقتل ثم قال للرجل يا أيها الرجل ما دعاك الى الاعتراف بالقتل وأنت بريء قال الرجل فما حيلتي رجل مقتول بالخربة وأخذوني وأنا خارج من الخربة وبيدي السكين ملطخة بالدم فان أنكرت من يقبلني وان اعتذرت من يعذرني فخلى سبيله وانصرف مكرما (ولما وزر فخر الملك) نظام الدين لسنجار الملك وكان لفخر الملك ابن عم يقال له شهاب الملك وكان يخاف منه على منزلته فقال للملك سنجار لا حياة لي معك الا أن تقتل ابن عمي شهاب الملك فأبى سنجار فما زال يراجعه الى ان أمر به فحبس في بلد يقال لها بيهق وكان والي ذلك البلد يكرمه لجلالته وجلالة أهل بيته واخلى له دارا في القلعة مشرفة ثم جعل فخر الملك يفسد قلب سنجار ويحمله على قتل شهاب الملك الى أن أرسل سنجار الى واليه بقتل شهاب الملك فاستعظم الوالي قتله وأخره أياما ثم لم يجد بدا من قتله فعزم على قتله في يوم جمعة فبينما شهاب الملك يطلع من طاقات الدار اذا بفارس يركض فأوجس في نفسه خيفة منه وقال هذا يريد أن يقتلني فوصل الفارس وقال مات فخر الملك فخلى سبيل شهاب الملك ثم وزر لسنجار فسبحان الفعال لما يريد (أخبرني) أبو الفضل المعبر بمصر قال كان بمصر ملوك بني حمدان وكان الرئيس ناصر الدولة وكان يشكو وجع القولنج فأعيا الاطباء ولم يوجد له شفاء ثم ان السلطان دس على قتله فارصد له رجل معه خنجر فلما جاء في بعض دهاليز القصر وثب عليه الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة في أسفل خاصرته فأصاب طرف الخنجر المعى الذي هو القولنج فخرج ما فيه من الخلط ثم عافاه الله تعالى فصح وبرئ كأحسن ما كان (ولما كنت بالاسكندرية) نزلت سفن العدو بساحل مدينة برقا فأخذوا قوما من المسلمين وقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم فأخذ رجل منهم وشد كتافه من خلفه فلما توسطوا السفينة عمد اليه بعض الاعلاج فرفصه وألقاه في البحر ثم طعنه برمح كان معه فلم يخطئ نصل الرمح حبل الكتاف فقطعه وانحلت يدا الرجل فسبح حتى لحق بالشاطئ سليما ووصل الى الاسكندرية في عافية (وحدثني) بعض الشاميين ان رجلا خبازا بينما هو يخبز في تنوره بمدينة دمشق اذ عبر عليه رجل يبيع المشمش قال فاشترى منه وجعل يأكل بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشيا عليه فنظروا فاذا هو ميت فجعلوا يتربصون به ويحملون له الاطباء فيلمسون دلائله ومواضع الحياة منه فقضوا بانه ميت فغسل وكفن وحمل الى الجبانة فبينما هم خارجون به من باب المدينة استقبلهم رجل طبيب يقال له اليبرودي وكان طبيبا ماهرا حاذقا بالطب فسمع الناس يلهجون بقصته فقال لهم حطوه حتى أراه قال فحطوه وجعل يقلبه وينظر في أمارات الحياة التي يعرفها ثم فتح فمه وسقاه شيأ أو قال حقنه فاندفع ما هنالك بسيل واذا الرجل قد فتح

عينيه وتكلم وعاد كما كان الى ذكائه (وكان رجل) يمشى ببغداد فبينما هو فى الطريق اذا بدار قد وقعت عليه فخرت كالجبل العظيم واذا فى الحائط طاقة فما اخطأت رأسه فصارت الدار كوما وخرج الرجل من الطاقة سليما (وحدثنى) أبو القاسم الحضرمى قال كنت باليمن فى أرض الصليحى فوشى بى الى السلطان فأمر بقتلى فاخرجت وقدمت للقتل وتركنى السياف ثم قال لى مد رقبتك فمددت عنقى لقضاء الله تعالى ثم قال لى السياف اشتد فقلت دونك يا هذا فبينما نحن كذلك اذا بصائح من داخل القصر لا تقتلوه لا تقتلوه خلوا سبيلى (وجرت بقرطبة قصة غريبة) فى أيام المنصور بن أبى عامر وذلك ان رجلا يعرف بقاسم بن محمد السنبسى شهد عليه بالزندقة فحبسه المنصور مدة مع جماعة من الادباء من وجوه قرطبة مرموقون بالانحلال والزندقة وكان ينادى عليهم فى كل جمعة يوقفون اثر صلاة الجمعة بباب الجامع الاعظم من كانت عنده شهادة فيهم فليؤدها فثبت على قاسم عند القاضى سجل شهادات الشهود بانواع منكرة تتضمن الزندقة والكفر فطلعوا الى القصر وعقدوا مجلسا عظيما واستشير الفقهاء فيه فاوجبوا قتله فاستحضر قاسم فحضر وحضر أبوه وحضر ابنان صغيران لقاسم ولبسوا ثياب الحداد وجعل أبوه معه نعشا وحالين وجعل أبوه والصبيان يبكون على باب القصر واحدر لضرب عنقه سياف يعرف بابن الجندى ودفعت اليه اسياف من القصر فجعل يرزها ويلمس شفارها وأبوه وابناه ينظران وحضر الفقيه أبو عمرو المكودى الاشبيلى على كره منه وكان يأبى الحضور فاستفتوه فقال يا هؤلاء ان الدماء لا تسفك الا بالحق الواضح دون الشبه احسبوا ان السنبسى فرعونا بماذا تذبحونه فقال القاضى ابن الشرفى بما ثبت عندى وأمعنت النظر فيه قال الفقيه أوقفنى عليه فاخذ السجل ونظر فيه فقال أخبرنى بمن قتلته من هؤلاء الشهود قال بهذا وهذا حتى عد خمسة قال الفقيه فبجميعهم تقتله قال نعم قال فلو شهد منهم اثنان خاصة كنت تقتله قال لا انما قوى بعضهم بعضا وزكى أكثرهم عندى فالتفت الفقيه الى الفقهاء المشاورين فقال يا هؤلاء بالدعائم يقتل المسلمون عندكم وتسفك دماؤهم فلست أرى قتله ولا اشير به فرجع الفقهاء الى قوله ولم يروا عليه شيأ بعد ما افتوا بقتله منذ ستة أشهر فانفض الجمع وشيم السيف وطار البشير الى ابن أبى عامر فاخبره بالمجلس فقال ابن أبى عامر مضيتم تقتلون ابن السنبسى فدفنتم القاضى قد اجتهدنا للدين ولا قاتل لمؤجل فحبس أياما ثم أطلق فكان ابن ذكوان الفقيه يقول للقاضى فى مثل هذا قال القائل اذا سئل بم عرفت الله قال بنقضه عزائمى ومعنى الدعائم على لسان الفقيه هم الشهود الذين لو انفرد منهم اثنان لم يثبت الحكم ولا قبلا فيه فاذا كثروا قوى بعضهم بعضا فلا يثبت الحكم بهم (وفى نقيض هذا ما حدثنى القاضى) أبو مروان الدانى بطرطوشة وقد ولى قضاءها فتذاكرنا يوما فقال نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا الى دار خراب هنالك ليستكنوا من الرياح والامطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم وقرب تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع فقال رجل منهم لاهل القافلة يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا تدخلوا هذه البقعة فابوا الا دخولها وبات الرجل منتبذا خارجا عنهم لم يقرب ذلك المكان ثم أصبحوا فى عافية وحملوا دوابهم فبيناهم كذلك اذ دخل الرجل الخربة ليستوقد بقية النار فخر عليه الحائط فمات مكانه (وبلغنى) عن بعض الفقهاء ان جيشا من الجيوش كان

بصقلية ناهضنا من مكان الى مكان فقعدوا ساعة لبعض شأنهم فاذا عقرب يدب فضربه بعض الاجناد بمقرعة كانت معه ثم رفع المقرعة الى نحو عنقه فاذا بالعقرب قد تشبثت باهداب المقرعة وهو لا يشعر فلدغته فى عنقه فقضى مكانه (واخبرنى القاضى) أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزأ من الحديث فى حانوت رجل يبيع العطر فجاء رجل طواف بطبق يحمله فى يده وأعطاه عشرة دراهم وقال له ادفع الى أشياء سماها من العطر فأخذها فى طبقه ومشى فسقط الطبق من يده وتفرق جميع ما كان فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت املك تجبر له بعض هذه الاسباب قال نعم فنزل وجمع ما تجمع منها وجبر له ما انتقص وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له لا تجزع فامر الدنيا أيسر من ذلك فقال الطواف أتظن أيها الشيخ ان جزعى لضياع ماضاع الله علم الله تعالى متى كنت فى القافلة القلانسية فضاع لى هميان فيه أربعمائة دينار أو أربعة آلاف دينار الشك من أبى ذر ومعها فصوص قيمتها مثل ذلك فما جزعت لضياعها ولكن ولد لى فى هذه الليلة مولود فاحتجت فى البيت الى ما تحتاج اليه النفساء ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم فاشفقت ان أشترى بها حوائج النفساء فابقى بغير رأس مال ولا اقدر على التكسب فقلت اشترى بها شيأ وأطوف صدر نهارى فعسى استفضل شيأ أسد به رمق ويبقى رأس المال اتصرف فيه فلما قدر الله تعالى بضياعه جزعت فقلت لا عندى مال أرجع به اليهم ولا ما اكتسب به وعلمت أنه لم يبق لى الا الفرار منهم وتركهم على هذه الحال يهلكون بعدى فهذا الذى أوجب جزعى قال الشيخ أبو ذر وكان رجل من الجند جالسا على باب داره يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص أنا أرغب اذا تممت أمره أن تدخل معه عندى وقام فظننا انه يريد ان يعطيه شيأ قال فدخلنا عليه فاذن لنا فقال الجندى للطواف عجبت من جزعك فأعاد عليه القصة فقال الجندى وكنت فى تلك القافلة قال نعم وكان بها من عظام الناس فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله فقال له وما علامة الهميان وفى أى موضع سقط منك فوصف المكان والعلامة فقال له الجندى لو رأيته كنت تعرفه قال نعم فاخرج الجندى هميانا ووضعه بين يديه فقال هذا هميانى وعلامة صحة قولى ان فيه من الاحجار ما صفته كذا وكذا ففتح الهميان فوجد الاحجار على ما ذكر فقال الجندى خذ مالك بارك الله لك فيه فقال الطواف هذه الاحجار قيمتها مثل الدنانير أو اكثر فخذ انت الدنانير فنفسى طيبة بذلك فقال الجندى لا آخذ على أمانتى شيأ فدخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الاغنياء فبكى الجندى بكاء شديدا وانتحب فقال له أبو حفص علام تبكى وقد أدى الله أمانتك وقد بذل لك مالا كثيرا وان شئت عرضنا عليه ان يعيده عليك فقال ما أبكى لذلك وانما أبكى لانى اعلم انه قد حان أجلى فانه ما كان بقى أمل أؤمله ولا أمنية أتمناها الا ان يأتينى الله بصاحب هذا المال فيأخذه فلما قضى الله تعالى ذلك بفضله ولم يبق لى أمل علمت انه قد حان أجلى قال الشيخ أبو ذر فما انقضى شهر حتى توفى وصلينا عليه (قال القاضى) وحدثنى أبو القاسم بن الحسين بالموصل قال لقد جرت ههنا فى هذا المسجد وهذه الدار والحانوت وأشار اليها قصة عجيبة كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر الى الكوفة فى تجارة الخز فبينما هو يحمل الخز فى خرجه على حماره وهو جميع ماله نزلت القافلة فاراد انزاله عن الحمار فثقل عليه فامر انسانا

هنالك فأعانه على انزاله ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فاجابه وأكل معه ثم سأله عن أمره فاخبره انه رجل خرج من الكوفة لامر أزعجه دونها فقال له الرجل تكون معي وتعينني على سفري ويكون طعامك عندي فقال الرجل اني حريص على خدمتك ومحتاج الى طعامك فسار معه في طريقه يخدمه على أحسن حال قال فوصلا تكريت فنزلت الرفقة خارج المدينة ودخل الناس لقضاء حوائجهم فقال الرجل للخادم احفظ رحلنا حتى ادخل واشتري حاجتنا ثم دخل وقضى حوائجه فابطأ هنالك ثم خرج فلم يجد الرفقة ولا وجد صاحبه فظن انه لما رحلت الرفقة رحل معها فلم يزل يسعى حتى وصل الى الرفقة بعد الجهد فسألهم عن صاحبه فقالوا ما جاء معنا ولا رأيناه ولكنه ارتحل الاسباب على الحمار ودخل على أثرك وظننا انك أمرته بذلك فكر الرجل راجعا الى تكريت وسأل عنه فلم يجد له أثرا ولا سمع له خبرا فيئس منه وسار الى الموصل مسلوب المال فوافاها ثم سار جائعا عريانا فقيرا مجهودا فاستحيا أن يدخل نهارا فيشمت العدو ويحزن الصديق فبقي حتى أمسى ثم دخل فدق باب الدار فقيل من هذا فقال فلان يعني نفسه فاظهروا سرورا عظيما وحاجة اليه وقالوا الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة والفاقة حملت جميع مالك وطال سفرك واحتاج أهلك وقد ولدت اليوم ولدا والله ما وجدنا ما نشتري به شيأ للنفساء ولقد كانت هذه الليلة طاوية على حالها فتحيل لنا في دقيق ودهن نسرج به فلا سراج عندنا فزاده ذلك غما وكره ان يخبرهم بحاله فيحزنهم فأخذ وعاء للزيت وجرابا للدقيق وخرج الى هذا الحانوت وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحوه وقد أغلق دكانه واطفأ مصباحه ونام فناداه فاجابه وعرفه وشكر الله على سلامته فقال التاجر لصاحب الحانوت اقدح زنادا ازن لك الدراهم في دقيق وزيت وعسل احتجت اليه الساعة وكره ان يخبره بتأخير الثمن فيمتنع منه فقدح البياع الزناد واستصبح فقال له التاجر زن لي من الدقيق كذا ومن الزيت كذا ومن العسل كذا ومن السمن كذا ومن الملح كذا وبينما هو كذلك اذ حانت منه التفاتة الى قعر الحانوت فرأى فيه خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك ان وثب عليه والتزمه وأخذ بيده أطواق صاحب الحانوت وجذبه الى نفسه وقال يا عدو الله أين مالي فقال له صاحب الحانوت ما لك يا فلان فوالله ما علمتك متعديا ولا علمتني جنيت عليك ولا على سواك فما هذا قال خرجي فيه خادم خدمني بجميع مالي وبحماري قال مالي علم غير ان رجلا ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاء واستضافني فأضفته وجعلت هذا الخرج في حانوتي وهذا الحمار في دار جارنا والرجل في المسجد بائت فقال له احمل معي الخرج وامض الى الرجل فرفع الخرج معه وألقاه على عاتقه ومشى معه الى المسجد فاذا الرجل نائم في المسجد فركضه برجله فقام الرجل مذعورا فقال له مالك فقال له أين مالي يا خائن قال هو ذا على عنقك والله ما تغادر منه ذرة قال فأين الحمار قال هو عند هذا الذي معك فنهض الى داره فوجد متاعه سليما واستخرج الحمار من الموضع الذي كان فيه ووسع على أهله وأخبرهم بقصته فزاد أهله فرحا وتبركا بذلك المولود * ولما وفى موسى عليه السلام صهره شعيبا عليه السلام الاجل الذي أجله لرعي غنم شعيب التي رعاها وهي مهر ابنته أخذ موسى عليه السلام زوجته وكر راجعا من مدين فلما وافى الوادي المقدس عند جانب الطور جنهم الليل

بظلمته فامسوا بائتين فبينما هم كذلك اذ ضرب زوجته الطلق وكانت حاملا وليس عندهم ما تحتاج اليه النفساء من الغذاء والدواء وما يصلح به شأنهم فبقوا في ضيق من الحال وقلة من الحيلة فخرج موسى عليه السلام يلتمس وينظر يمينا وشمالا عسى فرج لما أمسوا فيه من الضرر اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها أضوء ما يكون ذرعا وأحرجه قلبا وآيسه عن رفق نودي من شاطئ الوادي الايمن ياموسى اني أنا ربك وهكذا الطائف الحق سبحانه مع من سلم لامره ورجا فضله وتكلم بالهدى والبشرى يفسح الله فيه أمله ويعطيه فوق ما سأله هذا موسى عليه السلام خرج يقتبس نارا نودي بالنبوة وعن هذا قال علماؤنا ليس في خصال الحيوانات ولا في انواع الاعمال وان عظمت أعلى من حسن الظن بالله تعالى ونظمه بعض الشعراء فقال

ايها العبد كن لما لست ترجو * من نجاح أرجى لما أنت راج

ان موسى مضى ليقبس نارا * من ضياء رآه والليل داج

فأتى أهله وقد كلم الله وناجاه وهو خير مناج

وكذا الكرب كلما اشتد بالعبد * دنت منه راحة الانفراج

(وروى) ان العدو نزل بساحة افريقية في عدد كثير من المراكب ففني ماؤهم وعطشوا فنفر المسلمون لهم في خلق عظيم من تلك السواحل والحصون فمنعوهم النزول لاستقاء الماء وارسلوا الى المسلمين ان يخلوهم واستقاء الماء فابوا فتضاعف عطشهم حتى أشرفوا على الهلاك ففتحوا أناجيلهم وأخذوا في الدعاء والاستسقاء الى الله تعالى والتضرع اليه فلم يلبث أوشك من السماء أن القت بأرواقها ثم أرسلت ماء كثيرا فبسط القوم انطاعهم وجفانهم وآلاتهم فشربوا وملؤا أوانيهم فضج المسلمون عند ذلك وقالوا هؤلاء كفار واعداء الله ورسوله قد أخلصوا الى ربهم وأنابوا اليه وسألوه ماء يحيون به رمقهم فأغاثهم فنحن أحق بالدعاء والتضرع الى الله سبحانه وأولى بالاجابة منهم ثم جد المسلمون في الدعاء والصلاة والابتهال الى الله تعالى في أن يريهم آية يقوى بها قلوب الضعفاء ويتزايد شكر أهل المعرفة والاولياء فبينما هم كذلك اذ أرسل الله عليهم ريحا فبددتهم ومزقتهم كل ممزق وكسرت مراكبهم ولم يجتمع منهم اثنان * ومن عجائب صنع الله تعالى في هذا الباب ان رجلا من ديار بكر جاء الى بيت المقدس وزار قبر الخليل صلى الله عليه وسلم وأكل من ضيافته فطارت حبة عدس من ذلك الطعام في خيشومه ورام خروجها بكل حيلة فاعجزته حتى تركته ومضى ثم رجع الى بلاده فبينما هو جالس اذ عطس فطارت العدسة في الارض فاذا طائر قد التقطها لوقتها وبرئ الرجل فسبحان من جعل أنف هذا الرجل حرزا لقوت هذا الطائر على بعد الشقة والمسافة * وأما أنا فلما هممت بالرحيل من بلادي الى المشرق في طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ولا لي حرفة ارجع اليها فجزعت من الخروج وكنت أقول ان ذهبت نفقتي ماذا أفعل وكان أقوى الآمال في نفسي ان أحفظ البساتين بالاجرة وأدرس العلم بالليل ثم استخرت الله تعالى فرحلت وكانت معي نفقة وافرة في هميان على وسطي وكنت أسمع المسافرين يقولون من نام بالليل في الفيافي وله نفقة على وسطه فليحلها فان اللصوص اذا كابرت الخلق يتدرون أوساطهم فخرجت من بلاد السويدية الى انطاكية وهي اذ ذاك ثغر للروم

فسرينا الليلتنا وأصبحنا على باب انطاكية فأخذتني عيني وحللت الهميان ونمت ولم أستيقظ الا ضحوة النهار فاستيقظت ومددت يدي الى الهميان فلم أجده فجعلت أنظر الى القافلة والتفت الى الناس وقد أسقط في يدي ولم يبق لي حيلة فاسترجعت ورفعت أمري الى الله سبحانه واذا رجل من أهل القافلة ملتفتا الي فوقع وجهي في وجهه فاذا هو يضحك لما رأى ما بي فقال مالك أيها الفقيه قلت خير فراجعني فقلت خير فقام الي وقال خذهما انك عافاك الله فسألته كيف ظفر به فقال رأسك قد تدحرجت ذراعين أو ثلاثة والتفت فرأيت سوادا في الموضع الذي كنت فيه نائما فسرت اليه وأخذته فاذا هو الهميان رحمة الله عليه ورضوانه لديه

الباب الستون في بيان الخصلة التي هي أم الخصال وينبوع الفضائل ومن فقدها لم يكمل فيه خصلة وهي الشجاعة ويعبر عنها بالصبر ويعبر عنها بقوة النفس

قالت الحكماء أصل الخيرات كلها في ثبات القلب ومنه تستمد جميع الفضائل وهو الثبوت والقوة على ما يوجبه العدل والعلم والجبن غريزة يجمعها سوء الظن بالله تعالى والشجاعة غريزة يجمعها حسن الظن بالله تعالى سئل الاحنف عن الشجاعة فقال صبر ساعة وسئل أبو جهل عن الشجاعة فقال تصبرون على حز السيوف فواق ناقة وهو ما بين الحلبتين واعلم ان الاقدام للقتال طريدة من طرائد الموت فاستقبال الموت خير من استدباره وقد قال الاول رب حياة سببها التعرض للوفاة ووفاة سببها طلب الحياة ومن حرص على الموت في الجهاد وهبت له الحياة وقالوا الهزيمة شفرة من شفار الموت والفار يمكن من نفسه والمقاتل يدفع عن نفسه وقالوا ثمرة الشجاعة الامن من العدو واعلم ان من قتل في الحرب مدبرا أكثر ممن قتل مقبلا وقالوا تأخير الاجل حصن المحارب وقيل لبعضهم في أي جنة تحب ان تلقى عدوك قال باد بارد ولته وانقضاء مدته واعلم ان الشجاعة لمن كانت له الدولة واذا انقضت المدة لم تغن كثرة العدد وقال علي رضي الله عنه اذا انقضت المدة كانت الهلكة في الحيلة واعلم ان كل كريهة ترفع أو مكرمة تكتسب لا تتحقق الا بالشجاعة ألا ترى انك اذا هممت ان تخرج شيأ من مالك خار طبعك ووهن قلبك وعجزت نفسك فشححت به واذا حققت عزمك وقويت نفسك وقهرت ذلك العجز أخرجت المال المضنون به وعلى قدر قوة القلب وضعفه تكون طيبة النفس باخراجه أو كراهية النفس لاخراجه مع اخراجه وعلى هذا النمط جميع الفضائل مهما لم يقارنها قوة نفس لم تحقق وكانت مخدوعة وروي ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال الشجاعة والجبن غرائز يضعها الله تعالى فيمن يشاء من عباده فالجبان يفر عن امه وأبيه والشجاع يقاتل عمن لا يؤوب به الى رحله فبقوة القلب يصاب امتثال الاوامر والانتهاء عن الزواجر وبقوة القلب يصاب اكتساب الفضائل وبقوة القلب ينتهي عن اتباع الهوى والتنمغ بالرذائل قال الشاعر

جمع الشجاعة والخضوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب

وبقوة القلب يصبر الجليس على ايذاء الجليس وجفا الصاحب وبقوة القلب يكتم الاسرار ويدفع العار وبقوة القلب يقتحم الامور الصعاب وبقوة القلب يحمل أثقال المكاره وبقوة القلب يصبر على اخلاق الرجال وبقوة القلب تنفذ كل عزيمة وروية أوجبها الحزم والعدل وبقوة القلب يضحك الرجال في وجوه الرجال وقلوبهم مشحونة بالضغائن والاحقاد

كما قال أبو ذر انا لنكشر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال على رضى الله عنه انا لنصافح أكفا نرى قطعها وليس الصبر والشجاعة وقوة النفس أن يكون مصرا فى المحال لجوجا فى الباطل ولا ان تكون جلدا عند الضرب صبورا على التعب مصمما على التعزير والتهور فان هذه صفة الحمير والخنازير ولكن ان تكون صبورا على أداء الحقوق عليك صبورا على سماعها والقائها اليك غالبا الهواك مالكا لشهواتك ملتزما للقضاء ثم يجهدك عاملا فى ذلك على الحقيقة التى لا يحيلك عنها حياة ولا موت حتى يكون عندك موتك على الخير الذى آشار به العلم وأوجبه العدل خيرا من البقاء على ما أوجب رفض العلم والعدل كما قال على بن الحسين رضوان الله عليهما يا بنى وما يبالى أبوك لوان الخلق خالفوه اذا كان على الحق وهل الخير كله للمحق الا بعد الموت ومن هذا قالت حكماء الهند اذا لم يكن للملك من نفسه معين كان فى جميع أموره ضعيفا مخذولا واعلم ان الجبن مقتلة والحرص محرمة والعجز ذل والجبن ضعف والجبان يعين على نفسه يفر عن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه واعلم ان كل كريهة ما بين الحليتين والشجاع يحمى عمن لا يناسبه ويقى مال الجار والرفيق بمهجته والجبان يخاف ما لا يحس به والجبان حتفه من فرقه واعلم ان الشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه رجل اذا التقى الجمعان وتزاحف الزحفان واكتحلت الاحداق بالاحداق برز من الصف الى وسط المعترك يحمل ويكر وينادى هل من مبارز والثانى اذا التحم القوم واختلطوا ولم يدر أحد من أين يأتيه الموت يكون رابط الجاش ساكن القلب حاضر اللب لم يخامره الدهش ولا خالطته الحيرة فينقلب بتقلب المالك لامره القائم على نفسه والثالث اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب فى وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوى قلوب أصحابه ويرجى ضعيفهم ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كردس فرسه كشف عنه حتى ييأس العدو منهم وهذا أحدهم شجاعة وعن هذا قالوا المقاتل وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم (وقالوا) لكل واحد يومان لابد منهما أحدهما لا يعجل عليه والثانى لا يغفل عنه فالجبان والفرار * وكان شيوخ الجند يحكون فى بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا فى المعترك قطعة من بيضة الحديد قدر ثلثها بما حوته من الرأس فقال انه لم ير قط ضربة أقوى منها * وكان شيوخ الجند فى بلد ناطرطوشة يحكون انهم خرجوا فى أيام سيف الدولة فى سرية الى بلاد العدو فبينما هم يسيرون اذ لقيتهم سرية للروم يريدون منا ما نريد منهم قال وعرف بعضهم بعضا وكان فينا صناديد الفرسان وفيهم صناديد الروم فتوافقنا ساعة ثم شددنا وشدوا فالتقينا وتجالدنا ساعة ثم منحنا الله تعالى أكتافهم فجعلناهم حصيدا كأنهم جزر على الاوضام وكان هناك بقربهم قرية فيها شئ من الخرفشربناه وسكرنا ثم اشتهينا شرائح اللحم فقمنا نقطع من لحومهم ونجعل على النار وأكلنا منها فافزع من كان أسرنا منهم وبلغ الحديث الى الروم فقضت النصارى تعجبا منا وقذف الرعب فى قلوبهم (وروى) ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اتى عمرو بن معدى كرب فقال له يا عمرو أى السلاح أفضل فى الحرب فقال عن أيها تسأل قال ما تقول فى السهام قال منها ما يخطئ ويصيب قال فما تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك قال فما تقول فى السيف قال ذلك الذى لا أم لك قال فما

تقول في الترس فار هو الدائرة وعليه تدور الدوائر وكان عمرو هذا من شجعان العرب وابطالها
نزل يوم القادسية على النهر فقال لاصحابه انى عابر على الجسر فان اسرعتم مقدار جزر الجزور
وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عقرنى القوم وانا قائم بينهم وان ابطأتم
وجدتمونى قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يابنى زبيد على ماتدعون
صاحبكم والله ما أرى ان تدركوه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل
فرس رجل من العجم فامسكها وان الفارس ليضرب فرسه فما يقدر الفرس ان يتحرك فلما
غشيناه رمى الرجل بنفسه وخلا فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونى قالوا أين
فرسك قال رمى بنشابة فعار وشب فصرعنى (ويروى) ان عمرا حمل يوم القادسية على رستم وهو
الذى قدمه يزدجرد ملك الفرس على قتال المسلمين فاستقبل عمرو رستما على فيل فقطع عرقوبه
فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان عليه فيه اربعون ألف دينار فقتل رستما وانهزمت
العجم وروى ان قاتل رستم زنيم بن فلان وأما الصمصامة التى حكيناها التى جازت ثلاث البيضة
غاصت فى الرأس فلم يسمع مثلها فى جاهلية ولا اسلام فحملتها الروم وعلقتها فى كنيستها فهم
وكانوا اذا عيروا بانهزامهم يقولون لقينا اقواما هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم اليها يزورها
وانما كانت العرب تفخر فى هذا الباب بقول النمر بن تولب يصف ضربة سيف

أبقى الحوادث والايام من نمر * آثار سيف قديم أثره بادى

تظل تحفر عنه ان ضربت به * بعد الذراعين والقيدين والهادى

ويشد قول النابغة فى السيف أيضا

يقد السلوقى المضاعف نسجه * ويوقد بالصفاح نار الحباحب

وأين هذا من قد الحديد غاصت من الرأس وأين الثريا من الثرى وأين الحسام من المنجل ولولا
كراهة التطويل لذكرنا من أمثال هذا ما فيه العجب وقد قالوا السيف ظل الموت السيف لعاب
المنية والرمح رشاء المنية والسهام رسل لا تؤامر من أرسلها والرمح أخوك وربما خانك والدرع
مشغلة للراجل ومتعبة للفارس وانها لحصن حصين والترس مجن وعليه تدور الدوائر

(الباب الحادى والستون فى ذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها)

من حزم الملك أن لا يحقر عدوه وان كان ذليلا ولا يغفل عنه وان كان حقيرا فكم من برغوث
اسهر فيلا ومنع الرقاد ملكا جليلا وقال الشاعر

فلا تحقرن عدوا رماك * وان كان فى ساعديه قصر

فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر

وفى الامثال لا تحقرن الذليل فربما شرق بالذباب العزيز ومثل العدو مثل النار ان تداركت
أوائلها سهل اطفاؤها وان تركت حتى استحكم ضرامها صعب مرامها وتضاعفت بليتها ومثله
أيضا مثل الجرح الردى ان تداركته سهل برؤه وان أغفلته حتى تفل عظمت بليته وأعيا
الاطباء برؤه (واعلموا) ان الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا فلا يسع أهل
سائر الاقاليم جهلها اذ لكل أمة فى الغالب نوع من التدبير وصنف من الحيلة وضرب من
المكيدة وجنس من اللقاء والكر والفر وتعبية المواكب وحمل بعضهم على بعض ولكن نصف

منه أشياء تجري مجرى المعاقد لا تكاد تختلف في انهاء أزمة الحروب ونبدأ أولا بما ذكره الله تعالى في القرآن * قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم يشتمل على كل ما في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة فقرعلى أناس يرمون فقال الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي وكان بعض أصحابه اذا أراد الغزو لا يقص أظفاره ويتركها عدة ويراها قوة فأول ذلك ان يقدم بين يدي اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام ورد مظلمة وصلة رحم ودعاء مخلص وأمر بمعروف وتغيير منكر وأمثال ذلك فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر بذلك ويقول انما تقاتلون بأعمالكم وروى ان بريدا ورد عليه بفتح للمسلمين فقال له عمر أي وقت لقيتم العدو قال غدوة قال ومتى انهزم قال عند الزوال فقال عمر انا لله وانا اليه راجعون وقام الشرك للايمان من غدوة الى الزوال لقد أحدثتم بعدي حدثا أو أحدثت بعدكم حدثا والشان كل الشأن في استجادة القواد وانتخاب الامراء وأصحاب الولاية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغي ان يقدم على الجيش الا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ثبت الجنان صارم القلب جريء رابط الجأش صادق البأس ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ومارسوه ونازل الاقران وقارع الابطال عارفا بمواضع الفرص خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب وما الذي يجب شحنه بالحماة والابطال من ذلك بصيرا بصنوف العدو ومواقع الغرة منه ومواقع الشدة منه فانه اذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كان جميعهم كأنه مثله فان رأى اقتراع الكتائب وجها والا ردّ الغنم للزريبة (واعلم) ان الحرب خدعة عند جميع العقلاء وآخر ما يجب ركوبه قرع الكتائب وحمل الجيوش بعضها على بعض فليبدأ بتصريف الحيلة في نيل الظفر (قال) نصر بن سيار كنت أمير خراسان من قبل مروان الجعدي آخر ملوك بني أمية قال وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للقائد العظيم القيادة أن يكون فيه عشرة أخلاق من أخلاق البهائم شجاعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الاسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركي وغارة الذئب وسمن نغيرو هي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء * وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة الجبال والحديد ينحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار والسحاب تحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يتقي الريح بحاجته والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فأشد خلق ربك الهم فأول ذلك ان يبث جواسيسه في عسكر عدوه ويستعلم اخباره مع الساعات ويستعلم رؤساءهم وقادتهم وذوي الشجاعة منهم ويدس اليهم ويعدهم وعدا جميلا ويوجه اليهم بضروب الخدعة ويقوي اطماعهم في ان ينالوا ما عنده من الهبات الفاخرة والولايات السنية وان رأى وجها عاجلهم بالهدايا والتحف وسألهم اما الغدر بصاحبهم واما اعتزاله وقت اللقاء وينشئ على ألسنتهم كتبا مدالسة اليه ويبثها في عسكره ويكتب على السهام اخبارا مزورة ويرمي بها في جيوشهم ويضرب بينهم بما في الميسور من ذلك فان جميع ما ذكرنا تنفق فيه الاموال والحيل واللقاء تنفق فيه الارواح والرؤس ووجوه الخداع فيه

لا تحصى

لا تحصى والخائف مرفها أبصر من الغائب ولله در المهلب لما كتب اليه الحجاج يستعجله في حرب
الازارقة رد الجواب فقال ان من البلاء ان يكون الرأى عند من يملكه لا عند من يبصره وقال
المختار ليزيد بن أنس حين ولاه الجزيرة وأمره بقتال عبد الله بن زياد امض الى عدوك برأى غير
مستبد وبحزم غير متكل ولا تركن الى الدولة فربما انقلبت واستشر من لا يطمع في ملك
ولا تسر بقلبك واستخر الله تعالى قبل اقدامك توفق * وأوصت أم الذيال العبسي ابنها القتال
وهو من أشد العرب يا بني لا تنشب في حرب ان وثقت بشدتك حتى تعرف وجه المهرب منها فان
النفس أقوى شئ اذا وجدت سبيل الحيلة وأضعف شئ اذا يئست منها وبحد الشدة ما كانت
الحيلة مدبرة لها اذا لم يكن النصر من الله تعالى فابذلها واختلس من المحارب خلسة الذئب
وطر منه طيران الغراب فان الحذر زمام الشجاعة والتهور عدو الشدة * وقال أبو السرايا وكان
أحد القتالين لابنه يا بني كن بحيلتك اوثق منك بشدتك وبحذرك اوثق منك بشجاعتك فان
الحرب حرب المتهور وغنيمة الحذر واعلم أن الدول اذا زالت صارت حيلها وبالا عليها واذا
أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة * وقال الحكماء اذا نزل القضاء كان
العطب في الحيلة واذا انقضت مدة الدول أدبرت سنة العقلاء عن سنة الحذر ويغلب
الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوي بفناء مدته * وقالوا سعود الدول ونحوسها مقرونة
بسعود الملك ونحوسه وقالوا هي زين على كل امرئ دولته فاذا انقضت بدت عورته وقالوا
رب حيلة أهلكت المحتال ومن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة
الابطال في القلب فانه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة الى القلب فاذا كانت راياته تخفق
وطبوله تضرب كانت حصنا للجناحين يأوي اليه كل منهزم واذا انكسر القلب تمزق الجناحان
مثال ذلك الطائر اذا انكسر احدى جناحيه يرجى عوده ولو بعد حين وان انكسر الرأس ذهب
الجناحان ولا تحصى كثرة اذا انكسار جناحي العسكر وثبات القلب ثم يرجع النافرون الى القلب
ويكون الظفر لهم وقل عسكر انكسر قلبه فافلح او تراجع اللهم الا أن يكون مكيدة من
صاحب الجيش فيخلي القلب قصدا وتعمدا ولا يغادر به كبير أمر حتى اذا توسطه العدو
اشتغل بنهبه وأطبقت عليه الجناحان ومن أعظم المكايد في الحرب الكمناء ولا يحصى كثرة كم
من عسكر استبيحت بيضته وفل عزمه بالكمناء وذلك ان الفارس لا يزال على حمية في الدفاع
وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندا منشورا أو يسمع ضرب الطبول فتنتقض همته لخلاص
نفسه ولتكن همته وراء ذلك وعليه مدار الحروب في اصطناع الشجعان واختيار الابطال
فاصطنع ذوي البسالة والاقدام والجراءة ولا عليك أن لا يكثروا وبعيد عليك ان يكثروا ولا
تنس بيت الشاعر

والناس ألف منهم كواحد * وواحد كالالف ان أمر عنى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد منهم خيرا من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ما تقضي منه
العجب فهم في الجيش وان قلوا كالنفحة في الثمن * من ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية
ابن ردميل النصراني على مدينة وشقة في ثغور بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافئين
كل واحد منهما يراهق عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجل حدثني رجل ممن حضر الوقعة

من الاجناد قال لهم بالاقامة قال الطاغية بن ردمير لمن يثق بعقله وبممارسته للحروب من رجاله
استعلم من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر
فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال قال انظر الآن من في عسكري من
الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدوهم فوجدوهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام
الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول يا بياضك من يوم ثم ناشب الحرب بينهم فلم تزل المصابرة بين
الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فني أكثر العسكرين ولم يهزم واحد
منهم فلما كان وقت العصر نظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا حملة وداخلونا مداخلة وفرقوا بيننا
وصيرونا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا وصاروا بيننا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تتم
الحرب الا ساعة ونحن في خسارة معهم فأشار مقدمو العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه
وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة وشقة فليعتبر ذوو الحزم والبصيرة من
جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل ولا يحضره من الشجعان المعدودين الا خمسة عشر رجلا
وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد (وسمعت) أستاذنا
القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله يحكي قال بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته
اذ وقف على نشز من الارض مرتفع فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه
وعن يساره قد ملؤا السهل والجبل فالتفت الى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المصحفي فقال
كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير قال ابن المصحفي أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا فقال له
المنصور لا يعجزنا أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة فسكت ابن
المصحفي فقال المنصور ما سكوتك أليس في هذه الجيوش ألف مقاتل قال لا قال فتعجب المنصور
ثم انعطف عليه فقال أفيهم خمسمائة رجل من الابطال المعدودين قال لا فحنق المنصور ثم انعطف
عليه فقال أفيهم مائة رجل من الابطال قال لا قال أفيهم خمسون من الابطال قال لا فسبه
المنصور واستخف به وأمر به فاخرج على أقبح صفة فلما توسطوا بلاد المشركين اجتمعت الروم
وتصاف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاك في سلاحه يكر ويفر وهو ينادي هل من
مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا واضطرب
لها المسلمون ثم جعل العلج يمرح بين الصفين وينادي هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل
من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادي هل من مبارز ثلاثة لواحد
فبرز اليه رجل فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون وكادت تكون كسرة فقيل للمنصور
ما لها غير ابن المصحفي فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب
منذ اليوم قال بعيني جميع ما جرى قال فما الحيلة فيه قال وما الذي تريد قال ان تكفي المسلمين
شره قال نعم الآن ثم قصد الى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد نشزت
أوراكها هزالا وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل في نفسه وحليته غير متصنع
فقال له ابن المصحفي ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فماذا ترى فيه قال أريد
رأسه الآن قال نعم فحمل القربة الى رحله ولبس لامة حربه وبرز اليه فتجاولا ساعة فلم ير
الناس الا المسلم خارجا اليهم يركض ولا يدرون ما هنالك واذا الرجل يحمل رأس العلج فألقى

الرأس بين يدي المنصور فقال له ابن المصفى عن هؤلاء الرجال أخبرتك انه ليس في عسكرك منهم ألف ولا خمسمائة ولا مائة ولا خمسون ولا عشرون ولا عشرة فرد ابن المصفى الى منزلته وأكرمه (واعلم) أن أول الحرب شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى الحرب شعثاء عابسة شوهاء كالحة حرور في حياض الموت شموس في الوطيس تتغذى بالنفوس الحرب أولها الكلام وآخرها الحمام الحرب مرة المذاق اذا قلصت عن ساق من صبر فيها عرف ومن ضعف عنها تلف جسم الحرب الشجاعة وقلبها التدبير وعينها الحذر وجناحها الطاعة ولسانها المكيدة وقائدها الرفق وسائقها النصر * وقال الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقالوا الحرب غشوم سميت بذلك لانها تتخطى الى غير الجاني قال الشاعر

لم أكن من جناتها علم الله واني بحرها اليوم صالي

وقال آخر . رأيت الحرب يجنيها اناس * ويصلى حرها قوم براء

وقال آخر . الحرب أول ماتكون فتية * تسعى ببزتها لكل جهول

حتى اذا اضطرمت وشب ضرامها * عادت عجوزا غير ذات خليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت * مكروهة للشم والتقبيل

(قال بعض الحكماء) قد جمع الله تعالى آداب الحرب في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين * واستوصى قوم أكثم بن صيفي في حرب أرادوها فقال أقلوا الخلاف على أمرائكم واعلموا ان كثرة الصياح فشل ولا جماعة لمن اختلف وتثبتوا فان أحزم الفريقين الركين (وقال) عتبة بن ربيعة يوم بدر لاصحابه الا ترون أصحاب محمد جثيا على الركب كأنهم خرس يتلمظون تلمظ الحيات (ورأيت) غير واحد ممن ألف في الحروب يكره رفع الصوت بالتكبير ويقولون يذكر الله في نفسه * واعلم أرشدك الله تعالى ان الله تعالى قد أوضح لنا في كتابه علة النصر وعلة الهزيمة والفرار فقال يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم يعني ان تنصروا رسوله ودينه وأما الفرار فعلته المعاصي قال الله تعالى ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا أي بشؤم ذنوبهم وتركهم المركز الذي رسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رتب الرماة يوم أحد على ثلمة الجبل ليمنعوا قريشا أن يخرجوا عليهم كمينا من ذلك الموضع ثم التقى المسلمون فانهزم الكفار فقال الرماة لاتفوتنا الغنائم فأقبلوا على الغنائم وتركوا المركز الاول فخرجت خيل المشركين من هناك وأقبلوا على المسلمين فكانت مقتلة أحد * وليخف قائد الجيش العلامة التي هو مشهور بها فان عدوه قد يستعلم حليته والوان خيله ورايته ولا يلزم خيمته ليلا ونهارا وليبدل زيه ويغير خيمته ويعمي مكانه كي لا يلتمس عدوه غرته واذا سكنت الحرب فلا يمش في النفر اليسير من قومه خارج عسكره فان عيون عدوه قد انكبت عليه وعلى هذا الوجه كسر المسلمون جيوش افريقية عند فتحها وذلك ان الحرب سكنت في وسط النهار فخرج مقدم العدو يمشي خارج العسكر يتنزه فأدركه المسلمون فجاء الخبر الى عبد الله بن ابي السرح وهو نائم في قبته فخرج فيمن وثق به من رجاله وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح * ولما عبر

طارق مولى موسى بن نصير الى بلاد الاندلس ليفتحها وموسى اذ ذاك بافريقية فخرجوا
فى الجزيرة الخضراء وتحصنوا فى الجبل الذى يسمى اليوم جبل طارق وهم فى ألف وتسعمائة
رجل فطمعت الروم فيهم فاقتتلوا ثلاثة أيام وكان على الروم تدمير استخلفه لذريق ملك الروم
وكان قد كتب الى لذريق يعلمه ان قوما لا ندرى أمن الارض أم من السماء قد وصلوا الى بلادنا
وقد لقيتهم فانهض الى بنفسك فأتاه لذريق فى تسعين ألف عنان واقيهم طارق وعلى خيله مغيث
الرومى مولى للوليد بن عبد الملك فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال فرأى طارق ما الناس فيه من
الشدة فقام فحضهم على الصبر ورغبهم فى الشهادة وبسط فى آمالهم ثم قال أين المفر البحر من
ورائكم والعدو أمامكم فليس الا الصبر منكم والنصر من ربكم وأنا فاعل شيأ فافعلوا كفعلى
فوالله لأقصدن طاغيتهم فاما أن أقتله واما أن أقتل دونه فاستوثق طارق من خيله وعرف
دابة لذريق وعلامته وخيمته ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد فقتل الله تعالى لذريق
بعد قتل ذريع فى العدو وحمى الله تعالى المسلمين فلم يقتل منهم كثير وانهزم الروم فاقام
المسلمون يقتلونهم ثلاثة أيام واحتز طارق رأس لذريق وبعث بها الى موسى وبعث بها موسى
الى الوليد بن عبد الملك وسار مغيث الى قرطبة وسار طارق الى طليطلة ولم يكن همه غير
المائدة التى تذكر أهل الكتاب انها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فدفع اليه ابن أخت
لذريق المائدة والتاج فقومت المائدة بمائتى ألف لما فيها من الجواهر التى لم ير مثلها * وبهذه
الحيلة قهر البارسلان ملك الترك ملك الروم وقهره وقتل رجاله وأباد جمعه وكانت الروم قد جمعت
جيوشا يقل أن يجمع لمن بعدهم مثلها وكان مبلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كتائب متواصلة
وعساكر مترادفة وكراديس يتلو بعضها بعضا لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا
من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة لفتح الحصون فى الحرب بما لا يحصى وكانوا قد
قسموا بلاد المسلمين الشام ومصر والعراق وخراسان وديار بكر ولم يشكوا ان الدولة قد دارت
لهم وأن نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم الى بلاد المسلمين
واضطربت لها ممالك الاسلام فاحتشد للقائهم البارسلان التركى وهو الذى يسمى الملك
العادل وجمع جموعه بمدينة اصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران
يتدانيان الى أن عادت طلائع المسلمين الى المسلمين وقالوا للبارسلان غدا يتراءى الجمعان فبات
المسلمون ليلة الجمعة والروم فى عدد لا يحصيهم الا الذى خلقهم وما المسلمون فيهم الا اكلة جائع
فبقى المسلمون واجمين لما دهاهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم الى بعض فهال
المسلمين ما رأوا من كثرة العدو وقوتهم وآلاتهم فأمر البارسلان أن يعد المسلمون فبلغوا
اثنى عشر ألف تركى واذا هم منهم كالرقمة فى ذراع الحمار فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب
والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب واستشارهم فى استخلاص صواب الرأى
فتشاوروا برهة ثم أجمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحالفوا وناصحوا الاسلام وأهله ثم
تأهبوا أهبة اللقاء وقالوا للبارسلان سم الله ونحمل على القوم فقال البارسلان يا معشر
أهل الاسلام أمهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا فى شرق
البلاد وغربها فاذا زالت الشمس وفاءت الافياء وعلمنا ان المسلمين قد صلوا ودعوا لنا وصلينا

نحن عملنا أمرنا فصبروا الى أن زالت الشمس ثم صلوا ودعوا الله تعالى أن ينصر دينه وأن يربط على قلوبهم بالصبر وأن يوهن عدوهم وأن يلقى فى قلوبهم الرعب وكان البارسلان قد استوثق من خيمة ملك الروم وعلامته وفرسه وزيه ثم قال لرجاله لا يتخلف أحد كم أن يفعل كفعلى ويضرب بسيفه ويرمى بسهمه حيث أضرب بسيفى وأرمى بسهمى ثم حمل جميعهم حملة رجل واحد الى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها وخلصوا اليه وقتل من حوله وأسر ملك الروم وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك فسمعت الروم ان ملكهم قد قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم واستحضر ملك الروم بين يدى البارسلان بحبل فى عنقه فقال له البارسلان ما كنت تصنع بى لو أخذتنى قال فهل تشك أنى كنت أقتلك فقال له البارسلان أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به وبيعوه فيمن يزيد فكان يقاد بالحبل فى عنقه وينادى عليه من يشترى ملك الروم وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين وينادى عليه بالدراهم والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيأ حتى باعوه من انسان بكلب فأخذ الذى كان تولى ذلك من أمره الكلب والملك وحملهما الى البارسلان وقال قد طفت جميع العسكر وناديت عليه فلم يبذل فيه أحد شيأ الا رجل واحد دفع لى فيه كلبا قال قد أنصف لان الكلب خير منه فاقبض الكلب وادفع اليه هذا الكلب ثم انه أمر بعد ذلك باطلاقه فذهب الى قسطنطينية فعزلته الروم وكحلته بالنار فانظر ماذا يأتى على الملوك اذا عرفوا فى الحروب من الحيلة والقصد فى المكيدة (واعلم) أن القدماء قالوا الكثرة للرعب والقلة للنصر وقد قال تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين فالكثرة أبدا يصحبها الاعجاب ومع الاعجاب الهلاك وخير الاصحاب أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب جيش يبلغ اثنى عشر ألفا من قلة اذا اجتمعت كلمتهم • فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو أرجى تدبير نفعله فى لقاء عدونا أن نقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الارض وصدورهم شارعة الى عدوهم وهم جاثون فى الارض وكل رجل منهم قد ألقم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة فاذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيآتها ولا يقوم رجل منهم على قدميه فاذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يمنة ويسرة فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله • ولقد حدثنى من حضر مثل هذه الوقعة فى بلدى طرطوشة قال صافقت الروم على هذا الترتيب فحملوا علينا فبينا رجل منا كان فى آخر الصف فقام على قدميه فحمل عليه علج من العدو فأصاب غرته فقتله • ولما برز المقتدر بالله ابن هود ملك الاندلس من سرقسطة فى ثغور بلاد الاندلس للقاء الطاغية ردميل عظيم الروم وكان كل واحد منهم قد احتشد بما فى ميسوره فالتقى المسلمون والكفار ثم تنازلوا للقتال وتصافنوا ودام القتال بينهم صدرا كبيرا من النهار وكان المسلمون فى خسران فانزعج المقتدر لذلك وفرق المسلمون من شر ذلك اليوم فدعا المقتدر رجلا من المسلمين لم يكن فى الثغور أعرف

بالحرب منه يسمى سعداره فقال له المقتدر كيف ترى فى هذا اليوم فقال سعداره هذا يوم أسود ولكن قد بقيت لى حيلة فذهب سعداره بزيه زى الروم وكلامه كلامهم لمجاورتهم وكثرة مخالطتهم فانغمس فى عسكر الكفار ثم صعد الى الطاغية ردميل فألفاه شاكى السلاح مكتنفا فى الحديد لا يظهر منه الا عيناه فجعل يتخيله ويترصد غرته الى ان أمكنته الفرصة فحمل عليه فطعنه فى عينيه فخر صريعا لليدين والفم ثم جعل ينادى بلسان الروم قتل السلطان يا معشر الروم فشاع قتله فى العسكر فتخاذلوا وولوا منهزمين وكان الفتح باذن الله تعالى * ولما استضعف الروم صقلية وضربوا عليهم الخراج فكانوا يحملون اليهم الخراج ويحملون الاموال الى العرب بافريقية ويستنجدون بهم على الروم فقال لهم ملك الروم انما مثلى ومثلكم يا اهل صقلية مثل رجل له زوجتان عجوز وصبية فكان اذا بات عند الصبية تلقط الشيب من لحيته لتصبيه فيزهد فى العجوز واذا بات عند العجوز تلقط الشعر الاسود من لحيته لتشيخه فتزهد الصبية فيه فيوشك ان دام هذا به ان يصبح أطلس كذلك حالكم معى ومع العرب اذا أديم المال لى ولهم يوشك أن تنفد أموالكم فتبقوا فقراء ضعفاء فأتسلمكم وأتسلم البلاد * ويروى انه لما هم بحصار صقلية أمر أن يبسط بساط فى الارض ثم جعل فى وسطه دينارا ثم قال لوجوه رجاله من أخذ منكم هذا الدينار ولم يطا البساط علمنا انه يصلح للملك فوقفوا حوله ولم يصل أحد اليه فلما أعياهم ذلك طووا ناحية من البساط من عنده وأمر كل واحد أن يطوى مما يليه حتى طوى البساط فتناولوه بأيديهم فلحقوا الدينار فحينئذ قال لهم اذا أردتم مدينة صقلية خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار والضياع والقرى حتى اذا ضعفت أخذتموها * وكان بسرقسطة فارس يقال له ابن فتحون وكان يناسبق فيقع خال والدتى وكان أشجع العرب والعجم وكان المستعين أبو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه وكان يجرى عليه فى كل عطية خمسمائة دينار وكانت النصرانية باسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه فيحكى أن الرومى اذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له اشرب هل ابن فتحون رأيت فى الماء فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان فأوغروا به صدر المستعين فنفاه أياما ثم ان المستعين أنشأ غزوة الى بلاد الروم فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفا ثم برز علج الى وسط الميدان ينادى هل من مبارز فخرج اليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى وصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الرومى يكر بين الصفين وينادى هل من اثنين لواحد فخرج اليه فارس من المسلمين فقتله الرومى فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل يجول بين الصفين وينادى ويقول ثلاثة لواحد فلم يستجرئ أحد من المسلمين ان يخرج اليه وبقى الناس فى حيرة فقيل للسلطان مالها الا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به وقال له أما ترى ما يصنع هذا العلج فقال هو بعينى قال فما الحيلة فيه فقال ابو الوليد فماذا تريد فقال اكف المسلمين شره فقال الساعة يكون ذلك ان شاء الله تعالى فلبس قميص كتان واستوى على سرجه بلا سلاح وأخذ بيده سوطا طويل الطرف وفى طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه فعجب منه النصرانى ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون واذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل الى الارض لا شئ منه فى السرج ثم طفر على سرجه وحمل عليه وضربه بالسوط فى عنقه فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه من سرجه وجاء به يجره فألقاه بين يدى

المستعين فعلم المستعين انه كان قد أخطأ فى صنعه معه فأكرمه ورده الى أحسن أحواله أيها الاجناد أقلوا الخلاف على الامراء فلا ظفر مع اختلاف ولا جماعة لمن اختلف عليه قال الله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأول الظفر الاجتماع وأول الخذلان الافتراق وعماد الجماعة السمع والطاعة وانما التقى على بن ابى طالب رضى الله عنه يوم صفين من العصيان وكان قد ظهر أهل العراق على أهل الشام وتضعضعت صفوف معاوية فأحس بالشر وانه مغلوب فقال لعمرو بن العاص اذهب فخذ لنا الامان من ابن عمك يعنى عليا فأدار عمرو الحيلة فأمرهم أن يرفعوا المصاحف فى أطراف الرماح وينادون ندعوكم الى كتاب الله تعالى فلما رأى ذلك اصحاب على كفوا عن الحرب فقال لهم على رضى الله عنه اى قوم هذه مكيدة منهم ولم يبق فى القوم دفاع فعصوه وتركوا القتال وكان ذلك سبب الحكمين واعلموا ان من أحزم مكايد الحرب بذكاء العيون واستطلاع الاخبار وافشاء الغلبة واظهار السرور واماتة الحذر والاحتراس من العدو وأن لا تخرج هاربا الى قتال ولا تضيق أمانا على مستأمن وقال بعض المصنفين كثرة التكبير عند اللقاء فشل غضوا الاصوات وتجلببوا السكينة وأكثروا الوثام واحتموا الجبن وادرعوا الليل فانه أخفى للويل الليل يكفيك الجبان ويصف الشجاع الليل المدد الاعظم الحازم يحذر عدوه على كل حال المواثبة ان قرب والغارة ان بعد والكمين ان انكشف والاستطراد اذا ولى الجهل قوة الجرأة من اعتز بقوته فقد وهن ليس من القوة التورط فى الهوة لكن أشد ما كنت حذرا ما كنت عند نفسك أكثر قوة وعددا من استضعف عدوه اغتر ومن اغتر ظفر به عدوه أشعروا قلوبكم فى الحرب الجرأة فانها سبب الظفر واذكروا الضغائن فانها تبعث على الاقدام والزموا الطاعة فانها حصن المحارب اذا وقع اللقاء برز القضاء اذا التقى السيف بالسيف زال الخيار رب مكيدة أبلغ من نجدة رب كلمة هزمت عسكرا الصبر سبب النصر الظفر مع الصبر اجعل قتال عدوك آخر حيلك النصر مع التدبير لا ظفر مع بغى ولا تغتر بالاقوياء لفضل قوتهم على الضعفاء لا تجبنوا عند اللقاء لا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تغلوا عند الغنائم نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا

(الباب الثانى والستون فى القضاء والقدر والتوكل والطلب)

اعلم وفقك الله تعالى ان مذاهب الخلق فى القضاء والقدر وخلق الافعال وارادة الكائنات منتشرة ولا يخرج عن علمه وقضائه وقدره وحكمه حادث فمن خالفنا فى القضاء والقدر وافقنا فى العلم وقد تباين الخلق فيه وتشتتت مذاهبهم وتقاطعوا فيه وتدابروا وكل حزب بما لديهم فرحون ولم نضع هذه الترجمة لاستيفاء ما قالوا والاحتجاج لكل فريق لان ذلك يستدعى مجلدات واسفارا وانما نذكر فى هذا الكتاب أحكاما ظاهرة قريبة من العقول لتقرب الفائدة على الناظر فيه فاعلم أولا ان كل ما يجرى فى العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وايمان وكفر وطاعة ومعصية بقضاء وقدر وكذلك لا يطير طائر بجناحيه ولا يدب حيوان على بطنه ورجليه ولا تطير بعوضة ولا تسقط ورقة الا بقضائه وقدره وارادته ومشيئته كما لا يجرى شئ من ذلك الا وقد سبق علمه به ثم اعلم ان القدر والطلب لا يتنافيان والتوكل والكسب لا يتضادان وذلك أن تعلم ان كل ما قضى الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة كما ان ما علم الله تعالى انه يكون

فهو كائن ومن خالفنا فى القضاء والقدر وافقنا فى العلم فرب أمر قدر الله تعالى وصوله اليك بغير طلب فهو واصل ورب أمر قدر وصوله اليك بعد الطلب فلا يصل الا بالطلب والطلب ايضا من القدر ولافرق بين الامر المطلوب وبين الطلب فى انهما مقدوران فن ههنا قلنا انهما لايتنافيان وكذلك التوكل مع الكسب لان التوكل محله القلب والكسب محله الجوارح ولا يتضادشيآن فى محلين بعدما يتحقق العبد أن المقدور من قبل الله تعالى فان تعسر شئ فبتقديره وان اتفق فبتيسيره قال أنس جاء رجل على ناقة له فقال يارسول الله أدعها وأتوكل فقال اعقلها وتوكل والتوكل والاعتصام بالقدر يستمدان من العقل والطلب والكسب يستمدان من الامر فالتوكل على الله تعالى هو الثقة بما ضمنه والقطع بكون ماحكم به فى رام أمرا من الامور ليس الطريق فى تحصيله أن يغلق بابه عليه و يفوض أمره الى ربه و ينتظر حصول ذلك الامر بل الطريق ان يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه الله فيه وقد ظاهر النبى صلى الله عليه وسلم بين درعين واتخذ خندقا حول المدينة يتظاهر به و يحترس من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لأمة الحرب و يعبى الجيوش و يامرهم وينهاهم عما فيه مصالحهم واسترقى وأمر بالاسترقاء وتداوى وأمر بالمداواة وقال أنزل الداء الذى أنزل الدواء (فان قيل) قد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من استرقى أو أكتوى فقد برئ من التوكل (قلنا) أليس قد قال اعقلها وتوكل وظاهر بين درعين وسائرما ذكرناه آنفا (فان قيل) فما الجمع بين ذلك (قلنا) معناه من استرقى واكتوى متكلا على الرقية والكى وان البرء من قبلهما خاصة فهذا يخرجه من التوكل وانما يفعله كافر يضيف الحوادث الى غير الله تعالى فامامن باشر الاسباب والادوية وتعاطى تدبير الامور بنفسه وأعوانه وماله على ماجرت به سيرة الله تعالى فى أرضه وعادته فى خلقه غير معتقد على شئ من ذلك بل هو واثق القلب أن ماحصل فبتقديره وماتعسر فبتقديره معتمدا فى ذلك على المسبب لا على الاسباب فهذا هو المتوكل لكن شرطه ان يمشى فى ذلك كله مع الاثر ولايسلك طريقا فيه معصية فليس يستدرج ماعند الله بمعاصيه وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه من ابتغى أمرا بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لمجىء ما اتقى ومن ظن ان الطلب والاكتساب يناقض التوكل فقعد فى بيته وأغلق بابه متكلا على الله تعالى فى زعمه كان عن العقل خارجا وفى تيه الجهل والجفا ويقال له قبحت ياهذا اذ جعت وحضر الطعام فهو الى الطعام أحوج منه الى المعرفة وتنبغى لاهله أن يداووه ألاترى أن الله تعالى قال لمريم وهزى اليك بجذع النخلة فهلا أمرها بالسكون ثم حمل الرطب اليها وهكذا القول فيمن له دابة أو بستان يؤمر بسقى البستان وحفره واصلاح شانه ويؤمر بأن يعلف الدابة ويسقيها وأنشدوا

ألم تر أن الله قال لمريم * اليك فهزى الجذع تساقط الرطب
ولوشاء أجنى الجذع من غير هزها * اليها ولكن كل شئ له سبب

وهكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا فلم يحمل أرزاقها اليها فى أوكارها بل الهمها طلبه بالغدو والرواح وقد كان يجهل رئيس القندهارس يرى من تصديق القدر وتكذيب الطلب دون أهل زمانه من

الملوك ما عجزه عن الطلب والتدبير فاخرجه اخوته من سلطانه وقهروه على مملكته فقال له بعض الحكماء ان ترك الطلب بضعف الهمة وبذل النفس وصاحبه سائر الى أخلاق ذوات الاجحرة من الحيوان كالضب وسائر الحشرات تنشا فى أجحرتها وفيه يكون موتها ثم جمعوا بين القدر والطلب وقالوا انهما كالعدلين على ظهر الدابة ان حمل فى واحد منهما أرجح مما حمل فى الآخر سقط وتعب ظهره وثقل عليه سفره وان عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته وضربوا فيه مثالا عجيبا فقالوا ان أعمى ومقعدا كانا فى قرية بفقر وضر لا قائد للاعمى ولا حامل للمقعد وكان فى القرية رجل يطعمهما كل يوم احتسابا قوتهما من الطعام والشراب فلم يزالا فى عافية الى أن هلك المحتسب فاقاما بعده أياما فاشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده فاجمعوا رأيهما على ان يحمل الاعمى المقعد فيدله المقعد على الطريق ببصره ويستقل المقعد بحمل الاعمى فيدوران فى القرية يستطعمان أهلها ففعلا فنجح أمرهما ولو لم يفعلا هلكا فكذلك القدر سببه الطلب والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه وأخذ جهيل فى الطلب فظفر باعدائه ورجع الى ملكه فكان جهيل يقول لا تدع الطلب اتكالا على القدر ولا تجهدن نفسك فى الطلب معتمدا عليه مستهينا بالقدر فانك اذا أجهدت نفسك بالطلب بوجوه التدبير المحمودة مصدقا بالقدر نلت ما تحاول ولم تلتو عليك الامور وان عملت بذلك فالتوى عليك أمر من مطلوبك فذلك من اعانة القدر وانك قد أتيت ذنبا فتفقد جوارحك واستكشف ظاهرك وباطنك وتب الى الله تعالى من كل ذنب أتيته بجارحة من جوارحك واخرج من كل مظلمة ظلمتها فاذا فعلت ذلك فابلك الحظ وساعدك القدر ان شاء الله تعالى * واعلم ان هذا الاصل الذى قررناه يخرج عليه كل ما ورد فى القران وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم من الامر بالتوكل على الله والتسليم اليه والتفويض له من ذلك ان سليمان الخواص تلا يوما قوله تعالى وتوكل على الحى الذى لا يموت فقال ما ينبغى لعبد بعد هذه الآية ان يلجأ الى أحد غير الله قلنا معناه لا يلجأ الى الاسباب اعتمادا عليها ولكن يلجأ اليها واثقا بأن الله تعالى يفعل ما يشاء كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعقل الناقة ولبس درعين الا ترى ان من يطلب الزرع والولد ثم قعد فى بيته لم يطأ زوجته ولا بذر أرضه معتمدا فى ذلك على الله تعالى واثقا به ان تلد امرأته من غير وقاع وتنبت أرضه الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجا ولامر الله تاركا وللائمة والحكماء فى القدر ألفاظ بارعة على السبر والامتحان * منها ما روى ان على بن أبى طالب رضى الله عنه سئل عن القدر فاعرض عن السائل فأبى الا الجواب فقال على أخبرنى أخلقك الله كما تشاء أو كما يشاء فامسك الرجل فقال على للحاضرين آترونه يقول كما أشاء اذا والله أضرب عنقه فقال الرجل كما يشاء فقال على أيحييك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أيميتك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أفيصرفك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أفيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء قال حيث يشاء قال قم فليس لك من الامر شئ وروى ان رجلا قدريا ومجوسيا تناظرا فقال القدرى للمجوسى مالك لا تسلم فقال المجوسى لو أراد الله تعالى لاسلمت فقال القدرى قد أراد الله تعالى ان تسلم ولكن الشيطان يمنعك قال المجوسى فانا مع اقواهما وروى فى الاسرائيليات ان نبيا من أنبياء الله تعالى مر بفخ منصوب واذا طائر قريب منه فقال الطائر

يانبي الله هل رأيت أقل عقلا من هذا نصب هذا الفخ ليصيدني فيه وأنا انظر اليه قال فذهب عنه ثم رجع فاذا الطائر في الفخ فقال له عجبا لك أولست القائل آنفا كذا وكذا فقال يانبي الله اذا جاء الحين لم يبق اذن ولا عين وقال رجل من الخوارج لعلي رضي الله عنه أرأيت من جنبني سبل الهدى وسلك بي سبل الردى أأحسن الى أم أسا فقال له علي ان كنت استوجبت عليه حقا فقد أساء وان كنت لم تستوجب عليه شيأ فهو يفعل مايشاء (وقال) ميمون بن مهران لغيلان القدري سل فاقوى ماتكونون اذا سألتم فقال غيلان أشاء الله أن يعصى فقال ميمون أيعصى كارها فانقطع غيلان وروى ان رجلا قال لبزرجمهر تعال تتناظر في القدر فقال وما تصنع بالمناظرة في القدر رأيت ظاهرا استدللت به على الباطن ورأيت أحمق مرزوقا وعاقلا محروما فعلمت ان التدبير ليس الى العباد وقال بعضهم

يخيب الفتى من حيث يرزق صاحبه * ويعطى المنى من حيث يحرم طالبه

ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الاندلس على سليمان بن عبد الملك فقال له يزيد بن المهلب أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يدى سليمان فقال موسى ان الهدهد يهندس الماء في الارض الفيافي ويبصر القريب منه والبعيد على بعده في التخوم ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة والحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وفي الاسرائيليات ان الهداهد كانت رائدة سليمان ابن داود عليهما السلام الى الماء فتتقدم معسكره ثم تنظر الارض فتقول الماء ههنا على ألف قامة أو أقل أو أكثر فتبادر الجن تحفره فلا يلحق سليمان الا وقد استعد الماء واعلموا أن الهارب مما هو مقضى مقدر كالمتقلب في كف الطالب وأنشد بعضهم

واذا خشيت من الامور مقدرا * وفررت منه فنحوه تتوجه

ولبشار طبعت على مافي غير مخير * هواي ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى فلم أرد * وقصر علمي أن ينال المغيبا

وأصرف عن قصدي وعلمي مقصر * وأمسي وما أعطيت الا التعجبا

ولما وقع الطاعون بالكوفة فر ابن أبي ليلى على حمار له يطلب النجاة فسمع منشدا ينشد

لن يسبق الله على حمار * ولا على ذي منعة طيار

أو يأتي الحتف على مقدار * قد يصبح الله امام السارى

فكر راجعا الى الكوفة وقال اذا كان الله امام السارى فلات حين مهرب وأنشد بعضهم

أقام على المسير وقد أنيخت * مطاياه وغرد حاد ياها

وظل أخاف عادية الليالي * على نفسي وأن ألقى رداها

ومن كتبت منيته بأرض * فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجدوا في منطقته كتابا فيه اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان القدر في الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق وقال ابن عباس وجعفر بن محمد والحسن البصري في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما انما كان الكنز لوحا من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح

وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها
لا اله الا الله محمد رسول الله وقال يحيى بن معاذ عجبت من ثلاث رجل يريد تناول رزقه بتدبيره
وهو يرى تناقض تدبيره ورجل شغله هم غده وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط ومن عجيب
ما نزل بالاسكندرية ان رجلا من خدمة السلطان غاب عن خدمته أياما فقبضه الشرط وحملوه
الى دار السلطان فانساب منهم فى بعض الطريق وترامى فى بئر والمدينة مسربة تحت الارض
باسراب يمشى الماشى فيها قائما يخترقها ويدورها الان فى دورها آبارا على تلك السروب فما زال
الرجل يمشى الى ان لاح له بئر مضيئة فطلع فيها واذا البئر فى دار السلطان فطلع الرجل فى دار
السلطان فادبه السلطان فكان فيه المثل السائر الفار من القضاء الغالب كالمنفلت فى يد
الطالب وقال ابن مسعود ان الرجل ليشرف على الامر من الامارة والتجارة أو غيرها فذكره
الله تعالى فوق سمواته فيقول للملك اصرف عن عبدى هذا الامر فانى ان أيسره له أدخله به
جهنم فيظل يتغيظ على جيرانه فيقول سبقنى فلان وحسدنى فلان وما صرفه عنه الا الله تعالى
وأنشدوا

قالوا تقيم وقد احا * ط بك العدو ولا تفر
فاجبتهم والشيخ ما * لم ينتفع بالعلم غر
لا نلت خيرا ما بقيـ * ـت ولا عدانى الدهر شر
ان كنت أعلم ان غيـ * ـر الله ينفع أو يضر

استأذن العقل على الجد فقال اذهب لا حاجة لى بك فقال العقل ولم فقال انك تحتاج الى ولا
أحتاج اليك (وأوصى) حكيم ابنه فقال يا بنى رزقك الله جدا يخدمك به ذوو العقول ولا رزقك
عقلا تخدم به ذوى الجدود وكان يقال افراط العقل مضر بالجد وروى ان رجلا خير فى أمر
فابى أن يختار وقال أنا بجدى أوثق منى بعقلى فافرغوا وفى الامثال اسع بجد لا بكد اسع
بجد أودع جدك لا كدك الجد لا الجد الجد أغنى من الكد واعلم ان زمام الامور التوفيق
ولم ينزل من السماء الى الارض أقل من التوفيق وهو مقرون بالاجتهاد قال الله تعالى والذين
جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقد كنت جمعت فيه كتابا من جملة كتابى فى الاسرار هل التوفيق
مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه * ومن لطيف ما وقفت عليه فى مجارى القضاء والقدر
وان الهارب من المقدور كالمنفلت فى يد الطالب ما نزل فى مدينة الاسكندرية فى قضية الرجل
الذى تقدم ذكره

الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم وهو يشتمل على خمسة فصول

(الاول) يشتمل على أخبار رفعت الينا بعد الفراغ من الكتاب فالحقناها (والثانى) يشتمل على
حكم لحكيم الفرس خاصة (والثالث) يشتمل على حكم لحكيم السند خاصة (والرابع) يشتمل
على حكم لحكيم العرب خاصة (والخامس) يشتمل على حكم مجموعة منتخبة رسمنا ذلك لتنظر فى
عقول القوم واغراضهم ومنتهى مرامهم من كتاب جاويدان خرد الفارسى قال ثلاثة لا يصلح
فسادهن بشئ من الحيل العداوة بين الاقارب وتحاسد الاكفاء والركاكة فى العقول
وثلاثة لا يستفسد صلاحهن بنوع من المكر والحيل العبادة فى العلماء والقنوع فى

المستبصرين والسخاء فى ذوى الاخطار وثلاث لايشبع منهن الحياة والعافية والمال وقال ابن لقمان لابيه يا أبت ما الداء العيا قال رعونة مولودة قال فما الجرح الدوى قال المرأة السوء قال فما الحمل الثقيل قال الغضب ولما قرأ هذه الحكاية أبو عباد الكاتب وكان ظريفا فى أخباره قال والله الغضب أخف على من ريشة وكان أسرع الناس غضبا فقيل له اتماعى لقمان ان احتمال الغضب ثقيل فقال لا والله لا يقوى على احتمال الغضب الا الجمل وغضب يوما على بعض أصحابه فرماه بدواة فشجه فجعل الدم يسيل فقال أبو عباد صدق الله العظيم حيث قال والذين اذا ما غضبوا هم يغفرون فاستدعاه المأمون وقال ويحك لا تحسن ان تقرأ آية من كتاب الله تعالى قال بلى والله يا أمير المؤمنين انى لاقرأ من سورة واحدة ألف آية فضحك المأمون وأمر باخراجه * وقيل لانوشروان ما العقل قال القصد فى كل الامور وقيل فما المروءة قال ترك الريبة قيل فما السخاء قال ان تنصف من نفسك قيل فما الحمق قال الاغراق فى الذم والحمد وقيل لبعض الحكماء ما الحزم قال سوء الظن وقال بعضهم فى قوله الحزم سوء الظن قال انما أراد سوء الظن بنفسه لا بغيره قيل فما الصواب قال المشورة قيل فما الذى يجمع القلوب على المودة قال كف بذول وبشر جميل قيل فما الاحتياط قال الاقتصاد فى الحب والبغض وقال معاوية لزياد حين ولاه العراق يا زياد ليكن حبك وبغضك قصدا فان الغيرة كامنة واجعل للرجوع والنزوع بقية من قلبك واحذر صولة الانهماك فانها تؤدى الى المهالك وهو مثل قول على بن أبى طالب رضى الله عنه أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما ومن ذلك قول الاول

وأحبب حبيبك حبا رويدا * فليس يعولك أن تصرما

وقال آخر ولا تيأسن الدهر من حب كاشح * ولا تأمنن الدهر صرم حبيب

وسئل بزرجمهر عن العقل فقال ترك ما لا يعنى قيل فما الحزم قال انتهاز الفرصة قيل فما الحلم قال العفو عند المقدرة قيل فما الشدة قال ملك الغضب قيل فما الخرق قال حب مغرق وبغض مفرط وقيل لبعض الملوك وبلغ فى المنزلة والقدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه ما الذى بلغ بك هذه المنزلة قال عفوى عند قدرتى واينى بعد شدتى وبذلى الانصاف ولو من نفسى وابقائى فى الحب والبغض مكانا لموضع الاستبدال وقال الاسكندر لبعض الحكماء وأراد سفرا أرشدنى لاحزم أمرى قال لا تمكن قلبك محبة الشئ ولا يستولين عليك بغضه واجعلهما قصدا فان القلب كاسمه يتقلب وله خاصية فى القلب تنزع وترجع واجعل وزيرك التثبت وسميرك التيقظ ولا تقدم الا بعد المشورة فانها نعم الدليل واذا فعلت ذلك ملكت قلوب رعيتك ملك استعباد قال الشاعر

وما سمى الانسان الا لانسه * ولا القلب الا انه يتقلب

وقيل لبعض الحكماء ما الدليل الناصح قال غريزة العقل مع الطبع قيل فما القائد المشفق قال حسن المنطق قيل فما العناء المعى قال تطبعك من لا طبع له وقال الفضل بن مروان سألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم قال بذل عرفه وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة لا ينتقص جنده ولا يحرج رعيته سهل النوال حزن النكال الرجاء والخوف

معقودان

معقودان فى يده قلت فكيف حكمه قال يرد الظالم ويردع الظالم ويعطى كل ذى حق حقه
فالرعية اثنان راض ومغتبط قلت فكيف هيبتهم له قال يتصور فى القلوب فتغضى له العيون
قال فنظر رسول ملك الحبشة الى اصغائى اليه واقبالى عليه وكانت الرسل تنزل عندى
فقال لترجمانه ما الذى يقول الرومى قال يصف له ملكهم ويذكر سيرته فكلم الترجمان بشئ
فقال لى الترجمان يقول ان ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سطوة عند
المغالبة وذو عقوبة عند الاجترام قد كسا رعيته جميع نعمته وقصرهم تعنيف عقوبته
فهم يتراءونه تراءى الهلال خيالا ويخافونه مخافة الموت نكالا وقد وسعهم عدله وردعهم
سطوته عقله فلا تمتهنه مزحة ولا تؤيسه غفلة اذا أعطى أوسع واذا عاقب أوجع فالناس
اثنان راج وخائف فلا الراجى خائب الامل ولا الخائف بعيد الاجل قلت فكيف رهبتهم له
قال لا ترفع اليه العيون أجفانها ولا تتبعه الابصار انسانها كان رعيته قطا فرقت عليها
صقور صوائد قال فحدثت المأمون بهذين الحديثين فقال لى كم قيمتهما عندك قلت ألفا درهم
قال يا فضل ان قيمتهما أكثر من الخلافة أما علمت حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى
الله عنه قال قيمة كل امرئ ما يحسن أفتعرف أحدا من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحدا
من خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هذه الصفة قلت لا قال فقد أمرت لهما بعشرين ألف
دينار معجلة لهما واجعل العدة مادة بينى وبينهما على العود فلولا حقوق الاسلام وأهله لرأيت
اعطاءهما ما فى بيت المال الخاصة والعامة دون ما يستحقانه وقال الفضل بن سهل كان عندى
رسول ملك الروم وكان يحدثنى عن أخت للملك يقال لها خاتون قال اصابتنا سنة احتدم
شواظها علينا بحرارة المصائب وصنوف الآفات ففزع الناس الى الملك فلم يدر ما يجيبهم به
فقالت له خاتون أيها الملك ان الحزم علق لا يخلق جديده ولا يهتن عزيزه وهو دليل الملك على
استصلاح رعيته وزاجر له عن استفسادها وقد فزعت رعيتك اليك لفضل العجز عن الالتجاء
الى من لا تزيده الاساءة الى خلقه عزا ولا ينقصه العود بالاحسان اليهم ملكا وما أحد أولى
بحفظ الوصية من الموصى ولا بركوب الدلالة من الدال ولا بحسن الرعاية من الراعى ولم تزل فى
نعمة لم تغيرها نقمة وفى رضا لم يكدره سخط الى أن جرى القدر بما عمى منه البصر وذهل عنه
الحذر فسلب الموهوب والسالب هو الواهب فعد اليه بشكر النعم وعذ به من قطيع
النقم فتى تنسه نفسك ولا تجعلن الحياء من التذلل لمن عز المذل شركا بينك وبين رعيتك
فتستحق مذموم العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب الى الاقرار لله بكنه القدرة
وتذليل الالسن فى الدعاء بمحض الشكر فان الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن شئ فعل الى
صالح عمل ويبعثه على دؤب شكر يحوز به فضل أجر فامرها الملك ان تقوم فيهم فتنذرهم
بهذا الكلام ففعلت فرجع القوم عن بابه وقد علم الله تعالى منهم الوعظ فى الامر والنهى
فحال عليهم الحول وما بينهم مفتقد نعمة كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع
فاعترف الملك لها بالفضل فقلدها الملك بعده وجمع الرعية على الطاعة لها فى المحبوب والمكروه
فهذا فعل الله باعدائه وضرائر نعمته لما شكروه آعادلهم من نعمه ما كان قد استرجع وزادهم
من فضله ما تمنوه فكيف بمن يوحدونه ويؤمنون به لو صدقت نياتنا وصحت ضمائرنا وقال

الواقدي توفي رسول بعض الملوك بدمشق في خلافة هشام فوجد في جيبه لوح من ذهب مكتوب فيه اذا ذهب الوفاء نزل البلاء واذا مات الاعتصام عاش الانتقام واذا ظهرت الخيانات امتحقت البركات وقال الوضاحي وجه أنوشروان رسولا له الى ملك قد أجمع على محاربته وأمره ان يتعرف سيرته في نفسه ورعيته فرجع اليه فقال وجدت عنده الهزل أقوى من الجد والكذب أكثر من الصدق والجور أرفع من العدل فقال أنوشروان رزقت الظفر به سر اليه وليكن عملك في محاربته بما هو عنده أضعف وأقل وأوضع فانك منصور وهو مخذول فسار اليه فقتله واستولى على مملكته وقال بزرجمهر المزح آفة الجد والكذب عدو الصدق والجور مفسدة الملك فاذا استعمل الملك الهزل ذهبت هيبته واذا استصحب الكذب استخف به واذا بسط الجور فسد سلطانه وكان نقش خاتم رستم وهو أحد ملوك الفرس الهزل مبغضه والكذب منقصه والجور مفسده وقيل لبعض أصحاب اسفنديار رجل من الترك فأصيب في عنقه لوح ذهب مكتوب فيه آفة الشدة التهيب وآفة المنطق الحياء وآفة كل شئ الكذب وقيل لبعض الحكما ما قيمة الصدق قال الخلد في الدنيا قيل فما قيمة الكذب قال موت عاجل قيل فما قيمة العدل قال ملك الابد قيل فما قيمة الجور قال ذل الحياة قال وسأل ملك الهند الاسكندر وقد دخل بلاده ما علامة الملك ودولته قال له الجد في كل الامور قال فما علامة زواله قال الهزل فيه قال فما سرور الدنيا قال الرضا بما رزقت قال فما غمها قال الحرص على ما للملك لا تناله وقال بزرجمهر ثلاث هن سرور الدنيا وثلاث هن غمها فاما السرور فالرضا بالقسم والرضا بالطاعة في النعم ونفي الاهتمام بالرزق لغد وأما الغم فحرص مسرف وسؤال مجحف وتمني ما يلهف ومر بعض الملوك بغلام يسوق حمارا غير منبعث وقد عنف عليه في السوق فقال يا غلام ارفق به فقال الغلام يا أيها الملك في الرفق به مضرة عليه قال وما مضرته قال تطول طريقه ويشتد جوعه وفي العنف احسان اليه قال وما الاحسان اليه قال يخف حمله ويطول أكله فأعجب الملك بكلامه وقال له قد أمرت لك بألف درهم قال رزق مقدور وواهب مأجور قال وقد أمرت باثبات اسمك في حشمي قال كفيت مؤنه ورزقت بها معونه قال لولا انك حديث السن لاستوزرتك قال ان يعدم الفضل من رزق العقل قال فهل تصلح لذلك قال انما يكون الحمد والذم بعد التجربة ولا يعرف الانسان نفسه حتى يبلوها قال فاستوزره فوجده ذا رأي صليب وفهم رحيب ومشورة تقع مواقع التوفيق قال وكتب الاسكندر الى ارسطاطاليس وقد نفذ في الشرق والغرب وبلغ منهما ما لم يبلغه أحد قبله اكتب الى لفظا وجيزا ينفع ويردع فكتب اليه اذا استوليت بك السلامة فجدد ذكر العطب واذا هنتك العافية فحدث نفسك بالبلاء واذا اطمأن بك الامن فاستشعر الخوف واذا بلغت نهاية الامل فاذكر الموت فان أحببت نفسك فلا تجعلن لها في الاساءة اليها نصيبا قال ووعظ بعض الحكما ملكا فقال له أيها الملك ان الدنيا دار عمل والآخرة دار ثواب ومن لا يقدم لا يجد فهن نفسك حلاوة عيشها بترك الاساءة اليها واعلم ان زمام العافية بيد البلاء وأمن السلامة تحت جناح العطب وباب الامن مستور بالخوف فلا تكونن في حال من هذه الثلاثة غير متوقع لاضدادها ولا تجعل نفسك غرضا السهام الهلاك فان الدهر عدو ابن آدم فاحترز من عدوك بغاية

الاستعداد واذا فكرت فى نفسك وعدوها استغنيت عن الوعظ (قال) وكتب الاسكندر على باب الاسكندرية أجل قريب فى يد غيرك وسوق حثيث من الليل والنهار واذا انتهت المدة حيل بينك وبين العدة فاحتل قبل المنع وأكرم أجلك بحسن صحبة السابقين واذا آنستك السلامة فاستوحش بالعطب فانه الغاية واذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء فاليه تكون الرجعة واذا بسطك الامل فاقبض نفسك عنه بذكر الاجل فهو الموعد واليه المورد (وقال) ابن الاعرابى حدثنى من رأى بين اصبهان وفارس حجرا مكتوبا عليه العافية مقرونة بالبلاء والسلامة مقرونة بالعطب والامن مقرون بالخوف ولما ضرب انوشروان عنق بزرجمهر لما رغب عن دين المجوسية وانتقل الى دين المسيح عليه السلام وجد فى منطقته كتابا فيه ثلاث كلمات اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان الغدر فى الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق ولما تاب الله تعالى على النبى سليمان عليه السلام ورد عليه ملكه كتب على كرسيه اذا صحت العافية نزل البلاء واذا تمت السلامة نجم العطب واذا تم الامن علن الخوف (وحفر) حفير بفارس فوجد فيه لوح رخام فيه أربعة أسطر محفورة أولها أيها المعافى أبشر بالبلاء والثانى ايها السالم توقع العطب والثالث أيها الآمن خذ اهبة الخوف والرابع أيها الموسران يبعد عنك العسر ولما نزل أبو مسلم مدينة سمرقند أتاه اسبهندها فقال أيها الملك ان بالقندهار حجرا مدفونا فيه ثلاثة أسطر وجدت فى الكتب ان سليمان بن داود عليهما السلام بعث به ودفن فى هذا الموضع ووجدانك أنت الذى تستخرجه وتعمل بما فيه فأمر به فاخرج فاذا أول سطر منه الحزم انتهاز الفرصة وترك الونا فيما يخاف عليه الفوت والسطر الثانى الرياسة لاتتم الا بحسن السياسة والسطر الثالث لم يقتل الآباء من ترك الابناء ولم يصب من لم يخب فكان ابو مسلم يقول علم جليل به تتم هذه الدولة ان لم ينزل القدر بما يحول بيننا وبين الحذر فلم يزل يستعمل هذا الكلام الى ان قدم العراق فاعماه القدر عن الاستعانة بالحذر فقتله أبو جعفر المنصور ولما حج أبو مسلم قيل له ان بالحيرة نصرانيا قد أتت عليه مائتا سنة وعنده علم من العلم الاول فوجه اليه فاتى به فلما نظر الشيخ الى أبى مسلم قال قدمت بالكفاية ولم تأل فى العناية وقد بلغت النهاية أحرقت نفسك لمن سيسكت حسك وكان قد عاينت رمسك فبكى أبو مسلم فقال لاتبك فانك لم تؤت من حزم وثيق ولامن رأى رتيق ولاتدبير نافع ولا من سيف قاطع ولكن مااستجمع أحد لامله الا أسرع فى تقريب أجله قال فتى تراه يكون قال اذا تواطأ الخليفتان على أمر كان والتقدير فى يدى من يبطل معه التدبير وان رجعت الى خراسان سلمت وهيهات فاراد الرجوع فكتب اليه السلطان بالمضى ووجه اليه من بعثه فلولا ان البصر يعمى اذا نزل القدر لكانت هذه دلالة تقع موقع العيان وتبعث على التيقظ فى الحذر والاحتيال فى الهرب على ان لكل نفس غاية ولكل أمر نهاية (وقيل) لجالينوس وهو حكيم الطب وفيلسوفه وقد نهكته العلة الا تتعالج فقال اذا كان الداء من السماء بطل الدواء واذا قدر الرب بطل حذر المربوب ونعم الدواء الاجل وبئس الداء الامل وقال بعض الغزاة فتحنا حصنا من بلاد الروم فرأينا فيه صورة الاسد من حجر مكتوب عليه الحيلة خير من الشدة والتأنى أفضل من العجلة والجهل فى الحرب احزم من العقل

والتفكر في العاقبة مادة الجزع (وقال) أحمد بن سهل وجه ملك الروم الى هارون الرشيد بثلاثة
أسياف مع هدايا كثيرة وعلى سيف منها مكتوب أيها المقاتل احمل تغنم ولا تفكر في العاقبة
فتهزم وعلى الثاني منها مكتوب اذا لم تصل ضربة سيفك فصلها باللقاء خوفك وعلى الثالث
مكتوب التأني فيما لا يخاف عليه الفوات أفضل من العجلة الى ادراك الامل وقال الحسن
ابن سهل قرأت في كتاب جاويدان خرد ثلاث تبطل مع ثلاث الشدة مع الحيلة والعجلة مع
التأني والاسراف مع القصد (وقال) النضر بن على رأيت بعدن حجرا عليه مكتوب بالحميرية
أيها الشديد احذر الحيلة أيها العجول احذر التأني أيها المحارب تأيس من الفكر
في العاقبة أيها الطالب موجود الا تقطع أملك من بلوغه (وكتب) قيصر الى كسرى أخبرني
بأربعة أشياء لم أجد من يعرفها وانا لها عندك أخبرني ما عدو الشدة وصديق الظفر ومدرك
الامل ومفتاح الفقر فكتب اليه الحيلة عدو الشدة والصبر صديق الظفر والتأني مدرك
الامل والجود مفتاح الفقر (وقال) بعض الملوك لحكيم وأراد سفرا أوقفني على أشياء من
حكمتك اعمل بها في سفري فقال اجعل تأنيك زمام عجلتك وحلمك رسول شدتك وعفوك
ملك قدرتك وأناضا من لك قلوب رعيتك ان لم تحرجهم بالشدة أو تبطرهم بالاحسان اليهم
وقال النضر بن على قرأت في كتاب جاويدان خرد وهو أجل كتاب للفرس الحيلة أنفع من أقوى
الشدة وأقل التأني أجل من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الانسان
برأيه عميت عليه المراشد وكان الجمتكان أبو بزرجمهر خامل القدر وضيع الحال مفهم
المنطق فلما أتت ابزرجمهر خمس عشرة سنة وحضر في مجلس الملك وقد جلست الوزراء على
كراسيها والمرازبة في مجالسها وقف بحيال الملك ثم قال الحمد لله المأمول نعمه المرهوب
نقمه الدال عليه بالرغبة اليه المؤيد الملك بسعوده في الفلك حتى رفع شانه وعظم سلطانه
وأنار به البلاد وأعاش به العباد وقسم له في التقدير وجوه التدبير فرعى رعيته بفضل
نعمته وحماها المؤيدات وأوردها المعشبات وذادها عن الآكاين وألفها بالرفق واللين
انعاما من الله تعالى عليه وتثبيتا لما في يديه واسأله ان يبارك له فيما آتاه ويخيره فيما استرعاه
ويرفع قدره في السماء وينشر ذكره تحت الماء حتى لا يبقى له بينهما مناوى ولا يجد له فيهما
مداني واستوهب له حياة لا تتنغص فيها وقدرة لا شاذ عنها وملكا لا بؤس فيه وعاقبة تديم
له البقاء وتكثر له النماء وعزا يؤمنه من انقلاب رعيه او هجوم بليه فانه مولى الخير
ودافع الشر فأمر الملك فحشى فمه بثمين الجواهر ورفيعه ولم يدفع حداثة سنه مع نبيل كلامه
ان استوزره وقلده خيره وشره فكان أول داخل وآخر خارج (وقال) عمر بن عبد العزيز ما لله
على العاقل نعمة بعد الاسلام أفضل من مباينة هذه السفلة بالفهم والعقل ولو لم يكن هذا
ما عرف الله تعالى الا بالجهل ألا ترى ان الله تعالى خاطب أولى النهى وذوى الالباب وذوى
البصائر ويجب على العلية ان يحمدوا الله تعالى على مباينتهم هذه السفلة بالعقول والافهام
كما يحمدونه على جميع النعم (وقيل) لمروان بن محمد وهو آخر ملوك بنى أمية ما الذى أصارك الى
هذا قال الاستبداد برأيي لما كثرت على كتب نصر بن سيار ان أمده بالاموال والرجال قلت في
نفسى هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال والجند بما يظهر لى من فساد الدولة قبله وهيهات

أن ينقض على خراسان فانتقضت دولته من خراسان وقال الواقدي قال الفضل بن سهل لما
دعي للمأمون في كور خراسان بالخلافة جاءتنا هدايا الملوك سرورا بمكانه من الخلافة ووجه ملك
كابلستان شيخا يقال له ذوبان وكتب يذكر انه قد وجه بهدية ليس في الارض اسنى منها ولا
ارفع ولا انبل ولا افخر منها فعجب المأمون وقال سل الشيخ ما معه فسألته فقال ما معي شئ أكثر
من علمي قلت وأي شئ علمك قال رأي ينفع وتدبير يقطع ودلالة تجمع قال فسر المأمون
بذلك فأمر بانزاله واكرامه وكتمان أمره فلما اجمع على التوجه الى العراق لقتال أخيه
قال لذوبان ماترى في التوجه الى العراق قال رأي وثيق وحزم مصيب وملك قريب فالسير
ماض فاقض ما أنت قاض قال له فمن نوجه قال الفتى الاعور الطاهر الاطهر يسير ولا يعثر
قوي مرهوب مقاتل غير مغلوب قال فكم نوجه من الجند قال أربعة آلاف صوارم
الاسياف لا ينتقصون العدد ولا يحتاجون الى المدد فسر المأمون بذلك ووجه بطاهر
ابن الحسين قال وفي أي وقت يخرج قال مع طلوع الفجر يجمع لك الامر ويصير الى النصر
نصر سريع وقتل ذريع وتفريق تلك الجموع والنصر له لا عليه ثم يرجع الامر اليك واليه
فظفر طاهر وكان له النصر وقتل علي ابن عيسى وزير الامين واستولى على عسكره وحاز
أمواله فأمر الملك لذوبان بمائة ألف درهم فلم يقبلها وقال أيها الملك ان ملكي لم يوجهني اليك
لانقصك مالك فلا تجعل ردي لنعمتك تسخطا وساقبل ما في هذا المال ويزيد عليه قال
المأمون وما هو قال كتاب يوجد بالعراق فيه مكارم الاخلاق وعلوم الآفاق من كتب
عظيم الفرس فيه شفاء النفس من صنوف الآداب بما ليس في كتاب عند عاقل
لبيب ولا فطن أريب يوجد تحت ايوان بالمدائن فقاس بالذرعان في وسط الايوان لا زيادة
ولا نقصان فاحفر المدر واقلع الحجر فاذا وصلت الى الساجه فاقلعها تجد الحاجة ولا تلزم
لقبرها فيلزمك غب ضرها فارسل المأمون الى ايوان كسرى فحفروا في وسطه فوجدوا
صندوقا صغيرا من زجاج عليه قفل منه فحمل الى المأمون فقال لذوبان هذا بغيتك قال
نعم أيها الملك قال خذها وانصرف فتكلم بلسانه ونفخ في القفل فانفتح فاخرج منه خرقة
ديباج فنشرها فسقط منها أوراق فعدها مائة ورقة ولم يكن في الصندوق شئ غيرها فأخذ
الاوراق وانصرف الى منزله قال الفضل بن سهل فجئته فسألته فقال هذا كتاب جاويدان
خرد تأليف كنجور وزير ملك ايرانشهر فطلبت منه شيئا فدفع الى ورقات منه وترجمها الى
الخضر بن علي ثم اخبرت المأمون فقال احمل الى الورقات فحملتها اليه فقرأها فقال والله هذا
الكلام لا ما نحن فيه من لي السنتنا

(فصل) * من نوادر بزرجمهر حكيم الفرس نصحني النصحاء ووعظني الوعظاء شفقة ونصيحة
وتأديبا فلم يعظني احد مثل شيبي ولا نصحني مثل فكري ولقد استضأت بنور الشمس وضوء
القمر فلم أستضئ بشئ أضوأ من نور قلبي وكنت عند الاحرار والعبيد فلم يملكني أحد ولا
قهرني غير هواي وعاداني الاعداء فلم أر أعدى لي من نفسي اذا جهلت واحترزت لنفسي
بنفسي من الخلق كلهم حذرا عليها وشفقة فوجدتها أشر الانفس لنفسها ورأيت انه لا يأتيها
الفساد الا من قبلها وزحمني المضايق فلم يزحمني مثل الخلق السوء ووقعت من أبعد البعد

وأطول الطول فلم أقع فى شئ أضر علىّ من لسانى ومشيت على الجمر ووطئت على الرمضاء فلم أرنارا أحر من غضبى اذا تمكن منى وطالبنى الطلاب فلم يدركنى مدرك مثل انسانى ونظرت ما الداء القاتل ومن أين نالنى فوجدته من معصية ربى سبحانه والتمست الراحة لنفسى فلم أجد شيأ أروح لها من تركها ما لا يعنيها وركبت البحار ورأيت الاهوال فلم أر هولا مثل الوقوف على سلطان جائر وتوحشت فى البرية والجبال فلم أر مثل القرين السوء وعالجت السباع والضباع والذئاب وعاشرتها وعاشرتنى وغلبتها فغلبنى صاحب الخلق السوء وأكلت الطيب وشربت المسكر وعانقت الحسان فلم أجد شيأ ألذ من العافية والامن وتوسطت الشياطين والجبال والسباع فلم أجزع الا من الانسان السوء وأكلت الصبر وشربت المر فلم أر شيأ أمر من الفقر وشهدت الحروب وتعبية الجيوش وباشرت السيوف وصارعت الاقران فلم أر قرنا أغلب من المرأة السوء وعالجت الحديد ونقلت الصخر فلم أر حملا أثقل من الدين ونظرت فيما يذل العزيز ويكسر القوى ويضع الشريف فلم أر أذل من ذى فاقة وحاجة ورشقت بالنشاب ورجمت بالحجارة فلم أر أنفذ من الكلام السوء يخرج من فم مطالب بحق وعرفت السجن وشددت فى الوثاق وضربت بعمد الحديد فلم يهدنى مثل ما هدنى الغم والهم والحزن واصطنعت الاخوان وانتخبت الاقوام للعدة والشدة والنائبة فلم أر شيأ أخير من التكرم عندهم وطلبت الغنى من وجوهه فلم أر أغنى من القنوع وتصدقت بالذخائر فلم أر صدقة أنفع من رد ذى ضلالة الى هدى ورأيت الوحدة والغربة والمذلة فلم أر أذل من مقاساة الجار السوء وشهدت البنيان لاعزبه واذكر فلم أر شرفا أرفع من اصطناع المعروف ولبست الكساء الفاخرة فلم ألبس شيأ مثل الصلاح وطلبت أحسن الاشياء عند الناس فلم أجد شيأ أحسن من حسن الخلق وسررت بعطايا الملوك وحبائهم فلم أسر بشئ أكثر من الخلاص منهم

(فصل) ومن حكم شاناق السندى من كتابه الذى سماه منتحل الجواهر للملك ابن قماتص الهندى يا أيها الملك اتق عثرات الزمان واخش تسلط الايام ولوم غلبة الدهر واعلم أن للاعمال جزاء فاتق العواقب وللايام غيرات فكن على حذر وللاقدار غيبات فاستعد لها وللزمان منقلب فاحذر دولته لئيم الكرة خف سطوته سريع الغرة فلا تأمن دولته واعلم ان من لم يداو نفسه من سقام الآثام فى أيام حياته فما أبعده من الشفاء فى دار لا دواء لها ومن أذل حواسه واستعبدها فيما يقدم من خير لنفسه بان فضله وظهر نبله ومن لم يضبط نفسه وهى واحدة لم يضبط حواسه وهى خمس واذا لم يضبط حواسه مع قلتها وذلتها صعب عليه ضبط الاعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم فكانت عامة الرعية فى قواصى البلاد واطراف المملكة أبعد من الضبط فليبدأ الملك بسلطانه على نفسه فليس من عدو أحق ان يبدأ بالقهر من نفسه ثم يشرع فى قهر حواسه الخمس لان قوة الواحدة منهن دون صواحبها قد تأبى على النفس القوية الحذرة فكيف اذا اجتمعت خمس أنفس على واحدة واعلم ان لكل واحدة منهن شرة ليست للاخرى فميزها تسلم من شرها وانما يهلك الحيوان بالشهوات ألا ترى أن الفراش يكره الشمس فيسكن من حرها ويعجبه ضياء النار فيدنو منها فتحرقه والظبى على نفار قلبه وشدة حرصه ينصت للسماع المونق الملهى فيمكن القانص من نفسه وذباب الورد

المتبع لطيب الاراييح يطلب ما يقطر من اذن الفيل لطيب رائحته فانه فى طيب رائحة المسك فيلهيه طيب الرائحة عن الاحتراس من تحريك الفيل اذنه فيتولج فى أصل اذنه فتقع عليه ضربة الاذن فتقتله والسمك فى البحر يحمله لذة الطعم ان يتناوله فتحصل الصنارة فى جوفه فيكون فيه حتفه (وذكر الحكيم) ان خصالا معروفة قتلت بالافراط فيها ملوكا معروفين فالصيد مات فيه قيده الملك والافراط فى العهار مات منه سبب الملك والافراط فى المكرمات فيه حرق الملك وشدة الحرص مات منه مهريق الملك والغضب أخر حتى الملك والطمع واثل والفرح واطمات والانفة بوليس والتوانى زمير بهر واخلق بخصال أهلكت ملوكا ان يجتنبها الملوك * واعلم ان الرعية تستطى الى الملك العادل استطاء أهل الجدب الى الغيث و يتعشون بطلعته عليهم كاتعاش النبات بما يناله من القطر بل الرعية بالملك العادل أتم انتعاما منها بالغيث لان لمنفعة الغيث وقتا معلوما وعدل الملك على الدوام لا يتعين له وقت ويحسن بالملك لمن يشبه تصاريف تدبيره بطباع ثمانية أشياء وهى الغيث والشمس والقمر والريح والنار والارض والماء والموت فاما شبهه الغيث فتواتره فى أربعة أشهر من السنة ومنفعته لجميع السنة كذلك ينبغى للملك ان يعطى جنده وأعوانه فى الاربعة أشهر تقديرا لتتمة السنة فيجعل رفيعهم ووضيعهم فى الحق الذى يستوجبونه بمنزلة كما يسوى المطر بين كل أكمة مشرفة وغائط مستفل ويغمر كلا من مائه بقدر حجمه ثم يستجبى الملك فى الثمانية الاشهر حقوقه من غلاتهم وخراجهم كما تستخن الشمس بحرها وشدة فعلها انداوة الغيث والامطار فى الاربعة الاشهر وأما شبهه الريح فان الريح لطيفة المداخل تسرح فى جميع المنافذ حتى لا يفوتها مكان كذلك الملك ينبغى أن تولج قلوب الناس بجواسيسه وعيونه لا يختشون عنه بشئ حتى يعرف ما يأتمرون به فى بيوتهم وأسواقهم وكالقمر اذا استهل أيامه فأضاء واعتدل نوره على الخلق وسر الناس بضوئه ينبغى أن يكون الملك بهجته وزينته واشراقه فى مجلسه وايناسه رعيته ببشره فلا يخص شر يقادون وضيع بعدله وكالارض فى كتمان السر والاحتمال والصبر والامانة وكالنار على أهل الذعارة والفساد وكعاقبة الموت فى الثواب والعقاب يكون ثوابه لا يقصر عن اقامة حد ولا يتجاوزه وكالماء فى لينه لمن لاينه وهدمه واقتلاعه عظيم الشجر لمن حاربه * واعلم أنه قد يكتنف السلطان من شرار الناس والاعوان على الحاجة اليهم من يستبشع ويستكره كالحيات تكتنف بالصندل فيقتلها الصندل بطيب رائحته وبرده ويبسه وينتفع الصندل بها اذلا يقرب منه من يريد أن يقطعه * لكن فيك مع تلطفك تشديد البلاء فلا يتجرأ عليك فان القمر يستنار بضوئه ويظهر له لكن الشمس يستظل من حرها ويسكن اليها وقد قالت العرب فى مثل هذا لا تكن حلوا فتسترط ولا مرا فتلفظ اجعل لكل طبقة من أعدائك اشباههم من أعوانك يسوسونهم فانهم كالماء فى الاذن لا حيلة فى اخراجه الا بأرفق من الماء الذى هو من جنسه * اذا عاديت رجلا فلا تعاد جنسه واستبق من دونه أحدا فعسى تنتفع به فان السيف القاتل من جنس الدرع الواقى ولا تطمعن فى الكذوب والمطبوع على الشر أن تعطفهما بالاحسان فانهما كالقرد كلما من باطعام الحلاوة والدسم ازداد وجهه قبحا * قد يرد الواحد كيد الجميع اذا كان عاقلا كما يرد الظل حر شعاع الشمس اذا كان وافيا غايته

ارمى الناس ان يقتل بسهمه واحدا لكن رمية عاقل ذهن تقتل الجيش بأمره والملك الشريف العاقل لا يقدح فيه قدح أهل البغى من انقطع اليه ولزمه كان كالجوهر المضىء بنوره لا تطفئه عصوف الرياح من كان قابلا لما يورد عليه فى اصغائه الى كل قول يسمعه كان كالسراج يميل به كل ريح لينة ثم لا يلبث ان عصفت الرياح أن يطفأ * تدبير الملك الحازم فى سلطانه كتعاهد صاحب البستان بستانه يخرج ما حل عيدانه وشوك شجره فيحيط به على ثمره وزرعه ليقيه من الشر والفساد كما ينتخب الملك أهل الشكيمة والشوكة فيجعلهم فى أقاصيه وحدوده ردأ للمملكة * وليكن الملك احذر ما يكون آمن ما يكون (قلت) وقد صدق الشاعر

أآمنتم ريب المنون فنمتم * رب خوف مكمن فى أمان

قال ألا ترى ان بهرشان الملك أنامت المرأة على فراشه رجلا فلما رام فراشه وثب عليه فقتله وباهراج الملك قتله بخلخال مسموم ودروف الملك قتلته امرأته بمدية خبأتها فى عقاصها واعلم ان العدو قد علم منك مواضع الحذر وحالات الامن وانما ترصده لك فى حالات الأمن والمواضع التى تظن العدو لا يكمن فيها فكن أحذر ما يكون فيها وسائر حكم هذا الباب قد قدمتها فى تراجم كتابنا

(فصل) قال غيره لا ينبغى الملك ان يكون له أيام معلومة يظهر فيها فان فى ذلك خصالا مذمومة منها انه قد يعوق عن ذلك اليوم عائق بهم أو بعض كسل أو لذة مغتنمة فيلزمه الخروج على كره ومنها انه اذا تخلف عن الظهور فى ذلك اليوم لامر ما تطاولت الاعناق من الرعية وكثر كلامها وقالوا مرض أو مات أو ما بشبه آفة فيكسب العدو جرأة وسرورا ويكسب الولى حزنا وحبسا ومنها انه قد يواعد عدوه ليوم يلتقيان فيه فلا يتم له ذلك * ولا ينبغى ان يكون الملك كثير التصرف عند فساد الزمان وخبث الرعية وعن هذا قالت الحكماء اذا كان الجمل كثير القفز كان نصيب الذئب

(فصل) من نوادر كلام العرب من حكم اكثم بن صيفى وهذا رجل كان له عقل وعلم ومعرفة وتجربة وقد علق الناس عنه حكما لطيفة والفوائد سائر التصانيف فمن حكمه قال من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء أفضل من السؤال ركوب الاهوال من حسد الناس بدأ بمضرة نفسه العديم من احتاج الى لئيم من لم يعتبر فقد خسر ما كل عثرة تقال ولا كل فرصة تنال لا وفاء لمن ليس له حياء قد يشهر السلاح فى بعض المزاح من وفى بالعهد فاز بالحمد الموت يدنو والمرء يلهو طول الغضب يورث الوصب رب عتق شر من رق من امتنع وما احتاج اليه يوما ما الكذب بهت والحلف مقت من لم يكف اذاه اتى ما ساه الحر يتقاضى لك من نفسه واللئيم يستحسن تسويفه وحبسه ليس بانسان من ليس له اخوان أنت مزري بنفسك ان صحبت من هو دونك عليك بالمجاملة لمن لا تدوم له مواصلة فى الاسفار يبدو الاختبار أفسد كل حسب من ليس له أدب أفضل الفعال صيانة العرض بالمال ليس من حادث الجهول بذى معقول ليس للملهف مثل الرد من جالس الجهال فليستعد لقيل وقال ما جلا عنك النسيان مثل البيان ولا نفى عنك البهتان مثل البرهان لم ينج من الموت غنى لماله ولا فقير لاقلاله اذا أردت طرد الحر فسمه الهوان كثرة العلل آية البخل

كفر النعمة لؤم وصحبة الاحمق شؤم ان من الكرم لين الشيم اياك والخديعة فانها خلق
لئيم المحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة رب سباب قد جلبه العتاب الصدود آفة
المقت سبب الحرمان التوانى من سأل فوق قدره استحق الحرمان ليس كل طالب يصيب
ولا كل غائب يؤوب ان من الفساد اضاعة الزاد من حلم ساد ومن تفهم ازداد لا ترغب
فيمن يزهد فيك رب بعيد أقرب من قريب المزاح يورث الضغائن سل عن الرفيق قبل
الطريق وعن الجار قبل الدار غناك خير من معونة غيرك من أجمل السير ادرك المقبل
استر عورة أخيك لما يعلم فيك لا تكثر من المزاح فتذهب هيبتك ولا من الضحك فيستخف
بك من أكثر من شئ عرف به كفى بالحلم ناصرا المنة تهدم الصنيعة نعم الشئ الهدية بين
يدى الحاجة ربما نصح غير الناصح وربما غش المنتصح الكلام فيما يعنيك خير من السكوت
والسكوت عما يضرك خير من الكلام لا يغرنك من جاهل قرابة ولا جوار ولا الف فان
أقرب ما تكون من النار قربا أقرب ما تكون منها تلهبا ارفض أهل الدناءة تلزمك المهابة
دع مجالسة أهل الريب على كل حال فانك ان يسلم دينك لم تسلم من سوء المقال الكرم شكر
البلاء واللؤم كفر النعمة أكرم الصنائع سلامة الصدور ان تسلم من الناس حتى يسلوا منك
من عدم الايمان لم تزده الرواية فقها الحزن مفسدة للعقل ومقطعة للحيلة كثرة النوم اماتة
للقلب شدة الحذر تدل على ضعف اليقين محادثة الحمقى والسفهاء تورث. والحق الدليل
على الحق اعجاب المرء بعقله من لم يسمع الحديث فارفع عنه مؤنته من حدث من لا يفقه كمن
قدم مائدة لاهل القبور من قطع عليك الحديث فلا تحدثه فليس بصاحب أدب من عرف
بالصدق جاز كذبه ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه من وصل من يحسده قوى عدوه وقصر
بنفسه اغتفر زلة صديقك من غضب من غير شئ رضى من لا شئ من غضب على من لا يقدر
عليه طال حزنه الرجل عبد هواه لولا جهل الجاهل ما عرف عقل العاقل من خاف ربه
كف ظلمه كسل الفقير هلاكه شح الغنى فضيحته من لم يتورع فى كلامه اظهر فجوره كل شئ
لا يوافق الاحمق فاعلم انه صواب اذا غابتك امرأتك فجاهدها فانها عدوك من لم يعرف الخير
من الشر فالحقه بالبهائم من طلب ما عند البخيل مات جوعا جار الرجل الجواد كمجاور
البحر لا يخاف العطش وجار البخيل فى المفازة هالك اذا لم تنتفع بمصادقة الاحياء فأت أهل
القبور من عادى من فوقه ابغضه من تحته الرزق مقسوم والحريص محروم من كثر كلامه
على المائدة غش بطنه وابغضه أصحابه العلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة الجاهل
يستطعم الشر والعاقل يمنع نفسه من الشر من لم يرتح للثناء فليس له نصيب فى المروأة اذا كان
لك جار أو صديق لا تنتفع به فصور مثله فى الحائط فانه أزين للحائط وأخف للمؤنة العاقل
يرغب فى الادب والجاهل يهرب منه العاقل اذا فاته الادب لزم الصمت لا تستنطق من
تكنفه العاقل يتهم رأيه فى نفسه والجاهل يقيم على جهله من لم يملكه عقله لم يملك نفسه
من أظهر محاسنه ودفن مساويه كمل عقله من غلب هواه عقله افتضح من استشاره عدوه فى
صديقه أمر بتطيعته مصادقة الكرام غنيمة ومصادقة اللئام ندامة لا تدخل على صديقك
التهمة فيرجع لك عن النصيحة اذا انقطع رجاؤك عن صديقك فالحقه بعدوك من طلب

مرضاة الاخوان بغير شئ فاصادق أهل القبور العاقل ليس في مصادقته مخادعة رأس مال
الاحمق الخديعة وفائدتها الغضب والحليم رأس ماله الصمت وفائدته الحلم اذا جهل عليك
الاحمق فالبس له سلاح الرفق واللطف صديق كل امرئ عقله وعدو كل امرئ حمقه من أنزل
نفسه عاقلا انزله الناس جاهلا من قنع بكذب الثناء أظهر للناس رقاعته السكوت عن
الاحمق جوابه السكوت يزين الاحمق والكلام يشينه من استطال عليك بلبسه وتحلى بفضله
فلا أكثر الله في الناس مثله الجواد محبب والبخيل مبغض اذا حلت البخيل مؤنة أبدى لك
الحرمان والعداوة البخيل يمنع ماعنده ويبخل على الجواد بجوده من طلب من البخيل حاجة
فهو شر منه من بذل لبخيل صلته ورفع عنه مؤنته دامت له مودته ضيف البخيل آمن من
التخمة من طلب من لئيم حاجة كمن طلب السمك في المفازة عدة الكريم نقد وعدة اللئيم
تسويف الكريم يواسي اخوانه في دولته واللئيم يقطعهم لاتخضع للئيم فانه لايعطيك اغما
الصديق الذي يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند البلية ويحفظك عند المغيب ويتفقدك
عند الرجاء اذا صادقت الوزير فلا تخش الامير من لم ينصحك في الصداقة فعاده من غشك
في العداوة فلا تامنه من كان الناس عنده سواء لم يكن له أصدقاء من صادق الاخوان بالمكر
كافؤه بالغدر من لم يواس الاخوان في دولته خذل عند عدمه اياك أن تبغي مودة من يحسدك
فانه لا يقبل اخاءك من حسدك على علمك لم يسمع حديثك الحاسد يفرح بزلتك ويعيب
صوابك اذا رأيت من يحسدك ويسرك ان تسلم منه فعم عليه أمورك من صبر على مودة الكاذب
فهو مثله وكل شئ شئ ومودة الكاذب لاشئ من بدأك بجهله فكافئه بحلمك نعمه أول المروأة
طلاقة الوجه والثانية التودد والثالثة الفصاحة الفاجر لايبالي ماقال والورع يتعاهد
كلامه من شغل مشغولا فقد أظهر ثقله من صبر على شغل سوء فقد نظر الى محنة عينه من لم
يغلب الحزن بالصبر طال غمه من استطال على الناس بغير سلطان فليصبر على الذل والهوان
لاتحقر الفقير السرى ولا ترغب في الغنى الدنى من تشبه بالسراة وغلبت عليه الدناءة فلا
تكرمه من أغضبته أنكرته من أغنيته أعطفته من تعرض لصاحب الدولة انقلب بهزيمة
من صانع عياله لم يحتشم من طلب حاجته من صاحب الكتاب ملوه ومن عاداهم أنكروه من
شح عليك بأنفه وطمح ببصره ولم يدخل عليك فضله فليهن عليك سلبه السفه يقطع مودة
لم تزل ويكتسب عداوة لم تكن حمل المروأة ثقيل من سالم الناس غنم خذلان الجار لؤم
ورجال البلاء قليل احفظ اخوانك تذل اعداءك ما أجمل الصبر على مالابد لك منه المحروم
من طال نصبه وكان لغيره نشبه لاقوى أقوى ممن قوى على نفسه ولاعاجز أعجز ممن عجز عنها
الخير في أهله غريب ما أضعف قوة من يغالب من لايغلب

(الباب الرابع والستون مشتمل على حكم منثورة)

اعلم أيها المريد أن الله تعالى يمتحن أنبياءه وأصفياءه باعدائه ويضطر أولياءه واحباءه الى أعدائه
رفعة وتقريبا لانبيائه وتمحيصا لهفوات أوليائه وذخرا لهم عنده وزلفى لديه تعظيما لاقدارهم
وتشريفا لمنازلهم وترفيعا لدرجاتهم قال الله سبحانه وتعالى تعزية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم
لعظيم ما كان يلقاه من سطوات أعدائه وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن

يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين يا محمد لا تستوحش منا ولا تتهمنا فى سيرتنا فيمن نحبه ويحبنا فالبلاء على وجهين أحدهما الذنب والآخر رفع درجة وتوفير أجر ولذلك كان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل فالبلاء بلاآن بلاء رحمة لتضعيف درجة وتمحيص سيئة وبلوغ فضيلة وعلو منزلة وبلاء عقوبة بلانتهاك حرمة واقتراف معصية لن تخلو المكاره أن تكون لحادث رحمة فلا رغبة عما أنعم الله به منها أو لسيئة عن اضاعة فلا غنى عن زاجرعنها فلاى ذلك كان حلوا بما عظمت به المنة ووجبت لله به النعمة (وكان جعفر بن محمد) رضى الله عنه اذا وقع فى شئ يكرهه يقول اللهم اجعله أدبا ولا تجعله غضبا * وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم لو كان المؤمن فى رأس جبل لقيض الله له من يؤذيه يا من ضاق صدره وحرج قلبه وساء خلقه من عدو أقلقه وحاسد حسده طب نفسا وقر عينا وانعم عيشا بشهادة الرسول لك بالايمان وعدوك بالنفاق بخ بخ ان عقلته أمالك فى الانبياء اسوة أمالك فى الصالحين قدوة فلولم نلق الله عز وجل من الحسنات الا بما افترقناه اختيارا للقينا الله تعالى فقراء من الحسنات ثقلاء من السيئات قال الشاعر قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت * ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

قال بعض الحكماء الذى رأينا مما نحب فيما نكره أكثر مما رأينا مما نحب فيما نحب * وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ما أهمنى ذنب امهلت بعده حتى أصلى ركعتين * السجون قبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء وأسعد الناس من كان القضاء له مساعدا وكان لمساعدته أهلا غلب على الكريم من بدر اليه الشماتة لوم عوام الناس عدة لخواصهم مجيء القدر يسبق الحذر من سخر من شئ حاق به من عير بشئ ابتلى به الحلوم ب المصائب مذاكرة الرجال تلقيح لالبابها أقل ما فى طلب الحيلة الخروج من الاستكانة جانى العقوبة على نفسه أعظم جرما عليها من المعاقب له عليها قرابة بغير منفعة بلية عظيمة النعمة متعة كفى لك أدبا لنفسك ما كرهته من غيرك الحمية شؤبوب الجهل الانفة قوام السفه قل أنف لم يعقب ذلا الغادر كمين لا يؤمن من ازدحام الكلام ضلة الصواب عجلوا القرى قبل سوء الظن والحاق السمة أعجب ما فى هذا الانسان قلبه وله موادمن الحكمة واضداد من خلافها فان سنح له الرجاء اذله المطمع وان هاج به الطامع أهلكه الحرص وان ملكه اليأس قتله الاسف وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ وان اسعد بالرضا نسى التحفظ وان ناله الخوف شغله الحذر وان اتسع له الامن استلبته الغرة وان حدثت له نعمة أخذته العزة وان امتحن بمصيبة فضحه الجزع وان أفاد مالا أطغاه الغنى وان عضته فاقة أشغله البلا وان اجهده الجوع قعد به الضعف وان أفرط فى الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضر وكل افراط له مفسد أفضل القول بديهة امرئ وردت فى مقام خوف أشد الناس غما الذى يرى غيره فى الموضع الذى هو فيه أولا ما أخذ الله طاقة أحد الا رفع عنه طاعته من العجب ان لا ترضى عن ابتغى رضاك وأعجب من ذلك ان تسخط عليه زئير الاسد يشبه صولته علامة العلم العمل بالاعراض عند المنادهة لا تعادوا حتى تروا لا تفخروا حتى تفعلوا لا تأنفوا حتى تطلوا أوجه الشفعاء براءة الساحة من لزم الصحة والاستقامة لزمته الغبطة والسلامة قصص الاولين مواعظ الآخرين البحث

قوله بالاعراض عند المنادهة هكذا فى النسخة التى بأيدينا ولم يظهر معناه فليحرر

يونتج الحق كما يورى النار القدح ليس مع الحسد سرور ولا مع الحرص راحة ولا مع السخط
غناء (قال جعفر بن محمد الصادق) عجبت لمن بلى بأربع كيف يغفل عن أربع لمن ابتلى بالضر
كيف يذهب عنه أن يقول مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين والله تعالى يقول فاستجبنا له
فكشفنا ما به من ضر وعجبت لمن بلى بالغم كيف يذهب عنه ان يقول لا اله الا أنت سبحانك انى
كنت من الظالمين والله تعالى يقول فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين وعجبت
لمن خاف شيأ كيف يذهب عنه ان يقول حسبى الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول فانقلبوا
بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وعجبت لمن مكر به كيف يذهب عنه أن يقول وأفوض
أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد والله تعالى يقول فوقاه الله سيآت ما مكروا وعجبت لمن أنعم
عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب عنه أن يقول ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة
الا بالله كذا سنة الله سبحانه فيمن صدق فى التجائه اليه ولم يتوكل فى مهماته الا عليه * اليمين
مأثمة أو مندمة ألذ الموارد منجاة من متالفة أو قدوم غائب بعد أن جاءت باليأس منه الركائب
وأشر المصادر ظفر على قنوط الطبيعة مخالفة للمروءة فاصبر لحق وجب عليك وان خالف هواك
بهاء المجلس الشريف بالرجل الفاضل اليقين راحة وروح العمل المأخذ بالرجل المدبر كبهاء
الياقوت واللؤلؤ فى تيجان الملوك ما أنور الهدى ما أظلم العمى ما أكرم التقى ما أخدع
الهوى ما أسرع البلا ما أجلد الصبا الجود أن يهضم الروح حظ الجسد والاسراف ان
يهضم الجسد حظ الروح والعدل ان يعطى كل واحد منهما حظه والشح أن تكف حظوظهما
عنهما عدو يخاف الله فيما تكره خير من صديق لا يخافه فيما تحب من العجب أن نطلب فى
صحة كل علم ما ينفعنا ونكل العلم الى الله تعالى من غير بحث عن صحته لا يرعك الباطل عما ترى
به ولكن احذر ان يصدع عليك بالحق فيشهد عليك عندك وجهك من بطل رشاؤه بطل متحه
الراغب فقير بقدر رغبته الحق يعطى ويمنع تجاوز عن ذنوب الناس لتحتج عليهم واجتنب
الذنوب لتقل حجتهم عليك الفراغ الفاضل عن الحمام مفسدة الجبة احدى العلتين القرق
ينسى الجنة حال العلية فى كلامك وسو بينهم وبين السفلة فى أحكامك موت فى عز خير من
حياة فى ذل الاكفاء من كل نمط متباغضون ما ضاع امرؤ عرف قدر نفسه الدعة الهنية
تكون بعد انقضاء العمل لن يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه خير الناس من تواضع عن رفعة
وعفا عن قدرة الحاسد يظهر وده فى كلامه وبغضه فى افعاله قاسم الصديق ومعنى العدو
الرياء يفسد العلانية والعجب يفسد عمل السريرة اذا كثرت القدرة قلت الشهوة من عرف
قدره كفاك نفسه كفى بالظفر شفيعا للمذنب الى الحليم لسان الجاهل دليل حتفه لا ظفر مع
بغى ولا صحة مع نهم ولا ثناء مع كبر ولا صداقة مع خب من لم يعرف قدره فاكفه نفسك أحق
ما رد ما خالف شهادة العقل قطع ظهرى وافسد الدين رجلان جاهل ناسك وعالم فاجر هذا يدعو
الناس الى جهله بنسكه وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه من قوى هواه ضعف حزمه من ظهر
غيظه قل كيده كفى بالظلم طاردا للمنفعة وداعيا للنقمة من قبل صلتك فقد باعك مروءته
الهدية تفقأ عين الحكيم عفو الرأى خير من استكراه الفكر من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ومن
حمد الله فقد شكر ما اكتسب بمثل الكبر من استغنى بالله افتقر الناس اليه التقصير بخذل

عن الصواب الافراط يقحمك في الخطا ثلاث خصال ما اجتمعن الا في كريم حسن المحضر
واحتمال الزلة وقلة الملالة كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا لذوي الالباب ما جربوا التهاون
بالمطلوب أول اسباب حرمانه الشبه مظلة لن يضيع امر وصواب القول حتى يضيع صواب
العمل خير الامور ما سر عاجله وحسنت عاقبته لا شرف مع سوء أدب ولا بر مع شح ولا اجتناب
محرم مع حرص ولا محبة مع زهو باجالة الفكر يخرج الرأي المصيب وبحسن التأني تدرك
المطالب وبالنصفة يكثر المتواصلون الفاحشة عار الابد وعقوبة غد الشماتة تعقب الندامة
من سخر ابتلي قال الله تعالى ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا فقد المتفضلون هلك
المتجملون رب صبابة غرست من لحظة وحرب جنيت من لفظة ما شاهد على غائب بادل من
طرف على قلب شر المال ما لا ينفق منه أفضل المال ما صين به العرض وبالافضال تشرف
الاقدار الذي يكون سببا لفساد نفسه أذل ممن يفسده عدوه أو دهره لا تعدن وديعة مالا
الشهوة رق الحريص كاتب يعبر على الانسان اللسان وعلى المودة العينان لا شرف أعلى من
الاسلام ولا كرم أغلى من التقوى ولا شفيع أعز من التوبة أولى الناس بامر من حافظ عليه
الخير موضوع لمن أراده موفور لمن عمل لله الرغبة مفتاح الطلب ومطية الحسرة الحرص داع
الى الحرمان التنفل بالحسنة ينفي السيئة المكافأة بالسيئة دخول فيها البغي سائق الى الحين
اصلاح الرعية انفع من كثرة الجنود حق المذموم التأديب وحق المرحوم المعونة من الجهل
والجفاء اظهار الفرح عند المحزون المحزون يحقد على الفرح ويشكر للمكتئب من ظل
السلامة تدب أفاعي الآفات أعظم الناس قدرا من لم يجعل الدنيا لنفسه قدرا ما أحدث
محدث بدعة الا ترك بها سنة عزائم الامور خيارها ومحدثاتها اشرارها الملك يكتسب من انفاقه
والعامة تنفق من تكسبها من أفنى عمره في جمع المال مخافة العدم فقد أسلم نفسه للعدم
(قال الشاعر) ومن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر
من لم يقدر على جمع الفضائل فليتكن فضائله ترك الرذائل اذا لم تكن ملحا تصلح فلا تكن ذبابا
تفسد استصلاح بعض العدو أفضل من اهلاكه من سعادة المرء ان يطول عمره ويرى في عدوه
ما يسره خير الكتب ما اذا أعاد قارئه النظر فيه زاد حسنه أو وقف على خبره أثقل الاحمال
من اتسعت مروءته وقلت مقدرته استحي من الله بقدر قربه منك وأطعه بقدر حاجتك
اليه وخفه بقدر قدرته عليك واعصه بقدر صبرك على النار واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها
واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها الملك ينفق ليكتسب والعامة تكتسب لتنفق الطاعة بقدر
الفاقة يفحش زوال النعم اذا زال معها التجمل أولى الامور بك أوجبها عليك الدنيا العافية
والشباب الصحة اذا أقبل الامر أسر به واذا أدبر صرح اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية
واذا جار لم يملك منهم الا الرياء والتصنع الصدقة من سعة وابدأ بمن تعول اذا أضرت النوافل
بالفرائض تركت النوافل وقدمت الفرائض قدر الرجل على قدر همته وصدقته على قدر
مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته من أطاع الواشي ضيع الصديق ومن
جعل لنفسه حظا من حسن الظن روح قلبه شر مال ما لزمك اثم مكتسبه وحرمت منفعة
انفاقه رب مغبوط بليلة قامت بواكيه في آخرها لا ترج خير من لا يرجو خيرك ولا تأمن جانب

من لا يأمن جانبك تارك الطلب ضجرا ارجى للعودة من تاركه خورا ثمرات الشهوات المخازي
الخصومة تمرض القلب أعم الاشياء نفعا فقد الاشرار من استكفى الكفاة كفى الاعداء خير
مالك ما اغناك وخير منه ما وقاك صولة الكريم سليمة ذنب أسد خير من رأس كلب بجبهة العير
يفدى حافر الفرس من استبد برأيه خفت وطأته على اعدائه انما لك من دنياك ما أصلحت به
مثواك من أمن الزمان خانه ومن تعزز عليه اهانه كما يجب ان تكون المرآة أضوأ من الناظر فيها
فكذلك يجب ان يكون المؤدب أفضل ممن يؤدب من ترك العمل بما ينبغي عومل بما لا ينبغي
ليس في الشر اسوة ولا في الخطا قدوة لن تكون لله ناصحا حتى تحب عدوك اذا أطاع الله في
عداوتك على عداوته وتقلع عما عادك عليه وتبغض وليك اذا عصى الله في موالاتك وتنزع
عما والاك عليه لا تكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان الشقي من جمع لغيره وضيق على
نفسه شر أخلاق الكريم أن يمنع خيره من كانت الآخرة رأس ماله كانت الدنيا ربحه ومن
كانت الدنيا رأس ماله كانت الآخرة خسارته أفضل العلم وقوف الرجل عند علمه أفضل المال
ما قضيت به الحقوق البدع فخاخ مخبوءة قد علقت عليها ألفاظ ظاهرة رجاء العامة أمنية على
ضلالة ورجاء الخاصة يقين على ثقة القليل من الملك كالكثير من غيره عطاء الملوك زينة وسؤاله
شرف وفي الامثال جاور بحرا أو ملكا اذا كذب السفير بطل التدبير اخبث الازمنة زمن
لا يتميز فيه الصواب لا تعطوا في الفضول ما خفتم العجز عن الحقوق الآذان اقماع تؤدي
والقلوب قوابل تعي من أحب أن يسمى داهيا لم يظهر دهاءه لا دليل اهدى من التوفيق الجلاء
البلاء من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن الحفظ قيد العلم المدارسة اذكاء للفهم
المقايسة احياء الفطن استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتألف والنصر
بالتواصل لله والرحمة للخلق استقلال الكثير تعرض للتغيير ثلاثة اشياء تدل على عقول
أربابها الكتاب يدل على عقل كاتبه والرسول يدل على عقل مرسله والهدية تدل على عقل
مهديها لم يحكم على العقول حاكم كالعبر ولم يحكمها محكم كالتجربة من عاب سفلة فقد رفعه
ومن عاب سيدا فقد وضع نفسه أحق الناس أن يؤمن على الدنيا أهل الآخرة صح من صحت
سرائره وسقم من سقمت ظواهره بالكلام يعرف فضل العقل كما بالرسول يعرف قدر المرسل
ملاك أموركم الدين وعصمتكم التقوى وزينتكم الادب وحصن أعراضكم الحلم اذا
أعطيت ما لا ترضى فارض بما أعطيت كلما ازداد الخير كثرة كان الخارج منه اشد حسرة
وبقدر السمو في الرفعة تكون وجبة الوقعة الابقاء على العمل أشد من العمل من التوقي
ترك الافراط في التوقي وتوريث الحرمة والذمام سنة في المروءة كما ان وراثة التركة فريضة
في الديانة لا تمدحن امرأ بأكثر من قدره فتكون مهينا لنفسك كذابا على غيرك لا تفرحن
بسقطة عدوك فانك لا تدري متى يحدثها الزمان بك من الجفاء الكلام في الامر الجسيم من غير
مشاورة أكثر الناس مخادعة لنفسه في أمر جسده عند الحمية وفي أمر مروءته عند الشهوة
وفي أمر دينه عند الشبهة المصائب بغتات العاقل المدبر أرجى من الاحمق المقبل أشرف
الصنائع ما لم يكن مكافأة لماض ولا رجاء لباق أرض النظير ثم كاثره وآنس الملهى ثم استمع
منه لم تكن غواية ولا هداية الا واليهما سابق وعنهما ناكص احسانك الى الحر يحرضه على

المكافأة واحسانك الى المسيء يبعثه على معاودة المسئلة ليس يحسن الاديب أن يكون
فاعلا للخير انما يحسن بأن يكون تاركا للشر من صنع معك خيرا فاضعفه له والا فلا تعجزان تكون
مثله الاشرار يتبعون مساوي الناس ويغفلون عن محاسنهم كما تتبع الذباب المواضع
النغلة من الجسد ويدع صحيحه الظرف فطنة مازجتها عبادة مع حذر وتوق فاذا خلت الفطنة
من التوقي فصاحبها لا يستمتع به أهل المروأة واذا خلت الفطنة من العبادة وقارنتها فصاحة
فصاحبها غير طيب الظرف الالفاظ التي يرتفع عنها أهل الجلالة من المخلصين في باطن الدنيا
والمترفين في ظاهر الحال (وسمعت القاضي) أبا العباس الجرجاني رحمه الله بالبصرة يقول أول
من نطق بهذه الكلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك انه أتي بسارق فقال له أسرقت قل لا
فقال الرجل لا فقال عمر انك لظريف جهد البلاء الاقلال والعيال ينبغي للعالم ان يتطامن
للجاهل بقدر ما رفعه الله عليه العقل أفقر الى الحكمة والادب من الجسد الى الطعام
والشراب أعظم الناس غما من زالت نعمته وبعثت شهوته وضاقت مقدرته قلة العيال
احد اليسارين معالجة الموجود خير من انتظار المفقود من عدم الحياء عند الفضيحة
والصبر عند النصيحة سهلت عليه المعاصي كلها العالم مثل السراج من مر به اقتبس منه
من تقدم بحسن النية نصره التوفيق لن تكون لله ناصحا حتى تحب أن يكون عدوك طعما
من اذى الناس بلاسلطان كان مصيره الى الهوان مادحك بما ليس فيك مخاطب لغيرك
لجوابه وثوابه ساقطان عنك المكر والخديعة في النار الاحداث تأتي من على مأمنه يؤتى
الحذر المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمحفوظ للعدو ومن غضب على من لا يقدر على
غمه عذب نفسه واشتد غيظه اطلب ما يعنيك واترك ما لا يعنيك فان في ترك ما لا يعنيك
دركا ما يعنيك من انكا الاشياء لعدوك انك تريه انك لا تعاديه كل آت قريب الاستغناء
عن الشيء خير من الاستغناء به ومن خير خبر ان تسمع بالمطر لا تفرح بما يزول ولا غنى فيما
لا يبقى شر العيوب ما كان معينا على العيوب شر الذنوب ما كان علة للذنوب أبلغ الرسل
الكتب حاول الامور بالنصفة وأنا زعيم لك بالظفر من أراد جمالا لا تهدمه الايام فليصحب
المروأة والصيانة فهما ذروة الشرف رب امر له ما بعده من سبق اليك كان له صفوه من شروط
المروأة التغابن للضعيف المروأة ترك الريبة يكاد استقصاء القوي على الضعيف أن يكون
ظلما له يكاد استيفاء الغني من الضعيف ان يكون جورا القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق
أوله حكم وآخره علم المحادثة على الطعام تزيد في الشهوة وتذهب الحشمة وتزيل الانقباض
لن تنال ما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره ولن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب
ذهاب البصر خير من كثير من النظر لا تعد العزم عزما اذا ساق غما مع الرأي الاول الوهم
النظرة بعد النظرة تعقب لما قبلها وتزيد لما بعدها ليس مدح الرجل بما فيه تزكية انعم
الناس من كفي أمر دنياه ولم يهمه دينه الغريب من فقد اخوانه ونظراءه وان كان في وطنه
الغريب من لا صديق له الغريب الفقير الغريب الاحمق الغريب من لا ناصر له شيئان
لا يستحي العاقل منهما المرض وذو القرابة الفقير من كانت الدنيا سبب صلته فانها سبب
قطيعته فاحذر ان تجعلها وسيطا بينك وبين أحد علامة الاشرار أن من خالطهم لا يسلم منهم

ومن تركهم لا يبصروا شرهم عنه وأما الاخيار فمن خالطهم ربح عليهم ومن غالطهم ترك رشده
البر ثلاثة الصدق فى الغضب والجود فى العسر والعفو عند القدرة من عتب على الزمان
طالت معتبته ستساق الى كل ما أنت لاق اذا صحب الارتياد الرشاد وجد المراد ما أعتق
من الذم من ملكه الجهل ولا اظفر بالعزم من احتمل ما فى المعصية من الذل ولا اخرج من الدناءة
من صرف جميع عقله الى الدنيا اخو الطمع مريب المسئلة آخر المكسبة ما عد من أهل
الحجى من كان من أهل الهوى ولا كان من أهل التقى من حاد عن سبيل الهدى من ذم أدنى
الاحسان لامتناع اقصاه لم يحمد شيأ منه من دواعى الهلكة اضاعة المعرفة واعجبا لمن يبنى
داره وجسمه يهدم ولمن يبرم أمور الدنيا وأموره فى نفسه تختل (قال على رضى الله عنه) من
لم يكن معنا كان علينا والساكت اخو الراضى الكاتم للعلم كمن لا علم له أو هو غير واثق فيه
بالصواب المرء مخبوء تحت لسانه قيمة كل امرئ ما يحسن العلم بما فى المصيبة من الثواب
ينسى المصيبة شر من المصيبة سوء الخلق منها الحكمة ربيع القلوب الخصومة تكشف
العورة وتورث المعرة بلاء المؤمن من عافيته كالنار حريقها من نورها قد يكون اليأس
ادراكا اذا كان الطمع هلاكا من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل رفع الجاهل قدره عليه الذلة
مع القلة تجوع الحرة ولا تأكل بثديها موت عاجل خير من ضنى آجل الغضب عند
المناظرة منساة للحجة الاختصار أثبت للمتكلم وأفهم للسامع الكلب فى الحاضرة ينبح الضيف
ويدفع الزائر ويرد السائل والكلب فى البادية يعين الصاحب وينذر بالضيف ويدفع
السارق لا تغتر بقول الجاهل لك ان فى يدك لؤلؤة وأنت تعلم انها بعرة مثل الصلاة مع سائر
العبادات مثل السفينة مع جميع من فيها ان سلمت سلم الكل وان أصيبت أصيب الكل الحب
والبغض فتنة طلب المطمع حزم وطلب المؤيس عجز قد ينظر المنطق من يعنى به اذا فسد
الزمان كسدت الفضائل وضرت ونفقت الرذائل ونفعت وصار خوف الموسر أكثر من
خوف المعسر لقاء أهل الخير عمارة القلوب لا يصيد الكثير من لا يصيد لنفسه الواحدة بالعمل
يحسن المنطق وبالقوة يتم العمل الفكرة مرآة من أعظم الناس من قل ماله وكثر مجده
الادب مع العقل كالشجرة المثمرة والعقل بلا أدب كالرجل العقيم الماء ألين من القول
والقلب أقسى من الحجر وقد يثلم الماء الحجر اذا كثر انحداره عليه اشد الاشياء اخفاء الفاقة
أولى الناس بالرحمة عالم يجرى عليه حكم جاهل لم يغب من شهد رأيه ولم يفن من بقى أثره ولم يمت
من خلد علمه وقد سبق المثل ليس بهالك من ترك مثل مالك كما انه قبيح اذا ركبنا الخيل أن
تجرى بنا حيث أرادت دون أن نديرها كذلك قبيح أن يجرى البدن والنفس بالعقل حيث
أرادت من الشهوات أشق الامور معرفة المرء بنفسه عائب المجمع عليه محجوج ليس شئ
من البر الا ودونه عقبة من الصبر ضرب الانسان عار باق ووتر مطلوب (قيل للحكيم) هل للغضب
مادة تحسمه قال نعم أن يعلم الانسان انه ليس يجب أن يكون مطاعا أبدا ولا يجب أن يخدم أبدا
ولا يجب أن يحتمل خطؤه أبدا ولا يجب أن يصبر عليه أبدا بل قد يطيع ويخدم ويحتمل الخطا
ويصبر على النوائب فاذا عقل ذلك لم يغضب وان غضب فقليل السعيد من وعظ بغيره والشقى
من وعظ بنفسه لا تنفع كثرة العلم لمن لا يعمل كما لا يغنى ضوء الشمس عمن لا يبصر رضى بالذل

من كشف ضره بترك التورع وأزرى بنفسه من استشعر الطمع البدع تخرج بستر ها زخرفة الكلام وخدع المال الناس فى الدنيا بالاخوان وفى الآخرة بالاعمال صديق الرجل عقله وعدوه حمقه من اجتمعت اليه النعمة أدبت له الرغبة يحفظ الاحمق من كل شئ الا من نفسه لا جود الاعمال ولا صداقة الا بوفاء ولا فقه الا بورع العليل الذى يشتهى أرجى من الصحيح الذى لا يشتهى قلوب الرجال وحشية فمن تألفها أقبلت عليه اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال اتقاء الرجل احلاء سلاءلهم من لم يصلح على تدبير الله لم يصلح على تدبير نفسه والاحلام فرح وهم كاذب والعامل بها كالمعتمد على الظل الزائل الدنيا دول فما كان منها لك أتاك وما كان عليك لم تقو على دفعه العافية خير من الواقية الكريم لا يستحى من اعطاء القليل العفاف زينة الفقير الكرم حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل اختلاف كلام المرء دليل على ميل الهوى به من حق النعمة أن يرى أثرها من كان شبعه فى الطعام لم يزل جائعا ومن كان غناه فى المال لم يزل فقيرا ومن كان قصده بحوائجه الخلق لم يزل محروما ومن استعان فى أمره بغير الله لم يزل مخذولا من خاف من فوقه خافه من تحته ومن لم يخف من فوقه لم يخفه من دونه ما قصدته وما تعمل به لغيرك نوره وعليك بوره واعجبا لمن يختار الذلة فى طلب ما يفنى على العز فى طلب ما يبقى من حذرك كمن بشرك الشفيع جناح الطالب اذا أقبلت الدنيا عليك فانفق منها فانها لا تفنى واذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لا تبقى قال الشاعر

فانفق اذا أيسرت غير مقتر * وانفق على ما خلت حين تعسر
فلا الجود يفنى المال والحظ مقبل * ولا البخل يبقى المال والحظ مدبر

(ولغيره)

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة * فلن يضرها التبذير والسرف
وان تولت فاحرى ان تجود بها * فالشكر منها اذا ما أدبرت خلف

الغريب فى كل مكان مظلوم من سلك الحذار أمن العثار لم يحر راكب القصد عجبا للئيم يستعجل الفقر الذى منه هرب ويفوته الكرم الذى أتاه يطلبه فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء من يطل ذيله يكثر ويله (وقال على رضى الله عنه) ما يظل فعل الله ينطق به غثك خير من سمين غيرك ان احببت ان لا يفوتك ما تشتهى فاشته ما يمكنك من قصد داسهل ومن أسرف اوعر القصد اخو الحام شر السير الحقحقة بوئ لنفسك فى المجالس مجلسا لا يقصر بك ولا تقام عنه اقلع الشر من صدر غيرك بقطعه من صدرك وازجر المسىء باثابة المحسن لكى يرغب فى الاحسان لن يهلك من مالك ما وعظك الخلاف يهدم الرأى خير الناس لغيره خيرهم لنفسه احسان الله مكفور عند من أصبح مصرا على ذنب مستور يصير الخلق خلقا بالاجتهاد والاعتياد الحجر الغصب فى البنيان رهن على الخراب ربما شرق شارب الماء قبل ريه رب راى انفع من مال وحزم أوقى من رجال من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام من ذم الزمان لم يحمد الاخوان بتقلب الاحوال تعلم جواهر الرجال من عرف الزمان لم يحتج الى ترجمان من عرف الايام لم يغفل عن الاستعداد رسولك ترجمان عقلك الطاعة غنيمة الاكياس عند تفريط العاجز كلما اشتد الظلام حسن ضوء السراج

الثناء با كثر من الاستحقاق ملق والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد أولى الناس بالرحمة من احتاج اليها فحرمها من لم يدر قدر البلية لم يرحم أهلها كفاك أدبا لنفسك ما كرهته لغيرها مجالسة الاحمق غرر والقيام عنه ظفر لا تسأل عما لم يكن فان فى الذى كان شغل البخل جامع لمساوى العيوب وهو زمام يقاد به الى كل سوء اذا صح القلب وصح العمل كان التوفيق احراز المواقب بالاجتهاد والاجتهاد اربح بضاعة التوفيق خير قائد كمال العمل التوفيق من ترفق فى استتمام الحظ من البغية أدرك وبلغ مقاربة الناس فى اخلاقهم امن من غوائلهم لا تنظر الى أحد بالموضع الذى رتبه فيه زمانه ولكن انظر اليه بقيمته فى الحقيقة فانها مكانه الطبيعى أبعد الناس سفرا من سافر فى طلب أخ صالح ليست البركة من الكثرة لكن الكثرة من البركة (وقال داود عليه السلام) ان كان ما ترى من الجهل يغيظ اذن يكثر الجهل ويطول غمك (قيل لبزرجمهر) ما لكم لا تعاتبون الجهلة قال لانا ما نريد من العميان ان يبصروا العشق مرض نفس فارغة لا همة لها اجالة الفكرة واستخراج الفطنة تتبع الاساءة بالندم وتتبع الندم بالاقلاع الامن بالبراءة وكثرة الصديق بالتواضع وأعم الاشياء نفعا فقد الاشرار من بذر عداوة حصد ندامة السمنة للنساء خلة وللرجال غفلة (قال المسيح) عليه السلام ما حلم من لم يصبر عند الجهل وما قوة من لم يرد الغضب وما عبادة من لم يتواضع للرب سبحانه عبادة النوكى المجىء فى غير وقت والجلوس فوق القدر اذا وقعت الضرورة ارتفعت المشورة (قيل لحكيم) أخرج الهم من قلبك قال ليس باذنى دخل من اغتر بحاله قصر فى احتياله اياكم وطلب الامور من غير وجهها فيعنيكم طلبها ولا تدركوا حظا منها هيبة الزلل تورث الحصر (قيل للحكيم) لاى شئ تزوجت امرأة دميمة وأنت وسيم قال اخترت من الشر اقله (وقيل لحكيم) ما تقول فى الزواج قال لذة شهر وهم دهر فتنة عالم الى ابليس خير من غواية ألف جاهل تمنى المعاتب ولا تمنى المعاذير الموالاة فى الاسلام بمنزلة الحلف فى الجاهلية سب الجاهل للحكماء تشريف لهم عند أهل الفضل لان الجاهل منسوب الى فعله وكما ان الحكيم يتألم بحديث الجاهل كذلك الجاهل يتألم بسماع الحكمة اغنى الناس عن الحقد من عظم قدره عن المحاذاة الكبير الهمة من الرجال من كان عنف الناصح عنده الطف موقعا من ملق الكاشح ان كانت الجدود هى الحظوظ فما بال الحرص وان كانت الامور ليست بدائمة فما بال السرور وان كانت الدار غدارة فما بال الطمأنينة (وقال الشعبى) ما رأيت الله سبحانه وتعالى أعطى عباده أجل من الحلم (وقال عمر بن الخطاب) رضى الله عنه خمس من لم تكن فيه فلا ترجه لشئ من أمر الدنيا والآخرة من لم تعرف الوثيقة فى أرومته والدماثة فى خلقه والكرم فى طبعه والنبل فى نفسه والتخافة عند ربه (قال أبو عبد الله بن حمدون) كنت مع المتوكل لما خرج الى دمشق فركب يوما الى رصافة هشام بن عبد الملك فنظر الى قصورها ثم خرج فرأى ديرا قديما هناك حسن البناء بين مزارع وانهار وأشجار فدخله فبينا هو يطوف اذ بصر برقعة قد الصقت فى صدره فامر بقلعها فاذا فيها هذه الابيات

أيا منزلا بالدير أصبح خاليا * تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم يسكنك بيض أوانس * ولم يتبختر فى فنائك حور

وأبناء أملاك غواشم سادة * صغيرهم عند الاله كبير
اذا لبسوا ادراعهم فعوابس * وان لبسوا تيجانهم فبدور
على انهم يوم اللقاء ضراغم * وانهم يوم النوال بحور
ليالى هشام بالرصافة قاطن * وفيك ابنه يادير وهو أمير
اذا العيش غض والخلافة لذة * وأنت طريب والزمان غرير
وروضك مرتاد ونورك مزهر * وعيش بنى مروان فيك نضير
بلى فسقاك الغيث صوب سحائب * عليك لها بعد الرواح بكور
تذكرت قومى فيكما فبكيتهم * بشجو ومثلى بالبكاء جدير
فعزيت نفسى وهى نفس اذا جرى * لها ذكر قومى انه لزفير
لعل زمانا جار يوما عليهم * لهم بالذى تهوى النفوس يدور
فيفرح محزون وينعم بائس * ويطلق من ضيق الوثاق أسير
رويدك ان الدهر يتبعه غد * وان صروف الدائرات تدور

فلما قرأها المتوكل ارتاع وتطير وقال أعوذ بالله من شر اقداره ثم دعا صاحب الدير فسأله عمن كتبها فقال لا علم لى به وأما الكتب وصفاتها فتجل عن الوصف ولقد أحسن ابن الجهم فى قوله

سمير اذا جالسته كان مسليا * فؤادك مما فيه من ألم الوجد
يفيدك علما أو يزيدك حكمة * وغير حسود أو مصر على الحقد
ويحفظ ما استودعته غير غافل * ولا خائن عهدا على قدم العهد
زمان ربيع فى الزمان بأسره * يبيحك روضا غير ذاو ولا جعد
ينور احيانا بورد بدائع * أخص وأولى بالنفوس من الورد

وأنشد بعض العجم

اذا ما خلا الناس فى دورهم * بخمر سلاف وخود كعاب
وأنسهم فى ظلام الليال * لعيرالندامى ورهو السحاب
خلوت وصحبى كتب العلوم * وبيت العروس بيت الكتاب
ودرس العلوم شراب العقول * فدوروا على بذاك الشراب
وما يجمع المرء فى دهره * سوى العلم يجمعه للتراب

ومن مليح ما ينشد فى الكتب

اذا ما خلوت من المؤنسين * جعلت المؤانس لى دفترى
فلم أخل من شاعر محسن * ومن عالم صالح منذر
ومن حكم بين أثنائها * فوائد للناظر المفكر
وان ضاق صدرى بأسراره * وأودعته السر لم يظهر
وان صرح الشعر باسم الحبيب * لم أحتشمه ولم أحصر
وان عدت من هجرها الهجا * وسب الخليفة لم أحذر

ونادمت فيه كريم المغيب * لتدمأته طيب المخبر
فلست أرى مؤنسا ما حييت * عليه نديما الى المحشر

وأنشد ابن حزم لبعض الادباء

ان صحبنا الملوك تاهوا علينا * واستبدوا بالرأى دون الجليس
أو صحبنا التجار عدنا الى الفقـ * ـر وصرنا الى حساب الفلوس
فلزمنا البيوت تخذ الحبر وغلا به وحوة الطروس
لو تركنا وذاك كا ظفرنا * من أمانينا بعلق نفيس
غير ان الزمان أعني بنيه * حسدونا على حياة النفوس

وأنشد غيره

أنست الى التفرد طول عمرى * فمالى فى البرية من أنيس
جعلت محادثى ونديم نفسى * وانسى دفترى بدل العروس
قد استغنيت عن فرسى برجلى * اذا سافرت أو نعل كبوس
ولى عرس جديد كل يوم * بطرح الهم فى أمر العروس
فبطنى سفرتى والخرج جسمى * وهميانى فمى أبدا وكيسى
وبيتى حيث يدركنى مسائى * وأهلى كل ذى عقل نفيس

ولئن كان الناطقون قد وصفوا فجودوا وقالوا فابلغوا فلقد قصروا وأجل ممدوح من استقصر فى مدحه المنتهى واستنزر فى تفريطه المحتفل وكيف لا والكتاب نعم الانيس فى ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل وعالم ملئ علما وظرف حشى ظرفا واناء ملئ مزاحا وجد ابستان يحمل فى ردن وروضة تتقلب فى حجر هل سمعت بشجرة تؤتى كلها كل ساعة بألوان مختلفة وطعوم متباينة هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يتوى وثمر لا يفنى ومن لك بجليس يفيدك الشئ وخلافه والجنس وضده ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحيا ان غضبت عليه لم يغضب وان سخطت عليه لم يجب اكتم من الارض وانم من الريح والهى من الهوى واخدع من المنى وامتع من الضحى وانطق من سحبان وائل واعيى من باقل هل سمعت بعلم واحد تحلى بحال كثيره وجمع أوصافا غزيره عربى فارسى هندى سندى رومى يونانى ان وعظ أسمع وان الهى أمتع وان ابكى أدمع وان ضرب أوجع يفيدك ولا يستفيد منك ويزيدك ويستزيدك ان جد فبسر وان مزح فنزهة قبر الاسرار وحرز الودائع قيد العلوم وينبوع الحكم ومعدن المكارم ومؤنس لا ينام يفيدك علم الاولين ويخبرك عن كثير من أنباء الآخرين هل سمعت فى الاولين أو بلغك عن أحد من السالفين جمع هذه الاوصاف مع قلة مؤنته وخفة محمله لا يرزأك شيأ من دنياك نعم الذخر والعقدة والمستغل والحرفة جليس لا يضربك ورفيق لا يملك يطيعك بالليل طاعته بالنهار ويطيعك فى السفر طاعته فى الحضر ان أدمت النظر اليه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بنانك وفخم الفاظك ان الفته خلد على الايام ذكرك وان درسته رفع فى الخلق قدرك وان حملته نوه عندهم باسمك يقعد العبيد فى مقاعد السادة ويجلس السوقة

في مجالس الملوك ما أكرم به من صاحب وأعز به من مرافق وقد قال فيه الأول

لنا جلساء ما نمل حديثهم * ألباء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى * ورأيا وتاديبا وعقلا مسددا
بلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة * ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فان قلت أموات فما أنت كاذب * وان قلت احياء فلست مفندا

فهذا ما أردنا أن نمليه في هذا الكتاب فاكتبوا ان شئتم انفاسه ان كانت الانفاس مما يكتب

*(قال المتوسل الى الله سبحانه بخير من وطئ البساط طه محمود قطرية
المنسوب نشأة الى دمياط المصحح بدار الطبع أدام الله جمال
سلوكه بدوام السماء ذات الرجع والارض ذات الصدع)*

اللهم يا ذا الحنان ويا نافذ الحكم وغالب الامر وقوي السلطان بسلطان مجدك اعتزت كلمة أوليائك ونفذ أمرك في اهل أرضك وسمائك سبحانك وبحمدك أذلت الكون على ما رضيت ان يكون العباد ووليت الامرة من تحقق بمزيد الصلاحية والقيام بحق السداد وانطت اقام الدين ونظام الدنيا بمن أصبح به لواء العزة بك منشورا وجعلت نفوذ الكلمة ميسورا ما كان الامر بين أهله شورى واقت أساس المنعة والبأس على عماد الاستنصار بقيوم أمرك ودعوم ملكك القائم على كل نفس ولك الشكر حتى تزلف لنا به من عنايتك غرف الاقدار على طاعة أهل حكمك وولايتك والبراءة اليك من شرة النفس الابية والعياذ بك من ذل الهوى وظلم الطبع الذي يستفز الحمية حمية الجاهلية ثم الصلاة على سيد خلفائك في الارض وامام أوليائك القائم بأمرك في الابرام والنقض محمد سراج ملوك الهدى الخاضع عليك وتاج ملاك السير الى رضاك والداعي باذنك اليك وعلى آله رؤساء دولة الفتح المبين وأصحابه الذائدين بأموالهم وأرواحهم عن كلمة الحق مخلصين له الدين وسلم اللهم تسليما واهدنا بهم صراطا مستقيما هذا وان الكتاب الجليل الغني بوضوح فضله عن الاجمال في مدحه والتفصيل المسمى سراج الملوك كتاب لم يغادر من آداب الاخلاق وبدائع النصائح والامثال الرقاق من منقول ولا متروك وكيف لا وهو لواحد العصر من له في تناثف المعارف الجمع والقصر من الى ضرب امثاله البروحي وجوشوشي الامام العلامة محمد بن الوليد أبي بكر الفهري المالكي الطرطوشي فلقد جادت يده بأجل كتاب جادت به يد تصنيف وأوفر سفر قالت الحكمة تحت ظل تبيانه الوريف واجمع مؤلف ألف شمل الانباء بعد انصداعها وأودع خزائن الافكار ودائع النصائح الرشاق أتم ابداعها اشتمل بشمال الابانة عن دقائق الحكم حيث اشتمل على رقائق مواعظ وأحاسن أخلاق من سلف من ملوك العرب والعجم فتسابقت في مضمار تنزيله الحكم فرسان الزواجر والعبر وسارقت الى رقة الفاظه رموز روادع العظة فكان من احدى الكبر لعمر الله لهو اجدر ان يكون لطموح الصدارة سراجا مشعلا ولوفود احسان السياسة ورقي درج الرآسة محلا آهلا محلى من ثم عني بطبعه الابهى وتمثيله الارغد الاشهى من له في آي المكارم الفاتحة والخاتمة حضرة الفاضل الشيخ صالح محمد باعيسى رئيس التجار الحضارمة جزاه الله مزيد الاجر وبين له الخيط الابيض

من الخيط الاسود من الفجر وكان اجراء الطبع والتمثيل المصحوب بالتهذيب الانيق والضبط والتحرير الوثيق المنفرد بالاصالة مما أزبدت أمواج بحر النيل بمطبعة بولاق مصر التي حطت عن اعناق الاقلام وهام البنان كل عب مواصر وغردت عليها بلابل الافادة والانتفاع وسطعت من سماء ازديانها شموس الجلالة على صفحات الابصار والاسماع كيف لا وقد أوبت بها شمال مراحم ولي كل نعمة رب المآثر المنثورة والمحامد الجمة عزيز الدنيا ومطمح أبصار العليا المخصوص بالهمة السامية والعزم الملي أفندينا اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على أيد الله بالصولة والمنعة دولته وبهج بجميل الذكر والكرامة طلعته وحرس اشباله وانجاله الذين هم انجزلوعده وأنجى له سما الشبل الاسمى ومزنة نوء عدله الاهمى من به ثوب العدل صفيق سعادة المشير الافخم محمد باشا توفيق حفظه الله واياهم من الخير مناه منوطة تلك الدار بنظر صاحب المساعي المشكورة والمكارم الغزار من به صادق الرأي يستغنى سعادة ناظر المطبعة والكاغدخانه حسين بك حسنى موصولة النظر بوكالة وكيلها المهتدى بدلالته الى سواء سبيله من اذا أشارت المعارف فاياه تعني حضرة محمد أفندى حسنى ملحوظة بعهدة ذي السعي الجميل والمقصد الاحمد جناب أبي العينين أفندى أحمد موكولة التصحيح المستطاب والتهذيب والتنقيح الذي ملأ الوطاب الى رياسة ذي الفكر الثاقب والفهم المدرار حضرة المولى الفاضل الشيخ ابراهيم الدسوقي عبد الغفار ولما غرد طير الاكتمال على غصون طبع صالح هذه الاعمال رحت مادحا مؤرخا حسن هذا الصنيع على لسان كل بصير بمقدارها سميع قائلا

بدا المجد قد دبجت طرزها * فهل من سعيد حسا كرزها
فكم قدر المجد قدر امرئ * تراه حصاف النهى برزها
وكم للسان العلا لهجة * تنادي ان استخرجوا كنزها
وما الناس الا امرؤ ان يذل * بدنياه ساقت له عزها
والقت اليه مقاليدها * وأدنت الى سعيه حوزها
وآخر يأبى على نفسه * سما الضيم حتى يرى وخزها
يحمله الرأي ما لا يطيق * كما حملت الف همزها
وآخر أربى عليه هواه * وأمضى لفرصته نهزها
* أقام يشبب بالمنحنى * وبيض الدمى بالحشا ركزها
يفوت بذكراه ياقوت ثغر * ممنعة احرزت حرزها
اذا مارنت عانت القلب منه * فهل يحسد القلب او غمزها
وان هي ماست فيا دوحة الحسن * بها عبث الدل أن هزها
بروعه بالضنا حصرها الـ * ـذي علمته به لغزها
ويجزيه بالملام العذول * يرى نفس من صابرت عجزها
وبات له ناظر قد أجاد * لابريز شهب الدجى فرزها
يقول لنجم السما راعنا * به عوز يجتدي عوزها

له مسك تمن حشاوعزاه * لنفس بها ماغدا كزها
اذا نقد الصبر يا زيقها * وان بذل الوصل يافوزها
اخا الولع اربع وبحي رأى من * عن الولع القلب قدنزها
وهات اجل لى من سراج الملوك * سناغرة او صحت نخزها
كتاب اتانا بحق اليقين * فاتى النهى مابه ابتزها
يكاد سنا برق انبائه * يجب القلوب برى ازها
ابان لنا زبر الاولين * وابرز من طيها رمزها
فكم فيه من عبرة للبصير * ومن عظة تقتضى قزها
ومن حظة تستطير النفوس * لما قد دعى باغز بغزها
يورث علما بذات الصدور * ويجعو بلين الهدى ترزها
لذا كان بالطبع من باب اولى * لتنشق منه النهى تأزها
فلله در امرئ صالح * وصالحة فى النهى ورزها
لجاه نجاة طبع جميل * به للا مالى فتى نجزها
فلا ريب يجزى بجزاء وفاقا * ومن جاه شاكله يجرها
ومذ أفرغوا حله الانتهاء * على طبعه المقتدى انزها
اشرت على الحال ارخ أضاء * سراج الملوك بطابع زها

٨٠٢ ٢٦٤ ١٢٧ ٨٣ ١٣

سنة ١٢٨٩

ووافق كمال طبعه المنير آواخر رمضان المحرم سنة التاريخ
المنظوم من هجرة البشير النذير صلى الله عليه وسلم وعلى
آله وصحبه ومن تبعهم على التى هى أقوم
ماحن مشتاق الى البكاء واشتاق
مهجور الى ابن ذكاء
والحمد لله رب
العالمين
م